٢٩

تاريخ المصريين

ذيل وليم الصورى

تأليف

أ.د. حسن حبشى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



ذيل وليم الصورى

تأليف

أ. د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٢



الاشـــراف الفنى

محمود الجزار

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكـتاب عن ذيل وليم الصورى وهو ترجمة لتاريخ وليم الصورى للحروب الصليبية الذى قام بترجمته المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور حسن حبشى أســتاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس ، والذى قام بترجمته كتاب وليم الصورى الشهير عن الحروب الصليبية ، والذى صدر فى هذه السلسلة فى أربعة أجزاء ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٧ .

وهذا الكتاب يعتبر تذييل من المؤلف لكتابه عن الحروب الصليبيـــة .

وبالتالى تــكون هذه السلسلة باصـــــدار هذا التذييل ، لوليم الصورى ، قد استكملت عملا علميا هائلا بفضل جهد عالم جليل هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى الذى قام بترجمـــة هذه الأعمـــال العلمية .

والكتاب يتعرض لأحوال الصليبيين فى الشرق وتسليم عكا ، واستيلاء صلاح الدين على بعض مدن الساحل الشامى وعسقلان .

ويتحدث عن الروح الانسانية عند صلاح الدين ، ومظاهر الكراهية بين الأوربيين والبيزنطيين ، وصدى سقوط القدس فى

أيدى المسلمين فى الغرب وانتقال الصراع الاسلامى الصليبى الى البحر ، وأحداث أرمينيـــة والنزاع بين الانجليز والفرنسيين فى صقلية ، ومحـاربة الصليبيين لقبرص ووقوع ريتشـــــارد فى الأسر ٠

والكتاب على هذا النحو يعتبر وثيقة تاريخية مهمة عن تاريخ الحروب الصليبية ، ونرجو أن يجد فيه القـارىء ما ينشـــد من فائدة ومتعة ٠

رئيس التحرير

أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان



توطئة

هذه توطئة للترجمة العربية للذيل على تاريخ «وليم الصورى» وهو الكتاب الذى وضعه رجل من أهل الغرب عن فترة شاهدها هو ذاته مما يكسب الأصل أهمية خاصة باعتبار الكتاب مذكرات شاهد عيان لمرحلة من مراحل الحروب الصليبية لاسيما الحرب الصليبية الثالثة ، ولسنا نتناول فى صفحات هذه التوطئة بيان الدوافع التى اعتاد المؤرخون والكتاب المحدثون تقديمها بين يدى مؤلفاتهم وترجماتهم التى أدت الى هذه الحروب التى عرفت بالصليبية . وليس اغفالنا ذكرها استهانة منا بأمرها ، ولكن لأن مثل تلك المقدمات أصبحت معروفة للجميع ، ولا أغالى ان قلت أن خبرها صار حديثاً ممجوجاً سئمته الآذان وملته الأسماع ، وانما تتمثل خطورة تلك الحروب فى خواتيمها التى تعتبر نقطة انتقال فى المساحة الجغرافية والزمنية فى الشرق والغرب على السواء ، من حيث كشفها عن ظواهر خاصة كان لها طابع معين فى تاريخ الانسانية ، واستمرت هذه الظواهر المستجدة فى الساحة التاريخية تستمد أهميتها من حدث ضخم هو سقوط بيت المقدس يوم الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ يوم صحا أهل فلسطين ـ ان كانوا قد غمض لهم جفن ــ والقلوب واجفة ، والنفوس فزعة مضطربة ، والأرواح قد بلغت الحلقوم ، اذ اجتاحت البقايا الباقية ـ من جيوش الغرب الفرنجية ومن بقى ممن خرج فى ركابها منذ سنة ١٠٩٦ م ــ أراضى الشرق الاسلامى ، وانطلقت جحافلهم

معربدة مجنونة تنشر الدمار والخراب والفزع والفوضى والهلاك مكتسحة كل معالم الحضارة فى شتى مظاهرها ، كأنهما الثور فى مستودع الخزف ، فهام الناس على وجوههم يتخبطون لا يدرون أين يذهبون اتقاء للشر البذىء يحمله الغزاة الجفاة ، وانطلق الأهالى هنا هناك لا يجدون لهم ملجأ ، كما جد فى أثرهم هؤلاء المتبربرون أعداء الانسانية انطلاقا أهوج يدمرون ويقتلون كل من يلقون من أهل البلاد : كهولا وهن العظم منهم أو نسوة يحملن أطفالهن على صدورهن وغيرهن ذهلن عمن يرضعن أو عذارى لم ينكشفن على أحد ، وجرت الدماء مطلولة وخاضت فيها الخيول حتى ركبها كما كتب أحدهم الى البابا فى رومة يبشره بما تم للصليبيين من نصر فى نظره وان كان نصراً لا يرضاه المسيح الذى سبيله رحمة ومحبة فقد سقطت القدس فى أيدى الفرنجة أو فى أيدى من بقى من جيوشهم التى خرجت فى الأصل من أوربة الغربية،ثم هلك من رجالهم من هلك فى الطريق فى صحراء آسيا الصغرى ، وبعد أن تخلى وتخلف منهم من تخلف عن قصد قبل بلوغهم القدس ، فاتجه البعض منهم الى الرها ، ثم تلاهم غيرهم ممن انتهى بهم السير فى انطاكية مع زعيمهم « بوهيموند » . ولم يعنهم من أمر القدس وقبر المسيح الذى قالوا انهم جاءوا لتخليصه من أيدى المسلمين ، ولم يعد يعنى هؤلاء المحاربين أو حجاج بيت المقدس ـــ كما نعتوا أنفسهم ـــ أن تبقى القدس فى أيدى المسلمين أم تصبح فى أيدى المسيحيين .

كان هذا اليوم فى تاريخ البشرية يوما أغبر وان هلل له الغزاة كأن لهم ثأراً مبيتاً عند أهل البلاد .

لقد كان ما فعلوه يومذاك ترجمة فعلية ذميمة لدعوة صدرت فى « كليرمونت » سنة ١٠٩٦ م وتلقفتها جماعات الرعاع الذين يحلمون بحياة أفضل من الحياة التى يحيونها ، ثم تلقفها مشعوذون

أمثال بطرس المعروف بالناسك وما هو بالناسك وولتر المفلس الذى كان من حثالة القوم ممن لا عمل لهم ٠

★★★

وتمر الأيام منذ نوفمبر ١٠٩٦ وصيحة الحرب والانتقام تصم الآذان ، حتى اذا جاء الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م سقطت القدس ليتولى أمرها وأمر فلسطين أغراب طارئون عليها لا يعرفون شيئاً من أمر هذه البلاد : اجتماعياً واقتصادياً، ولا ما ورثه أصحابها الأصليون جيلا بعد جيل من حضارة شهد لها التاريخ ، ودل هؤلاء المغيرون الغزاة دلالة صريحة على انهم لا يعرفون حقيقة المسيحية التى هى سلام ومحبة ورحمة كما يقول فيها شاعر الاسلام ، ولما هدأت سورة الرعونة فى نفوس الغزاة شرعوا يرتبون أمورهم ليقيموا دولة فى ارض هم دخلاء عليها واختلفوا! اتكون علمانية ؟ أم يعهدون بأمورها الى رجال الدين لاسيما وان البابا ايريان الثانى أناب عنه فى رئاسة الحملة نائبه اديمار دى مونتيل ثم انتهى الأمر أخيراً بهؤلاء الدخلاء الى أن يلقوا بمقاليد الأمور الى حاكم مدنى هو « جودفروى دى بويون » فاقيمت مملكة لاتينية مدنية ، أنكرها مسيحيو الشرق المعروفون بالروم أو البيزنطيين الذين ظلوا كارهين لهؤلاء الغزاة كراهية استمرت حتى انفجرت سنة ١٢٠٤ م يوم ازال المسيحيون الغربيون الدولة المسيحية الشرقية ، وشارك البيزنطيين هذه الكراهية أهل فلسطين الذين احتملوا من عنجهية هؤلاء الأوربيين الغربيين ما احتملوا ، ولكنهم كانوا فى قرارة أنفسهم يتطلعون الى يوم يطردون فيه هذا الدخيل الذى وجد من تفكك حكام البلاد المسلمين وتشرذمهم ما عبد الطريق أمام هؤلاء الصليبيين لاحتلال البلاد ٠

لقد قاسى أهل فلسطين وأهل هذا الشرق ما قاسوا من شتى انواع المظالم والعدوان وحروب الابادة لكنهم كانوا يتطلعون الى

يوم يتخلصون من هذا النير ويحطمون الاغلال ، وكانت طليعة هذا التحرر يوم عيد ميلاد المسيح من عام ١١٤٤ م يوم قيض الله لهذا الشرق الاسلامى حاكما عرفه التاريخ باسم « عماد الدين زنكى » الذى كان فاتحة قائمة من المجاهدين الصادقين الأحرار الــذين نفضوا عن هذا الشرق الاسلامى أو بعض أجزائه غبار الــذل والتخلف . فبرزت الشخصية الاسلامية قوية عمــلاقة . ثم تلقف الراية من يده ولده « نور الدين محمود » ، ثم تابع المسيرة فى حياته وبعد مماته قائد من قواده — وكان كرديا — واسمه صلاح الدين الأيوبى الذى لم يذق طعماً للراحة حتى اذاق الدخلاء مرارة الهزيمة وذل الانكسار ، وطعنهم طعنة أدمت منهم القلوب وتركت فيها جرحاً لا يندمل ، يوم وقــع فى أسره ملــك بيت القــدس وباروناتــه وكندصطبلاته وكبار المتنفذين وذلك فى وقعة عرفت بقرون حطين يوم الرابع من يوليو ١١٨٧ (ربيع الثانى ٥٨٣ هـ) فمحت حطين العار الذى استمر من يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ يوم احتلى الفرنجة القــدس حتى استردها المسلمون أى بعد أن ظل هؤلاء الصليبيون محتليهــا قرابة ثمانية وثمانين عاما .

★★★

لقد كانت الفترة السابقة لحطين فترة مخاض اظهرت ما كان عليه الصليبيون فى الشام من ضعف ، وزالت الهيبة التى استقرت فى النفوس منهم ، ومروا بدور حرج ، فهناك ملكهم « بلدوين » الرابع الذى هده الجذام حتى اسلمه الى الموت ، ثم كان خلو العرش الذى اعتلته أخته « سيبيــلا » Sibilla وزوجهــا « جى دى لوزنيان » الذى لم يكن لديه صفة من صفات الزعامة والقيادة ، وكان موضــع الازدراء من أمرائه وباروناته الصليبيين ، وهنا نقف لحظة قصيرة نستعرض فيها ما كان من نزاع حاد فى الساحة الصليبية لاسيما بين الملك الصليبى بلدوين الرابع وبين « جى دى لوزنيان » الذى

سوف يؤول اليه حكم المملكة ولم يكن أحد بالمملكة وأصحاب السلطة وأولى الأمر والنهى يميل الى جى ويرضى به ، لكنه صار ملك بيت القدس وأصبح هذا حقاً ثابتاً له، وعمل ما قررته امرأته «سيبيلا» اخت بلدوين الرابع ووريثته الشرعية .

وتدور عجلة الزمن بصراعات خفية وظاهرة تؤججها الكراهية من جانب ، والاحتقار من جانب آخر نحو « جى دى لوزنيان » ثم يطلع يوم على الصليبيين يرون فيه « سيبيلا » تتوج مع « جى » سنة ١١٨٦ ، ويرى معظم الصليبيين — لاسيما كبارهم — فى هذا الزواج انه زواج أقل ما يوصف به انه غير متكافىء بين طرفين يعتمد أحدهما — وهو الزوجة — على عرق ضارب فى الملوكية ، أما الطرف الآخر وهو « جى دى لوزنيان » فلا سند له غير انه من أسرة فرنسية اقطاعية . ثم يقدر لهذا الاختلاف أن تظهر بوادره يوم مات بلدوين الرابع ويؤول عرش المملكة الى أخته كونتسة يافا التى كان وقوفها الى جانب « جى » كل الفضل فى توجيه الأحداث لصالح هذا اللوزنيانى ، كما تصرح هذه الكونتسة علانية أن احترامها للمقادير يملى عليها أن تقف الى جانب جى ، وذلك يوم قالت : « انها اعطته عن رضا وطيب خاطر أن يملك جسدها » ، فقطعت جهيزة — كما يقول المثل العربى — قول كل خطيب ، فآل التاج الى « جى ، كونت يافا » ، واكدت هذا يوم قالت بمحضر من كبار الكونتات واللوردات وأعيان المملكة قولا حاسما « أعلن أنا سيبيلا اننى اخترت لنفسى جى دى لوزنيان زوجاً وملكاً .. لاننى أعرف انه رجل عظيم وذو خلق قويم ، وسوف يحكم شعبه حكماً صالحاً ، ولن ارضى بغيره بديلا » ، فألقمت جميع معارضيهما حجراً ، وكان فى مقدمة الذين وافقوها فرسان الاسبتارية والداوية ، وتم مسح « جى دى لوزنيان » ملكاً ، ولم يعارض فى ذلك — صراحة وعلانية — سوى ريموند كونت طرابلس ، فبعث الى صلاح الدين — كما تقول بعض المصادر الغربية — يستعديه على الملك بل وعلى

المملكة ، وسنرى فى متن هـذه الترجمة صـورة لهـذا الموقـف ونـزوله ، ونستطيع أن نلمس ذلك فى ثنايا ما يعرضه ـ بين آونـة وأخرى ـ كاتب الذيل . لكن اذا كانت هذه هى الصـورة العامة لتلك المنطقة فقد كان هناك فى الجانب الآخر صحوة اسلاميـة تبلورت فى صلاح الدين .



لقد كان من أثر حطين أن تحرك الغرب لكن تحـركه كان أشبه بزحف الوليد ، ثم كان من أثره الدعـوة لما عرف بالحـرب الصليبية الثالثة وخروج ملك فرنسا « فيليب أغسطس » وملك انجلترا « ريتشارد قلب الأسد » ، واذا كانا قد تعاهدا على تناسى ما بينهما من النزاع الا أن هذا النزاع عاد ليطل برأسه من جديد ليزيد الهوة بين الملكين اتساعاً ، وتبخرت أحلام الغرب فى القضاء على صلاح الدين أو على الأقل فى استرداد القدس اذ سرعـان ما عاد فيليب أغسطس الى بلاده ، وان كان ذلك فى أعقاب الاستيلاء على « عكا » ، وخلت الساحة خالية الا من الملك « ريتشارد » الذى ظل يصارع من حوله حتى سنة ١١٩٢ م ، ثم كانت فجيعته الكبرى يوم وصلته الأنباء الصادقة بخروج أخيه « جون » عليه فى انجلترا ومحاولته انتزاع الحكم والتاج هناك لنفسه .

ومنذ هذه اللحظة أو قبلها بقليل تبدأ الصلات بين صلاح الدين وريتشارد وتظهر اتجاهات جديدة وهى التى يأخذ هذا الكتاب فى سردها .



ان هذا الكتاب يبرز نقطة خطيرة فى مسيرة ركب الانسانية ، ونعنى بها ذلـك الصراع حـول القدس وهـو صراع ـ يختلف

عمـا سبقـه ــ بين المسلمين أصحاب الأرض وبين دخيل يحاول ايجاد موضع قدم لـه فى هـذه البقعة الغالية على نفوس اهـل الديانـات السماوية ، ولم يكـن هذا الدخيل يمت لهذه الأرض بأى صـلة وانما هـو وافـد طامع ، فكـان من جراء ذلك صراع تركزت مساحته الجغرافية فى الساحل الفلسطينى وهو موقع خطير الأهمية للقوى الأوربية وللصليبيين الذين سعوا جهدهم أن يكون هذا المكان فى أيديهم ، وان يطردوا منه أصحـابه حتى يظل تدفق القوات الأوربية موصولا غير مقطوع ولا ممنوع ، وحتى يسهل على هذه القوات الوصول الى عكا ليثبوا منهـا الى ما وراء الساحل ، وقد وجد الصليبيون معونة فعالة غير منكورة من جانب البندقية على وجه الخصوص .

لقد كانت القوى الصليبية وحوشا كاسرة تتلمظ افواهها للحصول على جزء من الفريسة ان لم تكن الفريسة كلها ، وتشهد كتابات المؤرخين المسلمين أمثال ابن القلانسى وابن الاثير بـل وابن تغرى بردى . رغم تأخره زمنيا ــ على صدق هذه النظرة .

يضاف الى هذه القوى الأوربية ظهور قوى معادية كارهـة للاسلام مثل الاسبتارية والداوية .

ولقد لعبت « صور » دوراً خطيراً ما كان ينبغى على المسلمين التهوين من شأنه ، وندع مؤلف هذا الذيل يكشف لنا القنـاع عنه وعن بعض الأحداث الهامة التى صحبت الحملة الجديدة ، كمـا نتبين عدم تراخى صلاح الدين فى تقوية القوات الاسلامية وامدادها بالدبابات والعرادات وآلات المنجنيق والشوانى والبطس ، كمـا يعطينا اشارات كبيرة الى استعدادات الصليبيين .

★★★

وفى ختام هذه التوطئة القصيرة نقول ان هذا الذيل فى صورته العربية الحالية يتضمن عرضاً من وجهة نظر صاحبـه وان كنـا

لا نعرفه ونجهل من يكون ، ولكن يمكن القول فى ثقة تامة ان هذا العرض هو تكملة من وجهة نظر صاحبه وبناء على ما لديه من المعلومات والاخبار التى يصبح هذا الذيل تكملة للكتاب التاريخى الكبير الذى وضعه المؤرخ الصليبى وليم الصورى وهو الكتاب الضخم الذى ترجمناه الى العربية ونشر عام ١٩٩٠ فى مجموعة تاريخ المصريين بعنوان « الحروب الصليبية لوليم الصورى » .

★★★

ان الكتاب الحالى — واعنى به « الذيل على وليم الصورى » أو «التكملة» هو فصول كتبها صاحبها المجهول واراد بها اكمال كتاب وليم الصورى ، وتضمنت الأوراق الموجودة من هذا « الذيل » — والتى عثر عليها حديثا — على ما عرفه المؤرخون بالحملة الصليبية الثالثة ، ويتبين لمطالعه أن صاحبه اقتصر فيه على أربعة عشر عاما (من ١١٨٤ حتى ١١٩٧ م) ، كما انه مبنى على أصل وحيد محفوظ الآن فى مكتبة بلدية « ليون » بفرنسا كما جاء فى مقدمة الكتاب الذى ترجمنا عنه هذا الذيل واعتمدنا على مقدمته فى معظم سطور هذه التوطئة فيما يتعلق به ، ومنه نعرف أنه نشر لأول مرة فى سنة ١٩٨٢ بعد العثور عليه وعكفت على نشره « السيدة مرجريت روث مورجان » وجعلت عنوانه :

La Continuation de Guillaume de Tyre (1184-1197), par Margaret Ruth Morgan, (Paris, 1952).

على اننا نكتفى بالاشارة الموجزة الى ان وليم الصورى — كما يتبين من ترجمتنا العربية لكتابه « الحروب الصليبية » — قد وقف عند حوادث سنة ١١٨٤ م ، وكانت مادته هامة وصادقة وموثقة مما اكسبه أهمية خاصة ، مما حدى الى ظهور اكثر من « ذيل » له فى أماكن مختلفة مبعثرة فى مكتبات أوربة وفى أزمنة مختلفة .



ولا يزال المؤرخون المحدثون يستعملونها ويرجعون اليها . على انه يستفاد من المقدمة التى كتبها بيتر أدبيورى وهى باسم :

The Conquest of Jerusalem and Third Crusade (by Peter W. Edbury).

على ان نسخة مخطوطة ليون الأصلية محفوظة فى مكتبة بلدية ليون وقد تضمنت أحداثا سابقة لسنة ١١٨٤ م . ومعنى هذا ان مخطوطة ليون — ان لم نخطىء التقدير — « شاملة لحوليات أخرى ولا نستطيع فى هذه العجالة الكلام عنها لعدم وجود تلك الخطية أو ما يكون قد نشر منها بين أيدينا — ونحن نترجم النص — ، ولكننا نقتصر على ما تضمنته الأحداث المتعلقة بفلسطين واحداث حطين واستيلاء صلاح الدين على بيت القدس وقيام الحرب الصليبية الثالثة والمشاركين فيها من ذوى المكانة التاريخية وأصحاب الحول فى تسيير دفة الأحداث حينذاك امثال ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس عاهل فرنسا وجى دى لوزنيان ملك بيت المقدس والمركيز دى مونتفرات وغيرهم ممن ترد أسماؤهم فى الحوليات الغربية والاسلامية المعاصرة .

وربما يزداد الأمر وضوحاً حين يتسنى لكاتب هذه المقدمة العربية نشر ترجمته العربية لكتاب امبرواز Ambriose عن حرب ريتشارد قلب الأسد الصليبية .

ولا نطيل الكلام هنا ولكن حسبنا ان نشير على القارىء العربى بمراجعة ما خلفه مؤرخ آخر مجهول الاسم هو الآخر عن هذا الموضوع ، وهذا المرجع أو المصدر هو الذى ترجمناه فى العام الماضى بعنوان :

الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) (★) ·

ونعود الى نسخة «ليون» الخطية للذيل الحالى التى استقيت منها أحداث الحرب الصليبية الثالثة فنقول انها قد تضمنت ما سبق هذه الأحداث وما صاحبها كما نستطيع أن نقول ان ما فى هذه الترجمة العربية الحالية قاصر على الحرب الصليبية الثالثة مما حمل مترجمها الى الانجليزية لأن يجعل عنوان هذه التكملة هو :

« غزو القدس والحرب الصليبية الثالثة » ·

ولا أحب أن أطيل فى الحديث عن هذا المصدر الذى يرى النور فى العربية لأول مرة فى هذه الصفحات التى أرجو أن أكون قد وفقت فى ترجمتها وتقديمها للقارىء العربى لتكون فصلا جديداً من فصول الكتب التى سبق لى أن ترجمتها عن الحروب الصليبية وما ألفته عن أول واحدة منها ·

وانى لأدع القارىء يطالع ما كتبه هذا المؤرخ المجهول ويستخرج من هذه الترجمة ما يستطيع أن يستنبطه، ولست أملى رأيا معيناً ، بل أترك الكتاب للقارىء وحسبى أن أكون قد ساهمت فى نقل واحد من عيون مصادر هذه الحرب كما كتبه معاصرها ومعاصر أحداثها والله الموفق ٠

القاهرة فى مايو ٢٠٠٢ م

حسن حبشى

(★) نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب هذه الترجمة فى مجموعة تاريخ المصريين) · وهى الترجمة التى صدرت فى جزئين ·

بدء الذيل والأوضاع بين الحكم والسادة

(١)

كانت الكراهية بين الملك [بلدوين الرابع] (المعروف بالأبرص ١١٧٤ — ١١٨٥) وبين كونت يافا (جى) دى لوزنيان عنيفة ومستحكمة الحلقات ، وأخذت هذه الكراهية تزداد يوما أثر يوم حتى بلغت مرحلة راح الملك يتلمس فيها العلل ليفصل بين سيبيلا أخته وبين زوجها الكونت ، كما راح يلتمس من البطرك أن يستدعى الاثنين الى حضرته ويبين لهما عدم شرعية زواجهما ويعلن اليهما بطلانه .

لكن تسنى للكونت « جى دى لوزنيان » أن يتسرب اليه هذا الخبر فهرب سرا من البارونات ومضى الى حيث كانت تقيم زوجته « سبيلا » متوسلا اليها أن تغادر المدينة قبل أن يعود الملك [أخوها] على رأس عسكره . وكان الكونت « جى دى لوزنيان » يخشى ان جاء أخوها ووجدها ألا يسمح لها بالعودة صحبة زوجها ، ومن ثم راح يلح عليها أن ترافقه الى عسقلان فى لحظتها هذه .

★★★

لما سمع الملك بلدوين [الرابع] بوجود جى دى لوزنيان من غير جيشه بادر فأرسل فى أثره رسلا منه اليه يسألونه العودة الى البلاط الملكى ، فكان رده عليهم انه

لن يفعل ذلك حتى لا يترتب على هذه العودة حرمانه مما يتمتع به .

وتعددت مرات انفاذ الرسل اليه واحداً أثر الآخر لكنهم فشلوا جميعاً فى رده ، اذ كان يتعلل فى هذا الرفض بالمرض ، وحينذاك قال الملك [بلدوين] انه ما دام « جى » يأبى الحضور فانه هو ذاته سوف يذهب اليه ليدعوه الى الرجوع ، ومضى مباشرة الى عسقلان مستصحباً باروناته ، فلما بلغها وجد أبوابها مغلقة فى وجهه اغلاقاً محكماً ، فصاح على « جى » آمراً أياه بفتحها ، ثم طرق الباب بيده ثلاث مرات فلم يجبه أحد .

وكان كبار مواطنى البلد قد تسلقوا أسوار بلدهم وابراجه دون أن يجرؤ أحد منهم على التحرك من موضعه ، بل ظلوا حيث هم ينتظرون ما سوف تسفر عنه الأمور بين الجانبين ، وكيف تكون الخاتمة .

حينذلك غادر الملك بلدوين المدينة غاضباً وانطلق الى « يافا » حيث استقبله الفرسان والضباط وساروا معه فدخل البلد دون مقاومة وأقام عليها واليا من قبله .

حين فرغ الملك من كل هذه الأمور يمم وجهه شطر « عكا » حيث عقد مجلس مشورة كبيراً . ضم جميع البارونات والاساقفة ، فلما التأم جمعهم انطلق البطرك ومعه مقدم الفرسان وكبير الاسبتارية الى حضرة الملك وخروا ساجدين أمامه يرجونه فى تذلل الا يظل غاضباً على كونت يافا ويسألونه ان يأذن بحضور الكونت بنفسه اليه ، فلم يلق الملك اليهم سمعاً ولم يعرهم أذنا ولم يستجب الى ما طلبوه ، بل زاد فصرح لهم فى جلاء انه لن يفعل شيئاً مما التمسوه منه ، فكبر عليهم أن تلحقهم منه هذه الاهانة القاسية ، لاسيما وانها

صادرة من رجل انهكه السقم واضعفته علاته ، وكرهوا منه أن تنطوى نفسه على هذا القدر الضخم من الحقد والكراهية ، فضاقت صدورهم وغادروا البلاط ورحلوا عن المدينـة ٠

★★★

كان من المفروض أن يعقد هذا المجلس ليرسل رسـلا من قبله الى أمراء فرنسا وغيرها من الاقطار الواقعة فيما وراء البحار يسألونهم أن يمدوا يد المعونة الى أرض عيسى المسيح والى أهـل مملكته .

ومع انه كان من الواجب عليهم أن يتناولوا هذه الحاجـة الملحة قبل كل شيء الا أن البطرك بدأ باثارة الموضوع الآخر الذى ذكرته آنفا وقدمه على سواه ، فلما لم يجد استجابة لما عرضه غادر المجلس ومعه كبيرا فرسان الاستبتارية والداوية دون انجـاز أى شيء مما اجتمعوا من أجله .

★★★

كان كونت يافا يعلم أن لن يرحمه الملك بلدوين ولن يعطف عليه وأنه لن يجدى معه التوسل والاستعطاف ، وحينذاك راح يدبر أمراً يثير غضبه فهداه تفكيره الى أن يبذل جهده لحشد أكبر جمع من الفرسان ، فلما تم جمعهم انطلقوا الى قلعة الداروم (١) (التى كانت من الأملاك الخاصة بالملك وتقع على الطريق المؤدى الى مصر) وكان ينزل الى جوارها جموع غفيرة من ترك بلاد العرب المسمون بالبدو فى طلب المرعى والكلأ ، وكان نزولهم هذا باذن من الملك لقاء قدر معين من المال يدفعونه اليه ليظلهم بحمايته ، فلمـا اطمأنوا

الى هذه الحماية التى يستظلون بها من جانب الملك بلدوين لم يعودوا يكترثون بالتماس من يحرسهم هم وقطعانهم ، لكن أغار الكونت عليهم بفرسانه وأخذوهم على غرة منهم وفتكوا ببعضهم ، واستولوا على ماشيتهم ، ثم عادوا الى عسقلان محملين بما فاضت به أيديهم من المال والبضائع التى وقعت لهم .

حين عاد الملك الى عكا من القدس جاءته الأخبار بما أنزله كونت « جى » بهؤلاء البدو الذين كانوا يتفيئون ظل أمنه فى منطقة الداروم ، فأسخطه فعل الكونت سخطاً زاد من وطأة مرضه زيادة أفضت الى وفاته .

غير انه كان قد أرسل قبل موته [عن طريق البطرك] (٢) الى كونت طرابلس رسالة يستعجله فيها القدوم عليه حتى يسلمه مقاليد السلطة لثقته البالغة فيه وفى حسن ادراكه واطمئنانه الى اخلاصه . وعهد اليه بحكومة البلد فعمت الفرحة الكبرى جميع البارونات وشملت الغبطة الناس حين سمعوا هذا الخبر لانهم قالوا انه مادام الملكان : [بلدوين الرابع(٣)وابن اخته بلدوين الخامس الذى توج سنة١١٨٣م] قادرين على حسن ادارة عجلة الحكم فليس هناك ما هو أجدى من أن توضع مقاليد الأمور فى يد كونت (٤) طرابلس (ريموند الثالث) فتستقيم الأمور وتسير فى طريقها الصحيح وعلى الوجه الاكمل .

(٢)

حين كان الملك بلدوين مسجى على فراش الموت أمر باستدعاء جميع المدنيين من رجال مملكة بيت المقدس ، وأصر على أن يقسموا يمين الطاعة بقبول ريموند كونت طرابلس وصيا على المملكة حتى يبلغ ابن أخته « بلدوين » سن الرشد . وكان بلدوين الصغير هذا هو ابن أخته « سيبيلا » من المركيز وليم (٥) (ابن

وليم الثالث مركيز مونتفرات) ، وقد تَوجه بنفسه فى حياته وجعله ولى عهده بنفس الطريقة التى صار بها خاله بلدوين (٦) الثالث من قبل .

وتم الاتفاق على أنه اذا كثر الزمان عن أنيابه لبلدوين الصغير ومات دون وريث يرثه فعليهم اختيار ريموند كونت طرابلس ليكون ملكاً على بيت المقدس ان هم أرادوا واحداً يكون من داخل المملكة ، أما أن هم أرادوا واحداً من خارجها — أعنى من أهل ما وراء البحر ليكون ملكاً عليهم — فعليهم اذ ذاك النزول على نصيحة الكونت والعمل بما يشير به عليهم فى هذا الصدد ، لأن الملك (بلدوين) كان يدرك تمام الادراك انه لا يتوفر شخص آخر فى مملكة بيت المقدس أحق بالتاج من كونت « طرابلس » فهو أدنى الناس قرابة من الملك بلدوين الثالث ، وهو أجدر الناس ان يكون وريثه ، وذلك لانه لما كان بلدوين الثالث فى آخر لحظة من حياته أوصى — وهو يودع هذه الدنيا — ان يتولى أخوه عمورى [١١٦٣ — ١١٧٤ م] عرش القدس واعتبره الوريث الشرعى : فان تولاها آلت من بعده الى ابنه بلدوين فهو ابنه بالمعمودية .

(٣)

لم يكد بلدوين الثالث يوافيه أجله حتى مضى أخوه عمورى الى بطرك القدس والى بارونات المملكة يسألهم أن يضعوا التاج على رأسه هو ذاته باعتباره حقاً من حقوقه لأنه الوريث الشرعى الذى لا ينافسه فى هذا الأمر منافس .

الا أن البطرك رده بحجة أنه غير أهل لتاج مملكة بيت المقدس فقد ارتكب خطيئة مدمرة تسقط كل حق له فى التاج وفى كل شىء يكون مدعاة فخار .

كانت الخطيئة التى آخذه عليها البطرك والتى يستحيل معها اعتلاؤه العرش هى زواجه من « آجنس » Agnes أخت الكونت جوسلين . فـرد عمـودى عـلى البطـرك أنه سيضـع نفسـه تحت رحمـة الكنيسـة الطاهـرة والبطـرك معـا الكونت جـوسلين . فـرد عمـودى عـلى البطرك انـه سوف يفعل ما يؤمر به ، فقال البطرك انه اذا طلق زوجته التى كان زواجه بها زواجا تحدى به الرب والشريعة فانه يكون حينئذ أهلا بتـاج بيت المقدس . فلم يكن من عمورى الا أن عاهد البطرك أن يطلق زوجته وقريبته هذه ، وانه سوف يرسل رسالة الى رومة حول هذا الموضوع ، ويسأل البابا أن يغفر له ما كان منه ويعفو عـن زلته ، ويرجوه أن يحل شرعاً هذه السيدة وأطفالها .

على هذه الصورة كان انفصال عمـورى عـن « آجنس » واعقب ذلك تتويج عمورى ملكا ، وأصبح الآمر الناهى فى مملكة بيت المقدس .

★★★

بينما كانت هذه الأحداث تجرى على هذا النسق ، وبينما كان الملك يبعث برسله الى بلاط رومة قامت«آجنس» ـ زوجته السابقة وتزوجت من «هيج» صاحب ابلين ، كما تزوج عمورى بعد ذلك من « مارية » بنت أخى الامبراطور مانويل [١١٤٣ ـ ١١٨٠] فولدت له بنتا سمتها « ايزابيلا » التى ستصبح ملكة على بيت المقدس .

من أجل هذا كان الملك بلدوين الابرص شديد الحساسيـة بصورة لم يشأ معها أن يرى أى غريب يستولى على مملكة القدس بدون موافقة اجماعية ، ولما كان يعرف أن « جى » ليس بالشخص الجدير بحكم المملكة أو تحمل مسئولياتها ـ وهى مسئوليـات ضخمة ـ وان أخته ليس لها أى حق فيها نظرا لأنه حين انفصلت

أمها عن أبيها لم يكن قد صدر قرار بصحة (٨) شرعية الأطفال ونسبتهم اليه ، ولذلك فانه أمر رجاله بالالتزام بعهدهم الذى عاهدوا كونت طرابلس عليه فيكلون اليه الوصاية على العرش ورعاية مملكة بيت المقدس لأن حقه فيها أكثر من حق أى أحد سواه .

(٤)

كان رد ريموند كونت طرابلس على هذا الكلام ان قال انــه يرحب بالقيام بدور الوصى شريطة الا يتحمل مغبة أى شىء يحدث للطفل خلال السنوات العشر التالية ، فان أصابه سوء كالموت مثلا فلا يزعمن أحد أن موته كان بسبب ريموند أو بتدبيره .

كما انه طالب بان يعهد بالقلاع والحصــون الى الداويــة والاسبتارية للحفاظ عليها لانه لا يريد أن يـكون عرضــة لأيــة مسئولية ، أيا كانت هذه المسئولية .

كذلك أراد الكونت ريموند أن يكافأ ماليا فلا يتكلف شيئــا مما يصرف على المملكة ، اذ لم يكن بينه وبين المسلمين حينذاك أية اتفاقية أو هدنة ، كما أن دخله ليس بالدخل الذى يساعده على الصرف على جيش يكون على أستعداد للمحاربة به .

يضاف الى ذلك أنه سوف يقوم بالوصاية لعشر سـنوات فان مات الطفل خلالها انتقلت الوصاية الى يد ألصق الناس رحما به حتى تتم موافقة كل من البابا فى روما والامبراطور فى ألمانيا وملكى فرنسا وانجلترا ليعهد بالمملكة الى واحدة من أختيه : أما الى « سيبيلا » ابنة الكونتس « آجنس » ، واما الى ايزابيلا ابنة الملكة

ماريا . وكان الملك عمورى قد انفصل عن أم الأخت الثانية قبل أن يصبح ملكا .

أما أصغر الأختين فكانت ابنة الملك والملكة .

على أن البارونات لم يوافقو على أن يئول العرش الى كبرى الاثنتين فى حال وفاة الطفل الا اذا وافق على ذلك الأربعة (٩) الكبار الذين ذكرناهم حالا .

هذا ما اشترطه كونت طرابلس لأنه كان لا يريد أن ينشب فى البلد أى نزاع ، ان مات الطفل . ومن أجل هذا السبب فانه يتبل ان يظل مسئولا حتى يقضى هؤلاء الأربعة قضاءهم فى هذا الموضوع بما يرونه ويجمعون عليه .

(٥)

وافق الملك والبارونات موافقة تامة على هذه الشروط التى اشترطها كونت ريموند صاحب طرابلس ، ومن ثم أجمعوا رأيهم على أن يقوم الكونت (جوسلين » (١٠) ـ الذى هو خال الطفل ـ برعاية بلدوين الصغير ، وان يعهدوا الى ريموند كونت طرابلس بمدينة بيروت فيقوم بحراستها . ولما كان ما تم الاتفاق عليه بين بارونات المملكة فى هذا الصدد يكلفه مالا جزيلا فانه يسترده من دخل بيروت التى عهدوا اليه بها .

فلما تم له ما أراده الملك من أن يقوموا بتتويج (١١) الطفل أخذه ليتوج ووكلوا الى أحد الفرسان بحمله فحمله بين ذراعيه ومضى به الى هيكل الرب . وكان هذا الفارس رجلا عملاقاً ضخم الجثة اسمه « بليان الابلينى » وهو أحد بارونات المملكة .

كانت العادة الجارية فى القدس أن يتم تسليم الملك التاج عند القبر المقدس ، ويظل على رأسه حتى يصل الى الهيكل جريا على ما كان من عيسى المسيح ثم يعاد الى موضعه · كما جرى العرف أنه اذا رزقت أم بأول مولود ذكر وكان ذكرا قامت بتقديمه الى الهيكل عملا بما فى انجيل لوقا (١٢) من أن أهل المولود يقدمون « ذبيحة » وهى زوج يمام أو حمام · فلما قدموا للملك تاجه نصبوا موائد الطعام عند هيكل سليمان حيث يقيم الداوية (١٣) وجلس الملك وباروناته وجميع من يريدون أن يأكلوا ، لم يستثن من ذلك سوى كبار موظفى ورجالات القدس اذ عليهم القيام بالخدمة لأنهم يرون فى أدائها واجبا فى أعناقهم ازاء الملك حين وضع التاج على مفرقه ، ويقوم بخدمته هو وباروناته فى أثناء تناولهم الطعام .

ما لبث الملك الأبرص بعد تتويجه أن مات وان كان قد أمر — قبل وفاته — جميع رجالاته بالمجىء اليه فى القدس، فاستجابوا كلهم له لكنهم ما كادوا يبلغون ناحيته حتى كان قد فارق الدنيا ، وبذلك كان جميع بارونات البلاد حاضرين أثناء (١٤) وفاته ، فلما كان اليوم التالى دفنوه فى كنيسة القبر المقدس حيث دفن من سبقوه من الملوك من أيام « جود فروى دى بويون » ·

ولقد دفن الملك بلدوين الرابع بين جبل الجلجثة الذى صلب المسيح عنده وبين هذا الموضع .

(٦)

لقد تم تتويج بلدوين الصغير وتم وضع التاج على رأسه قبل وفاة الملك ، وكان جميع بارونات المملكة قد قطعوا يمين الولاء والتبعية للطفل باعتباره سيدهم ومولاهم ومليكهم ، فلما فرغوا

من ذلك كلفهم بأن يخلصوا النية لكونت طرابلس أثناء قيامه بالوصاية ، ثم حمل جميع بارونات المملكة وفرسانها على أن يقسموا اليمين على قبول الشرط الذى اشترطه الكونت فيما يتعلق بأختيه ، وأن يطيعوا كونت طرابلس ويساعدوه فى دعم الحكم وحماية البلاد ان مات الطفل خلال هذه السنوات العشر .

بعد أن مات الملك الابرص عهدوا بالملك الطفل الى كونت جوسلين الذى أخذه الى عكا ليعيش فى كنفه وتحت رعايته ، على أن يرعاه الرعاية الواجبة .

اما كونت طرابلس فقد انطلق للقيام بالوصاية على المملكة .

(٧)

حدث فى السنة الأولى التى أعقبت موت الملك بلدوين الابرص ان أمسكت السماء فلم يسقط المطر فى كافة أرجاء المملكة مما ترتب عليه انعدام الماء بالقدس ، فان وجد منه شىء كان نزراً يسيراً لا يكاد يكفى لسقيا الناس وشربهم .

لكن كان هناك رجل ثرى أسمه « جيرمان » Germain وكان شديد اللهفة لأداء أى عمل فى سبيل الرب ، فلما رآى ما فيه الناس من ندرة الماء للشرب بنى أحواضا رخامية عند ثلاثة أسوار فى أماكن مختلفة بالقدس ، وزود كل حوض بكوبين شدهما اليه بالسلاسل ، وأبقى هذه الأحواض مترعة بالماء على الدوام ، فلا يفرغ منها أبداً ، اذ يذهب اليها كل ظامىء : رجلا كان أو امرأة فيرتوى من مائها العذب .

ولما رأى هذا الرجل المدعو « جيرمان » انه لم يبق الا النزر اليسير من الماء فى هذه الأحواض لأن السماء قد أمسكت فلم تمطر اعتراه الحزن الشديد لأنه لم يستطع بهذا العمل الذى اراد بــه الخير أن يسير فيه قدما ، ولكنه كأن قد سمع من أفواه الناس ومن أهل هذه الأرض وكهولها انه يوجد الى جوار نبع « سلوام » بئر قديمة كان يستعملها يعقوب ، لكنها طمت الآن واختفت فلم يعد أحد يستعملها ، وأصبح من الصعب العثور عليها فما كان من هذا الرجل الصالح الا أن مضى الى هناك وصلى للرب سائلا أيــاه أن يعينه على الاستمرار فى هذا العمل الكريم الذى لا يرجو به سوى وجهه ، والذى أخذ نفسه به وشرع فيه ، ثم نادى ربه أن يعينه بفضل منه حتى يمد الناس بالمـــاء فلما كان صـــباح اليوم التالى استيقظ وانطلق الى الكنيســة وراح يسأل الرب أن يعينه ، ثم مضى الى الموضع المشار اليه مستصحبا بعض العمال وسار بهم الى البقعة التى كان الشيوخ يقولون فى خبرها انها كانت موضع جب يعقوب ، وطلب من الفعلة أن يحفروا فحفروا حتى كشفوا عن البئر ، فلما رأى الجب أمر بتنظيفه على نفقته الخاصة ، ووضع فوق هذا القليب ساقية علقت بها أقداح ، فاذا دارت الساقيــة نزلت بأوعية فارغة ثم صعدت بها ملأى بالماء ، ثم تعود بها فارغة مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

وأقام هذا الرجل بضعة أحواض حجرية يصب فيهـــا المـــاء الذى يحمل اليها من البئر فيأخذ منها الجميع ما يحتاجونه ويحملونه الى المدينة .

كان هذا الرجل الثرى يأخذ خيله ليلا ونهارا الى موضع الماء الذى تملؤ منه الأحواض فيغترف منها كل شخص ما يريد وظل الحال على هذا المنوال حتى اذن السيد الرب أن تفتح السماء ميازيبهـــا وتمطر واذ ذاك يملؤ الناس صهاريجهم من ماء المطر .

★★★

لم يكف هذا الرجل عما هو فيه رغم توفر الماء بل زاد فجلب ثلاثة جياد من جياد النقل وجاء بخدم ثلاثة لا عمل لهم سوى حمل الماء الى الأحواض التى أقامها بالمدينة عساها بذلك تسد حاجة الفقراء الطماء .

كان هذا الجب الذى ينزح منه الماء يمتد الى عمق مائة متر ، الا أن المسيحيين عمدوا فيما بعد الى طمه وملئه بالحجارة حين سمعوا أن المسلمين قادمون لحصار المدينة .

(٨)

أما نبع سلوام الموجود الى جوار هذا الجب فلم تكن مياهه صالحة للشرب لعدم عذوبتها وملوحتها ، وكان الناس لا يستعملونها الا لغمر الجلود التى يأتون بها من المدينة ، وكذلك لغسيل الملابس ولرى الحدائق الموجودة أسفل الوادى .

ولقد حدث فى مرة من المرات حين كان المسيح عيسى يجوس أرجاء الناحية - وهو بالقدس مع تلاميذه وقد ساروا فى الطريق ان شاهدوا رجلا كفيفا ، فجاء الرسل الى عيسى وسألوه « أترى ان ما به من عمى راجع الى خطيئة ارتكبها ؟ أو اثم اقترفته أمه أو غيرها من ذوى قرباه ؟ فأجابهم عيسى أن لا شىء من ذلك فليس ما يرون خطيئة أو اثما ارتكبه أحد من دوى قرباه وانما كان الذى به « لتظهر أعمال الرب فيه » ، وتفل على التراب وصنع من التفل طينا وطلا بالطين عينى الرجل الكفيف ثم طلب اليه أن يذهب الى بركة سلوان ويغتسل فى مائها فذهب واغتسل فارتد بصيرا ، ثم رجع الى القدس وانطلق الى عشيرته وأهله الذين تملكتهم

الدهشة اذ راوه قد استرد بصره وراحوا يتساءلون « كيف جرى الذى جرى (١٥) ! » .

ولما سمع احبار اليهود بالخبر وانه شفى من عماه تماما ارادوا أن يعرفوا كيف تم ذلك الأمر ، وكبر عليهم أن يقال انهم آمنوا بما قيل لهم ، فأرسلوا الى أبويه يسألونهما عما اذا كان هذا الأمر حقاً ، فأجاباهم بأن ما سمعوه انما هو حق صريح لا ريبة فيه (١٦) .

(٩)

والآن فانى محدثك عن « ريموند » كونت طرابلس الوصى على مملكة بيت المقدس فأقول انه لما رأى انعدام المطر فى البلاد ، وان القمح الذى بذره الناس لم يفلح تسرب الى نفسه الخوف من أن ينتهى الأمر الى حدوث مجاعة ، فاستدعى بارونات المملكة وكبيرى الداوية والاسبتارية وقال لهم :

« ايها السادة : ترى بماذا تشيرون على ، وها أنتم ذا ترون السماء قد أمسكت فلم تمطر ، والزرع لم ينبت ، وانعدمت الحنطة، وانى لأخشى أن يعرف المسلمون بالصعوبات التى نعانيها فيغيرون علينا ، فما ذا تراكم فاعلون وما الذى تشيرون به على ؟ وما نصيحتكم الى ؟ هل تزكون أن أعقد هدنة مع المسلمين خوفاً من المجاعة ؟ » .

فزكوا عقد هدنة مع المسلمين لاسيما مع صلاح الدين الذى تلقى عرضهم مسرورا ، وعقد معهم هدنة مدتها أربع سنوات .

فلما عقدت الهدنة بين الطرفين أخذ المسلمون يجهزون النصارى بالامدادات الكثيرة التى جرت عادتهم على ارسالها اليهم أيام السلام .

ولولا هذه الهدنة لمات المسيحيون عن بكرة أبيهم جوعاً .

من أجل هذا أحب أهل البلاد المسيحيون كونت طرابلس حباً شديداً ، كما أن المسلمين راحوا بسبب هذه الهدنة يعظمون الكونت غاية التعظيم ، وأمدوه بكل ما فيه الرحمة والغوث .

☆☆☆

ولقد فاتنى أن أذكر — حين كنت أصف بركة سلوام — عملا من أعمال الخير فعله رجل ثرى ، واذا كانت الاشارة اليها فاتتنى هناك فانى موردها الآن هنا .

(١٠)

على انى فى هذه اللحظة مخبرك بأمر رجـــل عظيم قدم من « لمبارديا » اسمه « وليم(١٧) » ويعرف بمركيز دى مونتفرات ، وهو جد الملك الطفل « بلدوين » ، كما أنه كان فى الوقت ذاته والد « وليم لونجسورد » والد الطفل .

حين علم الماركيز ان حفيده صار ملكا على بيت المقدس اغتبط أشد الاغتباط فانطلق من لحظته يحمـل الصليب وغادر بلاده تاركا اياها فى رعاية أكبر أبنائه ، وركب البحر فلما وصل الى هنا وجد فى استقباله الملك وكونت طرابلس وجميع البارونات وقد خفوا الى لقائه فرحا بمقدمه واستقبلوه استقبالا حافلا ، وأكرموا وفادته بما يليق به من الاجلال والتقدير العظيمين ، ولم يستطيعوا ان يكتموا

فرحتهم بقدومه ، وحينذاك أقطعه الملك حصنا يطل على النهر من الناحية التى شهدت صيام عيسى المسيح أربعين يوما · ويقع هذا الحصن على جبل شاهق الارتفاع يبعد عن القدس مسافة سبعة أميال، وعن النهر ثلاثة ، ويعرف بجبل القديس الياس ، نسبة الى القديس « أيليا » ، ويقال انه هو الجبل الذى ظل به « ايليا » صائما أربعين يوما ، وكان ينام ثم يصحو فيجد عند رأسه كعكة ورغيف خبز ، والى جواره وعاء به ماء ، فيأكل ويشرب ثم يرجع فيضطجع ، وكان يوقظه ملاك يرسله اليه الرب ويناوله الماء فيشرب ، والخبز فيأكل (١٨) ·

فلما كان هذا الخبر قد وقع على ذلك الجبل حيث يوجد هذا الحصن فقد نعته أهل الناحية بجبل القديس أيليا ، « وكان فى العصور القديمة يعرف بجبل « فرائيم » ، وكان موضعه حيث أرسل الرب ملاكه الى « جدعون » Gideon الذى كان ينشر الحنطة ليخبره انه مهلك أهل مدين Medianites الذين كانوا قادمين لتخريب أرض القدس ، وقال جدعون للملاك انه ينبغى عليه ان يريه علامة « تجعله يؤمن بما يقول » ·

لقد قال هذا الذى قاله ورد عليه بهذا التساؤل لأنه كان من قوم أذلة فأظهر الله له آيته « وصنع له علامته » التى تمثلت فى ان قطعة أرض من أرضه امتلأت بالطمى ثم ابتلت وجفت « الجزة » وحدها (١٩) ·

(١١)

كان للماركيز وليم ابن اسمه « كونراد » حمل الصليب ليتبع أباه فى ذهابه الى الأرض التى وراء البحر ولكن الرب لم يشأ أن يتم هذه الرحلة اذ ذهب بعض الوقت الى القسطنطينية ، ذلك لأن الرب كان عالما بما سوف سيصيب هذه الأرض من خسارة لغضبه عليها

بسبب ما ارتكبه شعب القدس من الخطايا والآثام ، ولأنه كان يعرف ان بعض نواحى القدس سوف تبقى فى أمان محفوظة بواسطة « كونراد » ، ولأن ربنا لم يشأ أن يدمر كل شيء على الرغم من خطيئة القوم الفاحشة ، كما ستعلم حالا .

★★★

لقد حدث نفس الذى حدث لابن (النبى) سليمان حين صب الرب غضبه على سليمان من أجل الخطية التى ارتكبها بسبب امرأة وثنية زلت به القدم من أجلها وكأن قد هام بها هياما بلغ حد الوله حتى لقد استجاب لها فشيد من أجلها ثلاثة أضرحة (٢٠) وثنية على ثلاثة جبال يبعد كل واحد منها عن القدس ثلاثة أميال ، وكان آخرها فوق جبل الزيتون .

كان أشد ما أغضب الرب المزار الذى بناه سليمان على هذا الجبل ، أعنى جبل الزيتون ، واعتبر الرب هذا العمل من سليمان خطيئة جاوزت فى اثمها كل خطيئة سبق أن ارتكبها ، وان الرب صعد من هذا الجبل الى السماء على مرآى من تلاميذه بعد قيامه من بين الموتى وبعد ان عاد الى الحياة .

وأعلم الرب سليمان بمدى غضبه عليه ، ولكن نظرا للحب الكبير الذى يكنه لأبيه داود فانه لن يهلكه بل سيتحمله طيلة حياته ، أما بعد موته فلن يعود ابنه مالكا للمملكة الا لفترة وجيزة ، يتركه خلالها هو وشأنه بسبب محبته لأبيه داود .

لقد فعل الرب هذا العمل من أجل خاطر الرجل الصالح الوحيد الذى كان موجودا بالأرض المقدسة فلم يشأ ان يحرم المسيحية من كل الأرض التى فى حوزتها ، كما ترك بعضها لسليمان

من أجل خاطر داود الذى كان موجودا آنئذ فى القسطنطينية . وسوف يتعلم بعد حين كيف يحفظها (٢١) .

★★★

كان اسحاق – وقت وصول كونراد الى بيزنطة – يجلس على العرش الامبراطورى فى القسطنطينية ولم تسمل عيناه بعد ، وكان هناك رجل خطير اسمه ليفيرناس (٢٢) Lyvernas هو أحد أبناء عمومة الامبراطور مانويل ، وكان قد ظل مختفيا عن الأعين طوال الفترة التى ظلها « أندرونيكوس » Andronixos امبراطورا ، واذ بقى مجهول المكان لايعرف أحد من أمره شيئا فان «أندرونيكوس» لم يصبه بما أصاب به معارفه وأقاربه الآخرين من المضرة ، فلما ترامى الى سمع « براناس » خبر موت « أندرونيكوس » وان اسحق قد أصبح امبراطورا ، وان الدنيا تحررت من « اندرونيكوس » كما تناقص خبر ذلك بعد حين استبدت به الفرحة وسارع منذ تلك اللحظة يدبر كيف يستطيع اغتصاب امبراطورية القسطنطينية لنفسه ، لكنه ظل ساكنا لم يتحرك طوال عهد اسحق (٢٣) .

(١٢)

وقد قام أندرونيكوس باعدام الكسيوس الذى كان اليه أمر الحفاظ على امبراطورية القسطنطينية ، كما كان هو المسئول عن مانويل الطفل (٢٤) . وقد دبر فى نفس هذه الليلة خطة تنطوى على الخيانة والغدر نزولا على نصيحة ومشورة كاتبه المدعو لانجوس Langos (٢٥) .

وحدث فى احدى الليالى ان كان الطفل الصغير الذى كان زوج ابنة لويس ملك فرنسا موجودا عند « أندرونيكوس »

الذى كان مفروضا أنه فى رعايته ... أقول حدث فى هذه الليلة ان قبض « اندرونيكوس » على الطفل الملك ووضعه فى غرارة ، وضع الغرارة فى قارب وقذف به فى اليم فمات غرقاً ،وشرع — قبل أن يشاع خبر مصرع الطفل وقبل أن يعرف الناس النبأ — يسعى فى طلب أقارب الامبراطور وبعث فى طلبهم ، فما كادوا يصبحون بين يديه حتى زج بهم فى الحبس ثم سمل أعين البعض وجدع أنوف آخرين ، وقطع شفاه غير هؤلاء وهؤلاء .

على هذه الصورة كانت معاملته لمعظم أقارب الامبراطور ممن تسنى له العثور عليهم .

حينذاك خلا له الجو وأصبح متفردا بالتاج الامبراطورى ، وفعل من الأفعال الشريرة ما سوف نقص خبره عليك .

(١٣)

فى الوقت الذى كان فيه اندرونيكوس امبرطورا للقسطنطينية (١١٨٣ — ١١٨٥ م) لم تكن هناك راهبة جميلة فى دير من الأديرة ، ولا ابنة فارس عظيم أو وجيه من الوجهاء الا ضاجعها هذا الامبراطور رغم أنفها مما جعله مكروها أشد الكراهية من الناس أجمعين ، ولم يكن من أحد الا ويتمنى هلاكه وموته ، وحدث فى أحد الأيام أن كان أندرونيكوس خارج القسطنطينية فى احدى حملاته وبرفقته شاب من أقارب الامبراطور مانويل واسمه أسحق (٢٦) وهو ابن لأرملة مسكينة شديدة الفقر والاملاق ، وكان هذا الفتى أسحق يعمل فى بلاط أندرونيكوس الذى كان الناس ينظرون اليه نظرة ازدراء واحتقار . وحدث ان أذن له أندرونيكوس فى ذلك اليوم بالذهاب الى القسطنطينية لتبديل ثيابه وللاغتسال .

بعد ان غاب أسحق هذا (ابن الأرملة) خطر ببال أندرونيكوس ان يسال العرافين متى يحين حينه ويودع هذه الدنيا ، فارسل فى

طلبهم يسألهم كم تبقى له من العمر فى هذه الدنيا ، فانتحى العرافون جانبا وراحوا يتباحثون هذا الموضوع فيما بينهم ، فدلهم طالعه على أنه لم يبق له فى الدنيا غير ثلاثة أيام ثم يموت .

حينذاك قال أحد العرافين لرفاقه انه يخشى ان هو صارح الامبراطور بأنه لم يبق له غير ايام ثلاثة ان يغضب وينزل بهم شرا كبيرا ، فاتفقوا على ان يقولوا له « لقد بقى لك فى هذه الدنيا خمسة أيام » ، فلما مثلوا أمامه وأخبروه بما قر قرارهم عليه انزعج أشد الانزعاج ، ثم بدا له يسألهم عمن سيخلفه ويحل محله ويكون امبراطورا ، وحينذاك التمسوا منه أن يؤجلهم الى الغد فيأتيه ردهم ، فأذن لهم فلما عادوا اليه فى غدهم أنبؤوه بأن سيخلفه رجل اسمه « اسحق » ، فلما طرق سمعه هذا الكلام اعتقد أنهم يعنون به دوق قبرص (٢٧) ، ومن ثم استنفر جيشه وامر عسكره أن يأخذوا اهبتهم ويستعدوا برا وبحرا ، وأعلن بين الناس قاطبة ان أسحق (الثانى انجيلوس) الخائن قد عاد الى التمرد على مولاه الامبراطور وفى نيته الاستيلاء على الامبراطورية .

★★★

بعد ان أصدر أندرونيكوس هذه التعليمات والأوامر مضى اليه « لانجوس » وأخبره ان هناك بالقسطنطينية رجلا اسمه أسحق ليس بذى قدر ولا مكانة بل هو وضيع المنبت ، ثم نصحه أن يقتله . فان هو قتله تخلص من كل ما يساوره من الخوف واطمأنت نفسه ، فأذن أندرونيكوس للانجوس أن يفعل باسحق كل ما يرى فعله وينزل به ما يرى انزاله به من الشر ، فذهب لانجوس الى مسكن الشاب أسحق فى القسطنطينية وانطلق يبحث عنه ، ثم نادى عليه

فلما سمعه أسحق قال لأمه : « ما أرى هذا الرجل يدعونى الا لما فيه هلاكى ، فهلا أخبرته أنى نائم ؟ » ٠

كان أهل القسطنطينية يعرفون انه ما ذهب لانجوس الى أحد وطلبه الا كان فى ذلك نهايته ٠

وألح «لانجوس» على أسحق ان يبادر بالذهاب الى الامبراطور فاستأذن اسحق أمه وأهل بيته وخرج وقد أخفى تحت معطفه سيفاً قصير . وما كاد يقف أمام لانجوس حتى قال له ساخراً « ما سبب كراهيتك لى يا لانجوس ؟ .. اننى ما كنت أبداً الا طائعا للامبراطور ، مستجيباً لأمره » . فرد عليه لانجوس قائلا « هل تراك متأذياً مما قلته لك ؟ . انى مصيبك بأسوأ مما سبق أن لاقيت » ، ثم رفع يده وأهوى عليه بسيفه فأحس اسحق أنه أهين أشد الاهانة فاستل سيفه وضرب به « لانجوس » ضربة أطاحت فى الحال عنقه ٠

(١٤)

ما كاد أسحق يقطع راس لانجوس حتى تجمع أهل القسطنطينية حول أسحق وحملوه الى « بكليون » وفى يده سيفه لايزال يقطر دما ، وأخذوا التاج وذهبوا الى كنيسة القديسة صوفيا ووضعوا التاج على مفرقه ، فدب الذعر فى شتى نواحي القصر الذى استعد كل من به للقتال وتجاوبت أرجاء المدينة بالهتاف علت به حناجر أهلها قائلين « لقد هلك الشيطان ٠٠ لقد هلك الشيطان » ٠

كان أندرونيكوس فى تلك اللحظة فى معسكره ، فلما علم بما دار وبتتويج اسحق ، اعتلى سطح احدى المراكب عابراً البسفور الى « طرابيزون » وأمضى هو ومن معه ليلتهم هذه بطولها ذى

عرض البحر يبذلون كل ما فى وسعهم عساهم يجتازون المضيق فلم يفلحوا فيما حاولوه ، واذ رأى أندرونيكوس فشله فيما يرجوه لم يجد بدا من العـــودة (٢٨) الى القسطنطينية ويمم وجهـــه الى قصر « بلا شيرناى » (٢٩) .

واذ كان أندرونيكوس رجلا يجيد الرمى بالنبل والسهام فقد رأى ان يتربص لاسحق بعد تتويجه جامعا العزم على أن يرميـــه وهو مار أمام قصر بلاشيرناى بسهم يصيبه فيرديه قتيلا ، فلا يعـود يحس من ناحيته بخوف ، ولما مر اسحق والتاج على رأســـه أمـــام أندرونيكوس أخذ الأخير قوســـه فى يده وثبت فيه ســهما ووتره فانكسر الســهم وهو يتنــاوله ، فأعد غيره وحينذاك كان أهل القسطنطينية قد حاصروه وأحدقوا به وأسروه .

★★★

ومضى أسحق قدما ودخل « بوكليون » وآلى على نفسه الا ان يذيق أندرونيكوس الموت الزعاف جزاء ما ارتكبه من قتل صاحب القـــصر واغـــراقه ، وهـــو الحـــاكم الشرعى ابن الامبراطـــور مانـــويل .

رأى اسحق أنه اذا قتل أندرونيكوس فانما يكون قتله اياه بسبب الشرور والموبقات الجمة التى اقترفها ، ثم أمر أسحق من حملوه أن يجردوه من ثيابه وأصبح عريانا ووضعوا على رأسه قبعة من أعواد الشـوم .

هكذا كانت هيئة تتويجه التى أعدها له القوم .

ثم أمر بحلق شعره ولحيته فحلقوهما وأمر بفقأ احدى عينيه وترك الأخرى سليمة ليرى العار الذى ألم به والعقاب الذى أنزل به .

ثم جاؤوه بحمار فأركبوه اياه وجهـا لقفـا وأمسكوه ذيله كما لو كان ممسـكا بعنان جواده ، ثم طيف به جميع شـوارع القسطنطينية وعلى رأسه ذلك التاج .

★★★

والآن فانى قاص عليك ما فعلته النسوة به .

لقد رحن يقذفن فى وجهـه بالبول والغائط مما أحضرنه معهن .

أما النسوة اللائى لم يستطعن الوصـــول اليه فقد تسلقن الأسطح وحملن ما حملته رفقتهن ورحن يقذفنه به .

هذا ما حدث منهن بكل شارع من شوارع البلد .

وعلى هذه الصورة كان التاج الذى على رأسه فى القسطنطينية يومذاك .

ولما خرجوا به من المدينة تركوه الى النساء يفعلن به ما شئن ، فانقضضن عليه انقضاض الكلاب المسعـورة تنهش جثته فمزقنه شر ممزق .

وكانت النساء اذا أخذت الواحدة منهن قطعة ولو صغيرة من لحمه لاكتها ثم لفظتها .

ثم أخذن سكينا ورحن يجردن عظمه من اللحم ويقول بعضهن لبعض انهن سوف تكتب لهن النجاة لانهـن عـاون فى الانتقـام وفى الثأر منه لما ارتكبه من الشرور .

كان الموضع الذى سحبنه اليه مجاورا للعمود الذى ألقى من فوقه بمورزوفلس ليلقى نهايته (٣٠) .

ثم حفروا له حفرة فى روث البهائم والدواب ودفنوه فى هذا المكان الزرى .

ووجد الناس فى هذا الموضع زهرية من حجر السماق الأخضر منقوشا عليها العبارة التالية « اذا مات الامبراطور الشرير ميتته الشنعاء فلسوف يدفن هنا » .

(١٥)

ترتب على شرور أندرونيكوس و « لاجوس ان اشتد حب الأهالى للامبراطور الجديد « اسحق » وكان أشد القوم حبا له الديريون فلم يتركوا واحداً من أديرة القسطنطينية الا ورفعوا صورته فوق بابه .

★★★

لم يكن أسحق متزوجاً وقت اعتلائه العرش ومن ثم نزل على نصيحة رجاله فارسل سفراء من ناحيته الى ملك المجر تحمل رجاءه ان يزوجه « مرجريت » اخته ، فسر ملك المجر لهذا الرجاء واستجاب إستجابة تمثلت فى ارساله الى القسطنطينية اخته فتزوجها أسحق وتوجها امبراطورة ، وقد أنجبت له غلاما عرف فيما بعد بالكسيوس (٣١) .

وحدث ان كان أسحق يتجول عبر امبراطوريته وأقام فى مدينة « فيليبى » التى يقال انها مسقط رأس الملك الاسكندر الأكبر .

وتقع فيليبى هذه على مسيرة خمسة أيام من القسطنطينية ، كما يقال ان القديس بولس وجه منها احدى رسائله الى الفيليبيين

الذين برعوا فى نسج الحرير الغالى ، وتعرف هذه المدينة اليوم باسم « طيبــــة » (٣٢) .

★★★

حين علم الكسيوس ان شقيقه أسحق مقيم فى دير من الأديرة عينوه له بادر بالذهاب اليه بعد ان أعلمته زوجته انها لن تقاسمه الفراش ان لم تتوج امبراطورة . ولما كان أسحق مطيعاً وعظيم الاجلال له ولم يكن يخطر قط بباله انه يدبر له ما فيه خيانته ، أو الغدر به فانه ذهب اليه غير مستصحب حرسا يحرسه ، ولما دخل الكسيوس على أخيه حجرته هجم عليه وجذبه من ناصيته واستل خنجرا فقأ به عينيه ثم انطلق بعدئذ الى القسطنطينية وتوج نفسه بها امبراطورا ، كما توج زوجته هى الأخرى امبراطورة (٣٣) .

(١٦)

بعــد ان تم تتويج الكسيوس عقدت الامبراطورة التى كانت زوجة اسحق قران ابنتها على فيليب دوق سوابيا ابن الامبراطور فردريك ، كما أخذت ابنها الذى كانت قد رزقته من أسحق فارسلته الى أخيها ملك المجر فتولى تربيته وظل يرعاه حتى قدم رجال من فرنسا [يقصد بهم الصليبيين الفرنجة] كما ستطالع هذا الموضوع فيما بعد فى هذا الكتاب (٣٤) .

أما ليفرناس الذى تكلمت عنــــه حــــالا والذى كان الصق بالامبراطور مانويل منه بالكسيوس فقد جمع حشداً كثيفاً من الناس وزحف بهم نحو القسطنطينية حتى صار أمامها ، فلما علم الكسيوس ان ليفرناس قادم لقتاله على رأس جيشــــه توســــل الى الماركيز «كونراد» ــ الذى كان موجوداً ذاك بالقسطنطينية ــ ان يظل معه الى

جانبه لايغادره حتى يفرغ من هذه الحرب ، فوافقـــه المارکيز على التماسه وسره ان يظل معه حتى تضع الحرب اوزارها .

★★★

زحف ليفرناس » بقواته على القسطنطينية استعدادا ليـــوم فاصل تكون فيه المعركة،لكن الامبراطور الكسيوس لم يشأ الاصطدام به بسبب ما كان لعائلة ليفيرناس من علاقات كبيرة ووثيقة بالأسر الكبيرة فى المدينة ، ومن ثم فان الذى تحرك هو المركيز وحـــده متحملا مواجهة فيرناس ، فلما دلوه عليه انطلق نحوه مهاجما اياه ، وكان ليفرناس وزمرته يظنون أنه قد غادر المدينة،وانه ماض للاضمام الى جانبهم لكنه حين أصبح قريبا من « ليفرناس » لكز جواده لكزة عنيفة فاندفع به اندفاعا شـــديدا ساعده على ان يطعنه فى بطنه طعنة كانت فيها نهايته وأسلم الروح ، ولما فرغ من ذلك عاد الى القسطنطينية .

حين رآى ــ الذين أرادوا محاصرة القسطنطينية هلاك مولاهم ــ نكصوا على أعقابهم ولاذوا باذيال الفرار ، واســـتدعى الامبراطور (البيزنطى) الى قصره المارکيز كونراد واســـتبقاه معه لأنه أراد الا يلحق أولاد ليفرناس الموجودين بالمدينـة أى ضرر أو ازعاج ، فاستجاب كونرا وظل مقيما مع الامبراطور حتى حانت اللحظة التى شاء أن يعود فيها الى بلاد ما وراء البحار ، ليعمل على خلاص البلد الذى شاء الرب ان يظل فى أيد مسيحية .

(١٧)

والآن هيا بنا نعود الى الملك بلدوين الطفل الذى كان مقيما بعكا ثم انتقل به خاله الكونت « جوسلين » فنقول انه مرض مرضا

أسلمه الى الموت ، وحينذاك دبر الكونت جوسلين خطة تنطوى على الخيانة فقد جاء ذات ليلة الى كونت طرابلس وطلب اليه ان يذهب الى طبرية بدلا من أن يرافق جثمان الملك ، والا يسمح لأحد من بارونات المدينة بمرافقته بل يعهد بجثمان الملك الى الداوية الذين سوف يحملونه الى القدس ليدفن فيها ·

أطاع كونت طرابلس كونت جوسلين ونزل على مشورته فى غباء ظاهر وسذاجة فاضحة ، فحمل الداوية جثمان الملك الى القدس، واما الكونت فقد ذهب الى طبريه .

حينذاك جاء الى مدينة عكا كونت جوسلين واستولى عليها ، ثم مضى الى بيروت التى كان معهوداً بحراستها الى كونت طرابلس فدخلها عن طريق الغدر ،وزودها بالفرسان والسرجندية لحراستها، فلما فرغ من ذلك بعث بكلمة الى قريبته كونتيسة يافا يطلب منها ان تصاحب جميع فرسانها وتمضى بهم الى القدس للاستيلاء عليها وحراستها ، وان يتم تتويجها وينادى بها ملكة على رؤوس الأشهاد.

★★★

حين تبين لكونت طرابلس ان كونت جوسلين غرر به وخدعه استدعى اليه جميع بارونات البلد وطلب اليهم ان يلحقوا به فى نابلس ، فجاءوا كلهم سوى كونت جوسلين والأمير رينالد (٣٤)·

لقد رفض جوسلين ان يبرح عكا ، كما ان كونتسة يافا كانت موجودة فى القدس مع زوجها وفرسانها حيث دفن الملك ابنها · وكان من حضور هذا الدفن جده الماركيز وليم والبطرك ورئيس الداوية ومقدم الاسبتارية ، فلما فرغوا من دفن الملك الطفل مضت كونتسة يافا الى رئيسى الداوية والاسبتارية وسألتهما ان يمحضوها النصيحة ماذا يكون من شأنها فى هذا الموقف فتقدم (٣٦)

جيرار دى ريد فورت Gerard de Redefort [١١٨٥ — ١١٨٩]رئيس فرسان الهيكل وأخبرها ألا تنزعج لأن القوم عازمون على تتويجها رغم أنف جميع رجال البلد ، وسيقوم البطرك بذلك نظرا لما يكنه من الحب لأمها ٠

وكان الذى يحمل مقدم الداوية على الوقوف هذا الموقف هو كراهيته لكونت طرابلس ، وحينذاك استدعوا الى القــدس الأمير رينالد الذى كان موجودا فى عكا (٣٧) فاستجاب لهم ولبى دعوتهم ٠



ثم أخذوا يتسألون فيما بينهم عما ينبغى ان يعملوه ، فأشاروا على الكونتســة ان تبعث فى اســتدعاء كل من كونت طرابلس والبارونات الموجودين فى نابلس ليحضروا حفل تتويجهــا وليعلموا أن المملكة آلت اليها عن طريق الوراثة ، فبادرت فى الحال الى ارسال الرسل اليهم طالبة منهم الحضور ، فرفض بارونات طرابلس طلبها هذا ولكنهم أرسلوا اثنين من الرهبان الديريين المعروفين بالستريين الى القدس والى البطرك والى رئيس الداوية والاسبتارية ينهونهم باسم الرب والشعب عن تتويج كونتسة يافا قبل التشاور فى الأمر وقبل الوصول الى اتفاق بشأن تلك المسائل التى أقسموا على الوفاء بها أيام الملك الأبرص . وذهب الديريان الى القدس مع فارسين هما جون الابلينى ووليم « لى كييف »والد توماس صاحب سنت برتان S. Bertin



أما البطرك وكبير فرسان الداوية والأمير رينو فقد قالوا انهم لم يعودوا ملتزمين باليمين التى سبق لهم أن أقسموها ، ولا أن يعملوا بما تفرضه عليهم هذه اليمين ولكنهم سوف يتوجون السيدة

وأما كبير فرسان الاسبتارية فقد نزع نفسه من الأمر تماما وقال انه لم يعد له دور لأنهم يسلكون سلوكاً لا يرضى الرب ، ويعملون ضد الايمان التى أخذوها على أنفسهم • ولما انتهوا الى هذه النهاية أغلقوا أبواب المدينة حتى لا يدخلها أو يغادرهـا أحـد ، وكان الدافع لهم الى هذا العمل هو خوفهم من ان البارونات الذين كانوا بنابلس والذين يبعدون عنهم اثنى عشر ميلا قد يدخلـون المدينة قبل ان يتم تتويج السيدة فيحدث الشغب والاضطراب •

(١٨)

حين علم البارونات ان المدينة أصبحت مغلقة تماما فلا يستطيع دخولها أحد ولا يتسنى لكائن من كان مبارحتها ألبسوا ضابطا من أهل البلد مسوح الرهبان وأرسلوه الى القدس ليقف على ما يرى من الأحداث ويأتيهم سراً بأخبار تتويج السيدة،فمضى ليقف على ما بعثوه من أجله ولكنه لم يستطع دخول البلد فقد وجد جميع أبواب البلد مغلقة فى وجهه ، فلم يكن منـه الا ان ذهب الى كنيسـة مادلين اليعقوبية (٣٨) الموجودة بالقدس والمجاورة لأسوار البلد ، وكان بها باب خلفى ينتهى بعابره لأن يجد نفسه داخل البلد،وراح يتوسل الى راعيها ان يأذن له بدخولها ، فلما أذن له انطلق الى القبر المقدس وظل به حتى رآى ما بعثوه من أجله ووقف على كل شيء •

لقد رآى بعينى رأسه كبير الداوية والأمير رينالد يخرجان صحبة السيدة الى القبر المقدس والبطرك ليتوجاها بحضور البطرك، وشاهد الأمير رينالد يقف ويقول للجموع « أيها السادة ، لقد علمتم بوفاة خبر الملك بلدوين وابن أخته الذى كان قد تـوّجه قبل موته ،

وانكم لتعلمون أيضا ان المملكة صارت بلا وريث ولا حاكم يصرف أمورها ، وأنا لنريد منكم الموافقة على تتويج « سيبيلا » التى هى ابنة الملك عمورى وأخت الملك بلدوين الراحل لأنها أحق الناس جميعا بالمملكة » .

فهتف المجتمعون فى صوت واحد انهم أحبوا الملك أمورى أكثر من أى أحد سواه (٣٩) .

لقد نسوا جميعاً اليمين التى أقسموها لكونت طرابلس ، وكان هذا سبب ما نالهم من ضرر بعد حين .

★★★

حين جاءت السيدة الى القبر المقدس مضى البطـــرك الى كبير فرسان الداوية واستاذنه فى أخذ مفاتيح الخزانة الموجـود بهــا التيجان فناوله اياها عن طيب خاطر ، وحينذاك أمر كبير فرسان الاسبتارية ان يسلمهما المفتاح الذى يخصه والذى هو معه ، فرد عليهما انه لن يرسله لها ولن يجيبهما الى ما طلباه الا بعد التشاور مع رجال المملكة ، فلم يجد البطرك وكبير فرسان الدواية والأمير رينالد بدا من الذهاب الى مقدم الاسبتارية لأخذ المفتاح ، فلما سمع انهما فى الطريق اليه اختفى فى بيته حتى حان وقت الظهيرة وحينذاك عثروا عليه والتمسوا منه أن يعطيهم المفتاح فأبى أشد الاباء وأنكر غاية الانكار ما يطلبانه . كل هذا وهو ممسك بالمفتــاح بيــده خوفا من ان يغتصبه منه أحد رهبـــان جماعته ويناوله للبطرك ، ولكنهم ظلوا يسألونه باللين تارة ويهددونه تارة أخرى ، ولكن من غير جدوى ، فلما بلغ الضجر به غايته طوح بالمفتاح الى ســاحة البيت ، وحينذاك أخذه كبير الفرسان الداوية والأمير رينالد وانطلقا به الى حيث يحتفظون بالأشياء الثمينة ، ثم جاء بتاجين الى البطرك فوضع أحد التاجين على المذبح ووضـــع الآخر على رأس كونتيسة

يافا ، فصارت بذلك هى الملكة ، وإذ ذاك خاطبها البطـــرك بهذه الكلمـــات :

« أيتها السيدة الجليلة : انك امرأة ومن الأنسب ان يكون ثم رجل الى جوارك يعينك فى حكم مملكتك هذه • الا فانظرى الى هذا التاج الموضوع هنا وتقدمى فخذيه وأعطه للرجل الذى ترين انــه قادر على حكم مملكتك » •

★★★

فتقدمت الكونتسة وتناولـــت التـــاج ودعت زوجهـــا (جى دى لوزنيان) الذى كان واقفا الى جوارها وقالت له :

« تقدم سيدى وخذ هذا التاج لأنى لا أعرف أحداً أحق منك بأن يوضع على رأسه » فركع « جى » أمامها فوضعت التاج بيدها على رأسه وساعدها هو فى ذلك وقال : « ان هذا التاج يستحق زواج بوترون (٤٠) Botron » •

ثم قام البطرك بعد ذلك بمسحه بالزيت فصـــار بذلك ملكا وصارت هى الملكة .

ولقـــد تم ذلك يـــوم جمعـــة من عـــام ١١٨٦ من تجســـد عيسى المسيح • ولم يحدث قط من قبـــل ان توج ملك من ملوك بيت المقدس فى يوم جمعة أو توج والأبواب مغلقة •

★★★

حين عاد الجندى الذى كانوا قد أرسلوه فى زى راهب ليوافيهم بكل ما يحدث وقد شاهد التتويج خرج من الباب الخلفى الذى دخل عبره وكر راجعا الى طرابلس ليقص عليهم كل ما شاهده وليفضى

بالخبر كاملا بأجمعه الى كونت طرابلس وبقية البارونات الذين كانوا قد أوفدوه . وما كاد بلدوين صاحب الرملة يسمع ان « جى دى لوزنيان » أصبح ملكا على بيت المقدس (٤١) حتى قال انه من الثابت الأكيد ان جى لن يبقى ملكا عاما واحدا » .

وصدق بلدوين فيما قاله لأنه اذا كان جى دى لوزنيان قد توج فى منتصف سبتمبر الا انه فقد المملكة يوم عيد القديس مارتن كاليدس Martin Calidus الذى هو الفاتح من شهر يوليو (٤٢) .

ثم وجه بلدوين صاحب الرملة كلامه الى كونت طرابلس والى بارونات البلاد قائلا : « أيها السادة الأمجاد ، عليكم الآن ببذل غاية جهدكم ، أما أنا فانى ماض الى حيث اعتكف فلا القى أحدا ولا يلقانى أحد لأننى لم أعد أتحمل الملامة أو التأنيب فى انى كنت حاضرا وقت ضياع المملكة لما أعلمه علم اليقين وأدركه تمام الادراك من ان ذلك الرجل الذى صار اليوم ملكا ما هو الا سفيه غبى ، وانه لن يستجيب قط الى نصيحتى التى ازجيها اليه ولا الى ما تنصحونه به ، بل انه سوف يسلك سبيل الخطأ فيستمع الى مشورة الجهال ، ومن أجل هذا فانى تارك هذه الأرض ومغادرها » (٤٣) .

لم يكد يفرغ بلدوين صاحب الرملة من كلامه هذا حتى تلاه كونت طرابلس فقال : « سيدى بلدوين : ناشدتك الله ان تكون عطوفا على المسيحية فلا تغادرنا،ولكن هيا بنا نتدبر السبيل المؤدى الى حفظ المملكة .. ان معنا الآن « ايزابيلا »(٤٤) ابنة الملك أمورى وزوجها همفرى [الخامس صاحب تورون] وسوف نتوجها لتذهب الى القدس .. وان بينى وبين المسلمين هدنة وستظل هذه

الهدنة مادمت أنا راغبا فى استمرارها مما يترتب عليـــه أنهـــم لن يهاجمونا بل سوف يمدون لنا يد المعونة والمساعدة ان كنا فى حاجة الى ذلك » ٠

وأصغى الجميع الى ماقاله الكونت ووافقوا عليه وتعاهدوا ان يتوجوا همفرى غداة يومهم هذا ٠

(١٩)

حين أدرك همفرى عزمهم على تتويجه أعلن انه ليس بقادر على تحمل مثل هذه المسئولية الضخمة ، لذلك ما كاد الليل يرخى على الكون سدوله وتتسربل الدنيا بالظلام حتى امتطى جواده وانطلق بفرسانه فى غبش الظلام فارا بهم الى القدس ٠

فلما تبلج الصباح واستيقظ البارونات وتاهبـــوا لتتويجه علموا بفراره ٠

ولما صار همفرى أمام الملكة وهى أخت زوجته حياها فامسكت عن رد التحية لأنه كان من معارضيها حق انه لم يحضر حفل تتويجها ، فأخذ يحك شعر راسه كطفل غلب عليه الخجل وقال لها « مولاتى : ما كان لى ان أفعل غير ما فعلت ، فقد أرادوا ان يجعلونى ملكا رغم أنفى » ، فقالت له الملكة « حسنا فعلت ياســـير همفرى وما أراك سلكت الا سبيل الصواب ، واعلم انى غير غاضبة عليك بل صافحة عنك ، والآن هيا انهض وقدم ولاءك المملك » ٠

وشكر همفرى الملكة لأنها لم تعد غاضبة عليه ثم مضى هو ليقدم للملك فروض طاعتـــه ويعلن اليه ولاءه ، ثم ظل مقيما مع الملكة بالقدس ٠



حين علم كونت طرابلس والبارونات الموجودون فى طرابلس بفرار همفرى الى القدس ومبايعته نزل عليهم هذا القرار نـزول الصاعقة وتملكتهم الحيرة ماذا يفعلون .

ثم قال البارونات لكونت طرابلس : « ناشدناك الله يامولانا ان تنصحنا ماذا نفعل بشأن العهد الذى الزمنا الملك الأبرص بقطعه ، لأننا لانريد عمل شيء يجعلنا موضـع العار ويلحق بنا المذمة والشنار » . فأجابهم الكونت بأن عليهم الالتزام باليمين التى قطعوهـا .

لقد قال لهم ما قاله لأنه لا يستطيع ان يقول لهم شيئاً غير هذا، أو ينصحهم بغير هذه النصيحة .

(٢٠)

ثم انتحى البارونات جانبا وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، فلما فرغوا من مشاوراتهم جاؤوا الى الكونت وقالوا له :

« مولانا .. اما وقد تم الاتفاق على اقامة ملك فى بيت المقدس فأنا لانستطيع الوقوف منه موقف المعارض والا كنا موضع الاستهجان والمذمة ، لذلك نلتمس منك الا تظن بنا ظن السوء ان نحن قلنـا لك ان تذهب الى طبرية وتقيم بها ، أما نحن فسوف نيمم وجهنا شطر بيت القدس الى حيث يقيم الملك ونقطع له يمين الولاء ، وسوف نبذل لك العون ما وسعنا البذل ونصون شرفنا ، وسنتدبر ان نرد لك كل ما أنفقته من مال من أجـل بيروت التى منحك اياها الملك الأبرص » .

واجمع الكل على هذه النصيحة ولم يشذ عن اجماعهم سوى بلدوين صاحب الرملة .

★★★

حين شاهد كونت طرابلس ان جميع البارونات قد خـــذلوه انقلب عائدا الى طبرية ، كما ذهبوا كلهم ـ باستثناء بلدوين ـ الى القدس ليعلنوا ولاءهم للملك « جى » ولمبايعته .

غير أن بلدوين أوفد ولده الصغير الى البارونات يسألهم ان يلتمسوا من الملك ان يتعطف فيثبته فيما بيده من اقطاع ، وان يقبله فصلا . فلما فرغ البارونات من قطع يمين الولاء للملك ناشـــدوه أن يقر ابن بلدوين صاحب الرملـــة فى أرض أبيه ويقبـــل ولاءه له ، فرد عليهم الملك انه لن يقر الصغير فى ناحيته ولن يقبل منه يمين الولاء الا ان أعلن أبوه تبعيته له ،فان فعل الوالد ذلك فانه مثبت الابن فى اقطاعه . كما أكد لهم تأكيدا صريحا لاريبة فيه انه ان لم يأت بلدوين صاحب الرملة بذاته خاضعا ومعتبرا نفســـه فصلا بكل ما على الفصل من واجبات والتزامات فانه سوف يستولى على أرضــــه .

(٢١)

استدعى الملك بعد ذلك بلدوين الابليني وغيره من البارونات الى مجلس مشورة يعقد فى عكا ، فالتأم جمعهم فى كنيسة الصليب المقدس وهى الكاتدرائية ، ووقف الملك أمام المائدة المخصصة لتلاوة الكتاب المقدس وشرع يتحدث اليهم فأخبرهم كيف تم تتويجه ملكا على القدس ، وكيف ان الرب حبـاه بعطفه واصطفاه بنعمته وأسبغ عليه حنانه الذى لا حنـــان مثله اذ عده خليقـــا بالتاج رغم انه

لايستحقه . ثم سألهم ان يعلنوا له ولاءهم كما يفعل الأنصال مع ساداتهم .

بهذا الكلام ختم الملك حديثه الى البارونات .

★★★

واذ فرغ الملك مما يريد ان يقوله لهم اتجه الى الأمير « رينالد » الذى كان على مقربة منه وطلب اليه ان يستدعى بالدوين الابلينى ليقسم يمين الولاء بين يديه فاستدعاه وهو لا يجيب ، وبلغت مرات استدعائه اياه ثلاثا ، وذلك لما كان مطبوعا عليه من شدة المراس والحرونة ، واذ ادرك الملك ان بلدوين لن يستجيب لدعوات الأمير (رينالد) فقد توجه اليه هو ذاته قائلا له :

« تقدم أيها الصديق الغالى ان كنت تريد قطع يمين الولاء والتبعية لى ، وأعلن الى هؤلاء السادة الأمجاد ، ذوى الأصول الكريمة عن نيتك الطيبة » .

فأجابه : « انه لم يسبق قط لأبى ان أعلن تبعيته لمن سبقوك ، ومن ثم فلست أنا الآخر بمعلنها ، ولكنى عاهد اليك باقطاعيتى حتى يبلغ ولدى « توماسين » Thomassin الموجود الآن هنا سن الرشد ، وحينذاك يأتى اليك مبايعا ويؤدى لك ما ينبغى عليه أداؤه ، أما أنا فمغادر مملكتك فى مدى ثلاثة أيام » .

ثم استأذن أخاه « بليان » Balian وعهد اليه بولده تاركا اياه فى رعايته حتى يبلغ سن الرشد ، ثم خرج مع بقية الفرسان الذين سبق ان استودعوه اقطاعاتهم ، وذهبوا الى أمير انطاكية [بوهيموند الثالث] الذى ما ان سمع ان بلدوين لا تلين قناته وان الكثيرين غيره من الفرسان قادمون اليه حتى اشتدت

غبطته وعظم سروره وخف لاستقبالهم وتلقاهم فى فرحة عارمة ورحب بهم ترحيبا (٤٦) عظيما .

(٢٢)

بينما كانت كل هذه الأحداث تجــرى جاء جاسوس الى الأمير (رينالد دى شاتيون) وأخبره أن هناك قافلة كبيرة قادمة من القاهرة الى دمشق ، وانها سوف تمر بالكرك ، فامتطى الأمير رينو صهوة جواده حالما ســمع هذا النبأ وخب به سريعــا الى حيث أشار الجاسوس ، وجمع حشدا كثيفا من رجاله وخرج بهم معترضين القافلة واستولوا عليها وكان بهــا أخت السلطان صــلاح الدين الذى ما كاد يسمع خبر تعرض الأمير رينــو للقافلة وأخذه اياها وفيها أخته حتى بلغ الغضب منه غايته وأزعجه النبأ أشد الازعاج ، فبادر بارسال مبعوثين من قبله الى الملك الجديد (جى) يأمره باعادة القافلة واخته ويعلن اليه رغبته فى عدم شجب الهدنة التى كان عقدها أيام الملك الصغير ، فاصــدر الملك « جى » أمـره الى الأمير « رينــو دى شاتيون » باعادة القافلة وكذلك أخت السلطــان صلاح الدين ، فكان جواب ارناط عليه انه غير فاعل ذلك أبدا ، لأنه هو مولى هذه الناحية وصاحب الأمر والنهى فيها شأنه فى ذلك شــأن « جى » فى أرضــه . زد على ذلك انه ليس بين رينو وبين المسلمين هدنة ولا عهد .

لقد كان أخذ هذه القافلة التى ذكرناها هو السبب المؤدى الى ضياع مملكة بيت المقدس .

أما الملك « جى » الذى كان فى القدس فقد تشاور مع كبير فرسان الداوية فيما قد يستطيع عمله بشأن كونت طرابلس الذى لايريد القدوم اليه ليعلن ولاءه له ، فأشار عليه كبير فرسان الداوية أن يستنفر جيشه ويمضى لمحاصرة طبرية ، فلما سمع كونت طرابلس بأن الملك يجمع جيشه لمحاربته فرح فرحا طاغيا بما وصل الى سمعه وأرسل الى صلاح الدين سلطان دمشق يخبره ان الملك « جى » يجمع جنده لقتاله ، فرد عليه الصلاح انه ان كان فى حاجة الى مساندته فانه ناهض اليه وحاضر لنجدته ، وسوف يرسل اليه الفرسان والعسكر ورماة الأقواس والسهام ، وانه ممده بالسلاح الوفير ، كما أخبره انه ان هوجم وحوصر فى الصباح فلن يأتى المساء حتى يكون صلاح الدين عنده ٠

وأوفى صلاح الدين بكلمته واستدعى قواته التى تجمعت فى « بانياس » (٤٧) على بعد خمسة أميال من طبرية ٠

أما الملك جى فقد حشد رجاله فى الناصرة فذهب اليه « بليان » الا بلينى وقال له : « لماذا حشدت يا سيدى هذا الجيش ؟ . ترى ماذا أنت فاعل والشتاء على الأبواب وليس الوقت بالملائم لاستنفار العسكر » ؟ ٠

فأجابه الملك « جى » انه عازم على محاصرة طبرية ٠

فقال له باليان : « ومن ذا الذى أشار عليك بذلك يا مولاى ، ٠٠ ؟ هل انت صادر فى هذا القرار عن ذاتك ٠٠ ؟ انى ما آراه الا قراراً ضاراً ، فما من عاقل يشير عليك بهذا الرأى ، وانك لتعرف يامولاى حق المعرفة انك لن تجمع هؤلاء الرجال نزولا

على نصيحة مني ، ولا استجابة لاشارة من البارونات ، وان في داخل طبرية قوة كبيرة من الفرسان المسيحيين والمسلمين ، وليس تحت يدك سوى القليلين لمحاصرتهم وقتالهـــم • وعليك ان تعـلم انك لو مضيت الى هناك بمن جمعت فلن تكتب النجاة لأحد منهم ، ذلك لأنك لاتكاد تشرع في الحصار حتى يكون صـــلاح الدين قد هب لنجدتهم على رأس جيش ضخم ، والرأى عندى أن تسرح عسكرك وسأذهب أنا وبعض رجالنا من قادة قواتنا الى كونت طرابلس ونعقد الصلح بينك وبينه ان استطعنا الى هذا الصلح سبيلا ، ذلك لأن الكراهية لن تنفع أحداً » .

حين ســمع الملــك ما قــاله بليــان سرح جيشه وأرسل من لدنــه رســلا الى طبريـــة نــزولا عــلى النصيحــة التى سمعها من بليان. فلما دخل مبعوثوه على الكونت وتكلموا معه بصدد السلام رد عليهم أن لن يكون هناك سلم من جانبه حتى يردوا عليه حصن بيروت الذى سبق لهم أن أخذوه منه غصباً ، وقال انهم ان ردوا عليه هذا الحصن فسوف يسلك السبيل الذى يفصح عن حسن نيتـــه •

وعاد مبعوثو الملك اليه وقصوا عليه ما حدثهم به الكونت •

(٢٤)

ظلت الأمور باقيـة على ما هى عليه طـول هذا الشتاء ، فلما قرب عيد الفصح علم الملك « جى » ان صلاح الدين يستنفر رجاله وعسكره لاقتحام أرضه ، أصدر تعليماته الى جميع البارونات ورؤساء الأساقفة بالوفود عليه فى بيت المقدس ، فلما مثلوا أمامه سألهم الرأى وطلب منهم ان يصدقوه القول فيما ينبغى عليه اتخاذه من اجراءات ضد صلاح الدين وضد غزواته التى يهـدده بها ، فأشـــار عليه باروناته بما يرون فيه مصلحته وهو ان يبـــذل قصارى جهـده

للوصول الى اتفاق مع كونت طرابلس ، وبينوا له انه أن لم يفعل ذلك فلن يستطيع بمن تحت يده من العسكر ان يخوض غمار الحرب ولا ان يواجه المسلمين فى ساحة القتال • أضف الى ذلك ان مع كونت طرابلس عددا كبيرا من الفرسان ، هذا الى جانب ما عليه هذا الكونت من العقل وسداد الرأى ، فان كان « جى » على وفاق معه ويقبل ان ينزل على نصيحته لم يعد هناك ما يخافه من جانب المسلمين ، ثم قال له :

« مولاى الملك •• لقد فقدت بلدوين صاحب الرملة وهو أحسن الفرسان فى مملكتك وأحكمهم ، فان زدت على ذلك وفقدت معونة كونت طرابلس ورأيه السديد تكون قد خسرت كل شىء » •

فأجابه الملك جى « انه راض وقرير النفس ان يعقد الصلح مع كونت طرابلس ، وانه نازل على ما ينصحونه به • ثم استدعى اليه بعدئذ كلا من كبير فرسان الهيكل وهو الأخ « جيرار دى ريدفورت » ومقدم الاسبتارية الأخ « روجر دى مولان » Moulens ، وجوشياس Jocius رئيس الأساقفة (٤٨) بصور ، وبليان الا بلينى ورينالد الصيداوى (٤٩) (١١٧١ — ١٢٠٠) وكلفهم بالذهاب الى كونت طرابلس وعقد الصلح معه ، وتعهد لهم انه سوف يقبل كل ما يتم الاتفاق عليه بينه وبينهم •

★★★

على هذا الأساس انصرف الرسل ، وقضى أربعة منهم أول ليلة من رحلتهم هذه فى نابلس ، أما « رينالد » صاحب صيدا فقد سلك سبيلا آخر غير الذى سلكه هؤلاء الرفاق • ثم أن « بليان » الا بلينى جاء الى كبيرى فرسان الداوية والاسبتارية ورئيس أساقفة صور واعلنهم أن رحلة غدهم قصيرة ، ولذلك فانه يعتزم الاقامة فى نابلس لقضاء أمر من الأمور البسيطة التى لابد له من

قضائها ، وأخبرهم انه حين يفرغ من هذا الشاغل الذى يشغله فسوف يخرج تحت جنح الظلام متخذا من الليل ستارا ولن يتبلج صباح اليوم التالى (٥٠) حتى يكون قد عاد للحاق بهم فيتابعـون اذ ذاك رحلتهم وقد أشرف النهار على الطلوع ، ولم يبق وراءهـم سوى بليان .

(٢٥)

كان نور الدين بن صلاح الدين الذى خرج بالجيش منذ قريب معسكراً على الجانب الآخر من النهر وكان هذا الابن معروفـا « بنور الدين أمير على » وهو آخر أمراء دمشق (٥١) . وكان أبوه قد أمره أن يقتحم بلاد النصارى ويطأ أرضهم ويناورهـم بسبب القافلة التى كان الأمير « ارناط » قد عرض لها واستولى عليها ، وكان الطريق الوحيد أمام [الأفضل] نور الدين بن صلاح الدين يمر عبر اقليم طبرية .

ولما كانت طبرية فى تلك الآونة فى يد كونت طرابلس ، ولما كان بين هذا الكونت وبين صلاح الدين مودة وهدنة ، وكثيراً ما كان يمد له يد العون ويبدى له الود الكثير فلم يكن عند [الأفضـل] نور الدين بن صلاح الدين رغبة فى دخول هذا الاقليم المسيحى الا أن ياذن له صاحبه بالدخول وكان يعرف أن هناك نزاعاً بينه وبين الملك ، وهكذا بعث الى كونت طرابلس يخبره انه سـوف يدخل أرض النصارى عبر المنطقة الخاضعة لنفوذه .

حين سمع الكونت هذا الطلب ساوره الحزن الشديد وأدرك انه أن يرفضه فانه سوف يخسر عون والده صـلاح الـدين

ومشورته ، أما أن أطاعه فانه جالب على نفسه العار الكبيرومجال نفسه بالمذمة فى كافة البلاد النصرانية ، لذلك عزم على أن يرتب أموره على صورة تجعل المسيحيين يأخذون حذرهم فلا يخسرون شيئاً ، وفى الوقت ذاته لا يحس الأفضل ابن الصلاح — فيما بينه وبين نفسه — انه أهين ، ومن ثم أرسل الى نور الدين كلمة يؤكد له فيها انه سوف يأذن له بالمرور عبر بلاده ويجتازها وهو فى طريقه الى بلاد النصارى ، على أن يكون مفهوما عنده أن يعبر النهر عند طلوع الشمس ثم يؤوب عائداً الى بلده عند غروبها . والا يأخذ شيئاً ما من أى بلد يسير فيه ، أو تمتد يد جنده الى بيت من بيوت أهلها وألا يحدثوا منكراً من تدمير أو تخريب أو نهب أو سلب .

فأقسم الأفضل بن صلاح الدين أن يفعل ذلك كله .

★★★

فلما كان صباح اليوم التالى عبر [الأفضل] النهر ويمم وجهه شطر طبرية ودخل أرض النصارى ، وكان كونت طرابلس قد أمر بغلق أبواب طبرية حتى لا يقوم من بداخلها بالخروج منها فيحدثون ما فيه ضرر بالأفضل .

★★★

ولما كان الكونت قد عرف قبل يوم من ذلك أن المبعوثين فى طريقهم كتب كتباً ، وأعد رسلا وبعث بذلك كله الى الفرسان القائمين بالحراسة فى الناصرة والى غيرها من النواحى التى سوف يمر بها المسلمون ، وراح ينصحهم فيها ألا يبرحوها ، وعليهم ألا يغادروا دورهم اذ سيدخل المسلمون هذه البلاد وقد أخذوا العهد على أنفسهم الا يصل منهم أى مضَرّة الى الأهالى ، وألا يصيبهم منهم أى اذى أو شر ، وتعهدوا لهم بذلك ان هم ظلوا مقيمين بدورهم وبلدانهم ، لكن اذا وجدهم المسلمون فى الحقول أو فى غيرها

فسيلقون القبض عليهم ، وسوف يصيبهم منهم ضرر قد يصل الى حد القتل .

هكذا حذر كونت طرابلس أهل البلاد .

ثم جاء المبعوثون الى كبيرى الداوية والاسبتارية والى رئيس أساقفة صور الموجودين فى قلعة « الفولة (٥٢) » La Vève يحملون اليهم مثل هذه الرسائل من كونت طرابلس .

حين سمع كبير مقدمى الداوية أن المسلمين سوف يدخلون فى الغد البلاد أرسل على جناح السرعة من يحمل رسالة الى دير يعيش به نساك يتبعونه ويبعدون عنه أربعة أميال ويسمى « القاقون » Caco ، وقد تضمنت هذه الرسالة أمره اليهم بالخروج فى الحال والقدوم عليه مادام المسلمون سوف يدخلون البلد فى الصباح التالى ، وما كاد أهل الصومعة يتسلمون أمر مولاهم حتى ركبوا ظهور دوابهم ووصلوا اليه قبل أن يسدل الليل سدوله ، وأقاموا خارج الحصن . فلما كان الصباح التالى تحركوا ، فلما بلغوا الناصرة وجدوا هنالك ثمانين فارساً من الداوية وعشرة من الاسبتارية قائمين بحراسة كبيرهم ، كما وجدوا أربعين فارساً من الحامية الملكية بالناصرة التى ما لبثوا جميعاً أن غادروها وساروا قرابة ميلين نحو طبرية قبل أن يصادفوا المسلمين عند عيون الماء المعروفة بعيون « كريسون » Cresson وهم فى طريق عودتهم لعبور النهر فعبروه دون أن يصيب المسيحيين منهم أى أذى ، اذ كانوا قد خرجوا فى هدوء حسبما نصحهم كونت طرابلس .

كان رئيس الداوية فارساً صالحاً ورجلا قوى البنية ، ولكنه كان يعامل الكل معاملة المعتد بنفسه ، فلم يكن يلقى بالا الى نصيحة كبير الاسبتارية الأخ « روجر دى مولان » ولا يستمع الى مشورة

الأخ « جميس دى ميــلى » Mailly مارشــال الداويــة ولكنه يتعــالى عليه ويقــول له انه حــين يتكلم انما يتكــلم كمن يريد الفرار (٥٣) ، فرد عليه المرشال انه لن يهرب من المعركة بــل سوف يظل صامداً فى ساحة القتال صمود الأبطال ، وعَيّره أنــه هو ذاته سوف يفر فرار الجبان الشرير .

ثم كر كبير الداوية ومن معه من الفرسان وكذلك كر رئيس الاسبتارية على المسلمين الذين صمدوا لهم صموداً كريماً ، ثم أطبقوا عليهم واحاطوا بهم من كل جانب ، فلم يدعوا لهم منفذاً ينسلون منه ، وكان هناك ما يقرب من سبعة آلاف فارس مسلم فى كامل سلاحهم ، أما المسيحيون فلم يكن عددهم يتجاوز مائة واربعين ، وقطعت رقبة كبير فرسان الاسبتارية ومعه جميع فرسان الداوية الذين لم ينج منهم من القتل سوى كبيرهم وثلاثة فرسان . امــا الفرسان الأربعون الذين كانوا فى الحامية الملكية فقد وقعوا جميعاً فى الأسر ، فلما رأى بقية الداوية والاسبتارية أن عدد الفرســان قد تقلص بسبب ما أنزله بهم المسلمون من القتل لاذوا باذيــال الفرار بمتاعهم ، ومن ثم لم يضع شىء من متاع المسيحيين

(٢٦)

والآن فانى محدثك عما فعله رئيس فرسان الهيكل .

ذلك انه بينما كان يمر عبر الناصرة قاصداً حصار المسلمين كلف كبيراً من كبار جنده ركوب أحد الجياد وأمره أن يذهب الى الناصرة وينادى فيها بان يخرج وراءه كل قادر على حمل السلاح فى طلب الاسلاب والغنائم ، لانهم لابد ملحقون الهزيمة بالمسلمين ، وترتب على ذلك أن غادر الناصرة كل قادر على مغادرتها ، لكنهم

لما وصلوا الى حيث دعاهم كانت المعركة قائمة وجدوا النصارى قد لحقت بهم الهزيمة النكراء ودارت عليهم الدائرة وقتلوا عن بكرة أبيهم تقريباً ، وأن المسلمين قد ظهروا عليهم وأخذوا من قدرت لهم الحياة أخذ اليد .

ثم ان المسلمين بعد أنزالهم الهزيمة بالمسيحيين وفتكهم فيهم أخذوا رؤوس النصارى ورفعوها على أسنة رماحهم لتراها الانظار، ثم ساقوا الأسرى مقيدين ومروا بهم أمام طبرية ، التى أدرك أهلوها حينئذ أن الغلبة كانت للمسلمين ، وشاهدوا المسلمين يحملون رؤوس النصارى على أسنة رماحهم وانهم أخذوا البقية الباقية منهم ما بين مصفد فى الأغلال ومكبل فى القيود ، فحزنوا أشد الحزن اذ عرفوا فى بعض رؤوس القتلى جماعة من أصدقائهم ، واستدلوا من بعضها على بعض معارفهم ، فكادوا بسبب ما رآوا وعرفوا أن يقتلوا أنفسهم غما .

★★★

هكذا عبر ابن صلاح الدين النهر عند غروب الشمس ، وأوفى صادقا بعهده الذى قطعه على نفسه لكونت طرابلس ، فلم يقم رجاله بأى عمل تخريبى يصيبون به قلعة أو حصنا أو بلداً أو داراً ، ولم ينالوا بالمضرة الا من قاتلهم .

ودارت هذه المعركة يوم جمعة وهو يوم الاحتفال بعيد سنت فيليب وسنت جيمس الموافق لأول مايو .

كان السبب فى وقوع هذه المعركة هو ما تعرضت له القافلة من سلب على يد « رينو دى شاتيون » يوم أخذها فى ناحية الكرك ، وكان هذا العمل من جانبه أول مسمار دق فى نعش المملكة مما أدى الى ضياعها .

كان بليان فى نابلس ثم غادرها عند دخول الليل ليلحق برئيسى الداوية والاسبتارية وغاء بما عاهدهما عليه ، فلما قطع قرابة ميلين وصل الى مدينة يسمونها سميسساط وهذا تذكر أن هناك احتفالا بأحد الأعياد الهامة فقرر متابعة سيره لسماع القداس ، ومن ثم بَدل طريقه ومضى الى دار الأسقف وايقظه من نومه وظلا يتحادثان فيما بينهما ، وطال الحديث حتى أعلن الحارس انبثاق النهار ، وحينذاك أمر الأسقف تابعه أن يرتدى لباس الكهنوت ويأخذ فى ترتيل القداس .

بعد أن فرغ باليان من سماع القداس أسرع ما وسعه الاسراع فى اقتفاء خطى كبير رجال الداوية حتى بلغ قلعة « الفولة » فشاهد خارجها خيام أهل الصوامع منصوبة ولكنها فارغة لا حس فيها ولا حركة ، فأخذته الدهشة الا يجد أحداً يدله على ما جرى ، ثم أمر تابعه (٥٥) أن يدخل القلعة عساه يعثر فيها على أحد قد يفضى اليه بما كان ، فظل هذا التابع ينادى ويصيح لعل أحداً يسمعه فيجيب فلم يجبه سوى صدى صوته ، ثم سار حتى بلغ احدى قاعات القلعة فأبصر كهلين قد انهكهما السقم واشتدت بهما العلة ، لكنهما لم يكونا يعلمان بشىء مما جرى ، وحينذاك عاد الى مولاه واخبره انه لم يعثر على من يخبره بما كان وبما جرى .

حينذاك أمره بليان ان يأتى له بجواده فامتطاه وانطلق فى اثره ، وتابع الاثنان رحلتهما الى الناصرة .

ولما صارا على مقربة من الحصن خرج احد الداوية على ظهر جواده وناداهما ان يتريثا ويقفا فاطاعاه فجاء اليهما فسألهما

بليان الابلينى عن الخبر فكان الرد عليه « انها الكارثة الفادحة والضربة القاصمة » ثم أخبره بما جرى من قطع رقبة كبير الاسبتارية، وكيف هلك جميع الاخوان الداوية سوى اربعة قدرت لهم النجاة هم وكبيرهم وثلاثة من رفاقه ، ثم ذكر له كيف أن جميع الفرسان الذين خلفهم الملك لحراسة الناصرة قد وقعوا كلهم فى ربقة الأسر ، فامتلأ بليان بالغم وفاض به الحزن الطاغى وبعث فى طلب أحد كبار ضباطه وأرسله الى زوجته الملكة (٥٦) الموجودة فى طرابلس ليخبرها بما حدث ، وطلب منها أن تأمر جميع فرسانها بالحضور اليه فى الناصرة هذه الليلة .

ثم قابل جميع العسكر الذين قدرت لهم النجاة مع الداوية حين فروا حاملين أمتعة فرسان الداوية .

ويجب ان تعرف انه لو لم يتأخر بليان فى سميساط لسماع القداس لوصل ولشارك فى تلك المعركة .

★★★

حين جاء بليان الى الناصرة وجد الحسرة العظيمة تعم المدينة حزنا على القتلى والأسرى ، فما كان هناك من عائلة — غير ما ندر — ألا ومنها هالك أو أسير .

كذلك وجد بليان هنا رئيس الداوية الذى كتبت له النجاة .

وبقى بليان فى انتظار فرسانه حتى تم توافدهم عليه من نابلس فشرع فى التحرك .

وحينذاك بعث بالرسائل الى طبرية تحمل الى الكونت خبر وجوده فى الناصرة ، فلما علم الكونت أن بليان لم يكن ممن شاركوا

فى المعركة سر سروراً بالغاً ، وارسل اليه فى اليوم التالى خمسين فارساً .

(٢٨)

حين التقى بليان فى الناصرة برئيس الداوية راح يسأله عن اخبار المعركة ، فأنبأه أن قومه المحاربين أبلوا البلاء الحسن ، وأن النصارى فتكوا بكثير من المسلمين ، ولم تكن هزيمتهم الا بسبب كمين نصبه العدو لهم فى أحد الجبال العالية مما جعلهم فى عزلة ، وحينذاك ارسلوا الى المدينة فجمعوا كل ما بها من دواب الحمل كى يبعثوا بها الى ساحة المعركة لنقل جثث القتلى لدفنها فى الناصرة .

فلما كان اليوم التالى شرع رئيس أساقفة صور ورئيس فرسان الداوية فى الذهاب الى مدينة طبرية حتى اذا ما صاروا خارج أبوابها عاد كبير فرسان الهيكل من حيث جاء لعجزه عن متابعة الركوب اذ اشتد به ما أصابه من جراح فى ساحة القتال فى اليوم السابق ، وكانت جراحاً شديدة .

أما بليان ورئيس أساقفة صور فقد تابعا سيرهما الى طبرية ، فلما علم الكونت انهما قادمان خف لاستقبالهما وان بلغ الحزن به مبلغه ، كما أغضبه أحداث اليوم السابقة غضباً لا حد له . ومع ذلك فانه استقبل الرسل استقبالا طيباً تجلت فيه مظاهر الاحترام الكبير وأخذهما الى المكان الذى يقيم فيه . كما وصل فى هذه اللحظة رينالد الصيداوى .

حين أصبح الرسل مع الكونت فى الحصن أخبروه بنجوى سفارتهم فأنبأهم أنه حزين كل الحزن مما جرى وانه يحس بالعار

الشديد لما وقع ، وأنه سوف يفعل كل ما يقررونه فيما بينهم ، ادراكاً منه انهم لن يشيروا عليه بشيء غيه المضرة ، فأخبروه أن الواجب يحتم عليه أولا طرد المسلمين من مدينته ، فاذا ما تم ذلك صاحب السفراء فى ذهابهم الى الملك .

ثم أرسلوا رسولا على عجل ليعلم الملك انهم حاضرون وفى صحبتهم الكونت .

حين سمع الملك أن الكونت قادم اليه تملكه الفرح بعدما أصابه من حزن مرير من جراء الخسارة التى لحقت بالداوية ، لذلك غادر القدس وخرج لمقابلة كونت طرابلس فتم اللقاء خارج حصن يعرف بحصن « القديس يعقوب » الذى عرف بهذا الاسم لما يقال فى تلك الناحية (٥٧) من أن القديس يعقوب كان يعيش هنا ، وكان يتخذ من هذه البقعة سكنا له .

ما كاد الملك يرى الكونت حتى ترجل عن جواده وانتصب واقفا على قدميه ، وفعل الكونت هو الآخر مثله فنزل عن حصانه ومضى الى الملك « جى » الذى ما أن رآه الكونت يقترب منه حتى خر أمامه راكعا على ركبتيه فرفعه الملك وطوقه بذراعيه وعانقه وقبله ، ثم عاد الاثنان الى نابلس وأقاما بها .

راح الملك يعتذر للكونت عن أشياء كثيرة منها تتويجه وغير ذلك من الأعمال التى سمعت خبرها حالا ، فقال له الكونت انه ان يستجب لما ينصحه به سلمت مملكته واستقرت دعائمها وحكمت حكماً سليماً ، الا أن عدم صدق النية والحسد المؤديان الى الكراهية بدلا من المحبة كانتا تحولان بين الملك وبين عمل سيىء يشير به عليه .



بعد هذا غادر الاثنان نابلس وذهبا الى القدس حيث قوبلا بموكب حافل ، كما اقام الناس فى ذلك اليوم احتفالا ضخماً من اجل السلام الذى انعقدت أواصره بين الملك وبين الكونت الذى استأذنه فى الرواح ، فامره الملك بان يجمع جيشه ويحشده عند نبع « صفورية » (٥٨) ، ذلك لانه كان يعلم تمام العلم أن صلاح الدين يحشد عسكره لاقتحام الناحية ، وحينذاك اشار عليه الكونت أن يرسل الى أمير انطاكية فى طلب المساعدة ليستعين بها على ما نكب به من فقد فرسانه وكذلك كبير الداوية ورئيس الاستبارية .

ونزل الملك على مشورة الكونت الذى انطلق بعدئذ الى صفورية وجمع رجاله .

اما أمير انطاكية فقد ارسل ولده الأكبر « ريموند » على راس خمسين فارساً .

★★★

ارسل الملك بعد ذلك الى البطرك فى القدس يطلب منه احضار الصليب المقدس ، فأحضره وعهد به الي رعاية القسيم على القبر المقدس وامره ان يجعله مع جيش الملك ، اذ كان له من العذر ما يمنعه من الذهاب معه .

لقد كان من أشد الأمور شؤماً ان الصليب كان مع الجيش وقد صح ما توقعه رئيس أساقفة صور حين انتخبوا هرقل ليكون البطرك ، فقد قال هذه النبوءة « ان أحدهم ويدعى هرقل يسترد الصليب الحق الموجود فى فارس ويرده الى القسطنطينية ، ثم يأتي هرقل آخر بعده يأخذه فيكون ضياعه فى هذه المرة » (٥٩) .



لقد ضاع الصليب المقدس منذ اللحظة التى أخرجه فيها هرقل من القدس ولم يقدر له قط ان يعود بعد ذلك أبداً ، لانه فقد فى هذه المعركة ، كما ستسمع هذا الخبر .

حين كان الصليب الطاهر مع الملك وجيشه جاء رئيس الداوية واشار على الملك أن يرسله الى جميع البلاد معلنا أن كل من يتناول راتباً ينبغى أن يحضر اليه ، وسوف يضاعف الملك له راتبه ، وذلك من المال الذى أودعه الملك هنرى خزانة الداوية وعهد اليهم به لحفظه .

(٢٩)

كان هنرى ملك انجلترا يدرك انه قد ارتكب اثماً كبيراً ما بعده من اثم حين دبر اغتيال القديس « بيكيت » أسقف كانتربرى ، ومن ثم أجمع العزم على أن يكفر عن جرمه بالذهاب الى ما وراء البحر والمشاركة فى عمل من الأعمال الجليلة بغية ارضاء الرب عنه وغفرانه له ما ارتكبه من اثم ، وعسى الله يصفح عن جرائمه الأخرى .

ولقد جرت عادته بعد استشهاد القديس توماس بأن يرسل كل سنة مبالغ نقدية ضخمة (٦٠) الى خزانة الداوية وبيت مال الاسبتارية الموجودين فى بيت المقدس ، وكان هدفه من وراء ذلك أن يجد مدخراً كبيراً من المال حين يصل الى الأراضى المقدسة يصرف منه على ما فيه انقاذ البلد ونجدته وقت الحاجة . فلم يكن من قيم الداوية الا أن أعطى بعضاً من المال الذى عنده الى الملك « جى » قائلا انه يريد منه أن يحشد اكبر حشد يستطيعه من العسكر يحارب بهم المسلمين ويمحو العار الذى الحقوه بالبلاد

ويعوض الخسائر التى انزلوها بها ، فأخذ كبير الداوية المال واكثر من استئجار الفرسان حتى بلغ عددهم أكثر من ثلاثين الف فارس (٦١) .

★★★

وتقدم كونت طرابلس سائلا أن يؤذن له بالخروج ليضع طبرية فى حال من التأهب والاستعداد القوى لانه سمع — وكان حقاً ما سمعه — أن صلاح الدين قد جمع ألفاً وثمانين ألف راكب ، وانه عازم على محاربة الملك فى اكبر حرب تسنى له خوضها واشعال نيرانها ، لاسيما وان كونت طرابلس قد تراضى مع الملك الذى قبل أن يذهب الكونت ويعمل على تقوية وزيادة تحصين طبرية ، وقام الملك من جانبه بمساعدة من بداخل طبرية فأمدهم بالسلاح وزودهم بالذخيرة ، كما أمر أمراءه وضباطه بركوب السفن وحماية أنفسهم فى البحر ان هم راوا ان قوات صلاح الدين من الضخامة بالدرجة التى لا يستطيعون معها الدفاع عن أنفسهم . كما وعدهم بالحضور حالا لمساعدتهم .

(٣٠)

ثم ذهب الملك من بيت المقدس الى عكا ، وجاءها الكونت من طريق آخر عبر طبرية ، فلما وصلوا الى عكا جاءهم على جناح السرعة رسول من قبل الكونتسة ، يخبر الملك أن صلاح الدين قد اقتحم المملكة وحاصر طبرية بحشد كثيف من الرجال ، وان الكونتسة خائفة أشد الخوف ، وقد استولى عليها القلق والحزن ، فأمر الملك فى لحظته هذه بجمع الفرسان والبارونات للتشاور فى هذا الخبر الذى بلغه ، فلما التأم شملهم فى مجلس مشورة عقدو

فيما بينهم طلب الملك من أفصاله أن يبدوا اليه والى جميع من حضر مجلسه هذا يد المساعدة ، ويسدوا اليه النصح .

فأما رئيس الداوية والأمير رينو وكثيرون غيرهم فقد اشاروا على الملك ان ينهض لمطاردة صلاح الدين واخراجه من البلاد فى فى أول فرصة ، وكان ذلك الأمر فى مطلع أيام توليه العرش .

واذا كان « جى » يبدو فى عيون الشرقيين أبله فان صلاح الدين لابد وان يستفيد من هذه النظرة اذ لن يكون « جى » قادراً على الصمود فى وجهه لانه أن حارب السلطان فقد ضاعت المملكة .

★★★

حين فرغوا من محاورتهم قام الملك فطلب من كونت طرابلس ان يسديه النصيحة ، ولما كان الكونت قد استمع الى كلام من كانوا حاضرين فى هذا المجلس فقد قال له : « مولاى ، انى أشير عليك بل الح عليك أن تجهز مدنك وحصونك بالطعام والسلاح وغير ذلك من المعدات الضرورية ، واذا كان أمير انطاكية قد أرسل اليك ولده ، فابعث اليه انت مرة اخرى واعلم بلدوين الابلينى كيف اقتحم صلاح الدين المملكة فى قوة ضخمة ، واطلب اليهما ما يفرضه الواجب عليهما من المجىء للوقوف الى جانب المملكة وشد أزرها ، وانى لأعرف أن صلاح الدين سوف يدخل من ناحية « الفور » ، كما تعرف أنت اننا فى أشد أيام الصيف حرارة ، وان حصانة المكان وشدة القيظ سوف تكونان عائقاً ، وتسببان اشد الضيق ، وحينذاك يجد بلدوين نفسه مضطراً للحضور وعندما يتهيأ صلاح الدين للرحيل نكون اخذنا أهبتنا ونلحق به الخسارة الفادحة بعون الرب ، ونسلم نحن ومملكة بيت المقدس » .

(٣١)

حين فرغ كونت طرابلس من كلامه قال له كبير الداوية الأمير « رينالد » ان ما اشار به على الملك غير مستساغ ولا هو بالمقبول لما فيه من ازدواجية (٦٢) ، فلما سمع الكونت ما قالاه التفت الى الملك وقال له :

« اننى أدعوك يامولاى والتمس منك الذهاب الى طبرية لمعاونتها فى محنتها » .

فقال رئيس الداوية والأمير رينالد أن الملك سوف يذهب عن طيب خاطر .

ما أن صار الملك وفرسان مملكة بيت المقدس على استعداد للخروج حتى غادروا مدينة عكا وخرجوا فضربوا معسكرهم عند « صفورية » ، وكان الملك قد جمع الجيش للمرة الثانية وعرضه فوجد كثرة بالغة من الفرسان والمشاة وراكبى الخيل ، وانهم فى كثرتهم قد جاوزوا اربعين الف رجل . ويرجع ذلك الى ما قيل من أحضار الصليب الطاهر من القدس ليخرج به الجيش .

كان الملك كبير الاعتزاز بقوته الشخصية ، وكان يعزو هذا الاعتزاز الى قوته اكثر مما يعزوه الى عيسى المسيح والصليب الطاهر ، وكان هذا الأمر من جانبه مما جلب عليه المضرة فيما بعد .

(٣٢)

بعد ان استعرض الملك جيشه اراد التشاور مع رجاله مرة اخرى ، فأرسل ثانية الى كونت طرابلس يساله ان يشير عليه بما ينبغى عليه عمله ، فرد عليه بعقلانية قائلا : « انه ينبغى عليك

يا مولاى أن تعرف أن طبرية لى أنا وحدى ، وما من مضرة تلحقها الا الحقت بى الأذى ، وذلك لأن صاحبة طبرية زوجتى وصغارها يعيشون فى قلعتها . وما أحب الضرر — أيا كان قدره — أن يصيب أحداً منهم ، ولقد أرسلت اليهم الامدادات ، ونصحتهم — اذا ما وجدوا قوات صلاح الدين ضخمة بدرجة لا يستطيعون معها مقاومتها — أن يفروا الى جهة البحر حتى نستطيع انقاذهم »

« ولما كان الأمر كذلك يامولاى فانك لو أردت قتال صلاح الدين فاجعلنا نعسكر أمام عكا لنكون على مقربة من قلاعنا وحصوننا .

« وانى أعرف أن صلاح الدين سيكون مزهوًا ويأخذه الغرور فلا يدع المملكة حتى يهاجمك وحتى تكون معركة ينتصر فيها عليك ، فلو قدر له أن تجىء ويقاتلك على مقربة من عكا حرباً تكون فيها المضرة — لا قدر الله — فاننا حينئذ نكون قادرين على الانسحاب الى عكا وما جاورها من المدن الأخرى . أما أن كتب الرب لنا النصر عليه وارغمناه على الارتداد الى بلده فانا نكون بذلك قد أضعفناه وحطمنا بأسه تحطيما لا قيامة له منه بعده أبداً » .

ولما فرغ الكونت من كلامه هذا قال له رئيس الداوية « هذه ازدواجية أخرى منك » .

حين سمع الكونت هذا الكلام منه رد على الملك فى الحال قائلا : « انى ألح عليك وأرجو منك أن تذهب لنجدة طبرية » ، فأجابه الملك انه ماض بمحض ارادته وبرضائه التام .

وكانت كونتيسة طبرية قد بعثت برسول من ناحيتها الى الملك تناشده أن يمد اليها يد المساعدة لانها تعانى شدة الحصار . فلما سمع القوم ما كان من الكونتيسة سرت بين فرسان الجيش صيحة تقول « هيا بنا نخرج وننقذ سيدات طبرية وعذراواتها » .

(٣٣)

والآن فلنترك الحديث عن الملك والفرســـان الذين كانـــوا معسكرين عند نبع صفورية ، ولنشرح الشعور السيء والعداوة التى كانت بين مقدم الداوية الأخ « جيرار دى ريدفورد » وبين كونت طرابلس .

كان كبير فرسان الهيكل فى أول قدومه الى مملكة بيت المقدس فارساً مدنياً ، وكثيراً ما استأجره كجندى مرتزق كل من الملـــك عمورى والكونت الذى وعده أن يزوجه حين تسنح الظروف ، ولم يطل به الوقت ليتحقق هذا الوعد ويصبح أمراً واقعاً ، إذ سرعان ما مات « وليم دوريل » Dorel صـــاحب بوتـــرون (٦٣) Botron الذى كان متزوجاً من ستيفانى ابنة هنرى لى بافل Le Buffle التى كان قـــد تزوجها « هيج » صاحب جبيل بعد موت وليم .

كان لوليم ابنة من زوجته الآولى ، فلما مات جاء الى هـــذه الناحية رجل من بيزا اسمه « بليفين » Plivain وهـــو رجـــل واسع الثراء وقد وفد وفى جعبتـــه قدر كبير من المال ، وطلب من كونت طرابلس أن يتزوج هذه العذراء التى هى وريثة « بوترون » وعلى الرغم من أن الكونت كان قد سبق له أن وعد « جيرار دى ريد فورد » ان يزوجه هذه العذراء الا انه رجع عن وعده وآثر عليه هذا الرجل « بليفن » الذى هو من بيزا ، وكان سبب ايثاره اياه هو ما وصله به من مال كبير لقاء هذا الزواج ، فـــكان النـــاس يقولون انه وضع العذراء فى كفة ميزان وفى الكفة الأخرى ذهبـــا فكان ثمنها كبيراً ، وصارت هذه العذراء من ثم ملكاً لبلفين .

★★★

حين رأى « جيرارد دى ريد فورد » أن الكونت قد رده خائباً أشتد سعير غضبه عليه وقال ان الكونت باعها الى فلاح « جلف » وغد . وسبب ذلك القول أن الفرنسيين كانوا ينظرون الى من كانوا من ايطاليا نظرة تنطوى على الازدراء والمهانة ، ومهما يبلغ الواحد من هذه البلاد من الثراء الا انهم كانوا يعتبرونه من قـوم مرابين وقراصنة وملاحين ومن سوقة ، وكانوا يؤثرون التعامل مع الفرنسيين اذ يعدونهم فرسانا ويحسون بالراحة فى التعامل معهم .

ثم أخذ جيرارد دى ريد فورد يسلق (كونت طرابلس)بالسنة حداد ويهينه ، ثم غادره غاضبا عليه وذهب الى القدس حيـث أصابه مرض افترسه مما أدى الى دخوله مصحة الهيكل ، فلم يلبث به طويلا ثم مات (٦٤) الأخ أرنولد دى تورجـا Torroja رئيس فرسان الداوية فاختاروا بدلا منه بعد مماته الأ « جيرار (٦٥) دى ريد فورت »

ولما حضر حفل تتويج الملك « جى » قام بمساعدة الملكة فى وضع التاج على رأس زوجها .. وما كاد يتم هذا العمل فى القصر حتى قال « ان هذا التاج جدير ببوترون » (٦٦) .

هذا هو أصل الكراهية التى اندلعت بين كبير فرسان الهيكل الأخ « جيرار دى ريد فورت » وبين كونت طرابلس .

(٣٤)

بعد هذه المشادات الكلامية بعث الملك فى استدعاء كونت طرابلس والبارونات وكبير فرسان الداوية للحضور اليه مساء يومهم هذا ، فلما التأم جمعهم طلب اليهم أن يشيروا عليه بالرأى

الصحيح فكان مما أشار به عليه كونت طرابلس ألا يتحرك وألا يغادر موقعه هذا الذى هو عند النبع ، بل عليه أن يستبقى معسكره منصوبا حيث هو ، لأن تحت امرة صلاح الدين جيشا كبيرا ، على حين أن ليس لدى الملك من الرجال ما يكفى أن يقاوم بهم أو يستطيع بهم اخراجه من طبرية، وقال انه لو دمرها صلاح الدين فسوف تقع على كاهله هو وحده جميع العواقب • فتقبل الملك والبارونات الذين كانوا حاضرين فى هذه اللحظة نصيحة الكونت قبولا حسنا ، وأذنوا عن طيب خاطر أن يظلوا حيث هم • لكن لم يكد الليل يدخل وتظلم الدنيا حتى ذهب كبير الفرسان الداوية الى الملك وقال له : « مولاى حذار ثم حذار من الرأى الذى أشار به عليك الكونت فما هو الا خائن ، وستعرف أنه لا يضمر شيئا من الحب لك ، وانما هو دائم السعى الى كل ما يجلب العار عليك ويؤدى الى ضياع المملكة . ونصيحتى لك أن تغادر هذه الناحية حالا مع البقية الباقية منا ، كما أنى أرى من الحصافة وسداد الرأى أن تقاتل صلاح الدين • واعلم يا مولاى أن هذا هو أول مأزق تصادفه منذ أن صرت ملكا ، فان أنت لم تغادر هذه الناحية وتبرح هذا المعسكر فلسوف يحضر صلاح الدين ويهاجمك ، فان هو هاجمك فلن تجد أمامك سوى الانسحاب وتكون حينذاك قد جللت نفسك بالعار والحقت بها الشنار » •

★★★

حين سمع الملك ما قاله « جيرار » أمر الجيش بترك المكان ومغادرة هذه الناحية والانسحاب منها وحين علم البارونات المجودون بما قرره الملك من الانتقال استولت عليهم الدهشة وتملكهم الغضب وحين علم البارونات الموجودون بما قرره الملك من مغادرة هذه الناحية والانسحاب منها استغربوا ما أقدم عليه « جى » وقالوا له : « أيها الملك جى لقد كان الرأى الذى اجمعنا عليه هو أن نبقى حيث نحن ولو على

الأقل هذه الليلة ، وانا لنتوجه اليك بالسؤال فنقول لك من ذا الذى أشار عليك بهذا الرأى الخطير حتى تأمر العسكر بالرحيل؟»،
فأجابهم « ليس من شأنكم أن تسألونى عمن أشار على بذلك الرأى حتى نزلت عليه وأخذت بمشورته . والآن فانى أريد منكم أن تمتطوا جيادكم وتتركوا هذه الناحية وتنطلقوا شطر طبرية » .

لم يكن منهم ـ كأفصال مخاصين ـ الا أن يطيعوه وينزلوا على رأيه فاستجابوا له ، وربما لو نهم رفضوا الاستجابة لما قاله لهم وما أمرهم به لكان ذلك أجدى نفعا على المسيحية .

★★★

على أننى قاص عليك عجيبة جرت فى الجيش ، ذلك أنه حدث فى أثناء اليوم السابق — وقد حل المساء — أن أخرج المسيحيون الذين عند « صفورية » خيولهم وساقوها الى النبع فأبت أن تشرب الماء ولم تذق منه نقطة واحدة رغم شدة حرارة ذلك اليوم ، بل بدت وكأنها قوم خيم عليهم الوجوم وعلاهم الأسى ، فلما جاء الغد راحت ترمى عن ظهورها أصحابها ، وتترنح ثم تسقط نافقة .

لقد كان الجو ذلك اليوم شديد الحرارة

(٣٥)

انه لابد لى من أن أخبرك بملمة ألمت برجال الجيش رغم ما يبدو ما فى هذا الحادث من السذاجة حتى أن الكنيسة الطاهرة أنكرت هذه الحادثة ونددت بها ومنعت الناس منعا باتا من الاعتقاد فى صحتها . ذلك انه حين غادر الجيش نبع صفورية

وأصبح العسكر على مسيرة مرحلتين من الناصرة أن صـــادف السرجندية عجوزا مسلمة على ظهر أتان ، فظنوها أمة هاربة من مولاها فأمسكوها ، لكن ما لبث أن عرفها البعض وقالوا انها من الناصرة ، ثم سألوها عن وجهتها فى مثل هذه الساعة فلم تجبهم الاجابة الشافية ، فهددوها وعذبوها ، ثم عادوا يسألونهـا عن وجهتها التى كانت عازمة على التوجه اليها فقــالت انهــا كانت ماضية الى صلاح الدين لتأخذ مكافأتها عن خدمة سبق أن أدتها اليــه ، فزادوا فى تعذيبها ليقفوا منها على ماهية هذه الخدمة فصرحت لهم أنها ساحرة،وانها ألقت برقاها على العسكر (المسيحى) اذ ظلت على مــدى ليلتين حــولهم وهى تكثف شـيطانها بالقــاء سحره عليهم ، وأخبرتهم انهــم أن ظـــلوا مقيمين حيث هــم فلن يستطيعوا حراكا وحينذاك يأخذهم صلاح الدين اخذ اليد فلا ينجو منهم أحد أبدا ، وأخبرتهم أنهم أن لم يغادروا هذه الناحية فلن يبقى منهم أحد .

كان حقا ما جرى ، ذلك أن بضعة فرسان قلائل فروا فلم يجر عليهم القتل ولا الوقوع فى الأسر .

ثم سأل المرأة من قبضوا عليها أتستطيعين أن تحـــررى الجيش من فعل هذا السحر ؟ فقالت لهم « أجل ، أن هم رجعـــوا الى الموضع الذى جاؤوا منه » ، فاعتبروا ما تقوله كذباً وخديعـــة اذ أنها لا تعدو أن تكون مسلمة وتزعم أنها ساحرة ، وحينذاك جمعوا أغصان الشــجر والحشائش الجافة وأشعلوها وتعـالت ألســنة النــار فألقوا بالساحرة فيها ، فوثبت خارج هذا اللهب المتقد مرتين أو ثلاثا .

وكان هناك جندى من السرجندية يحمل فأسا دانيمركيــة فأهوى بها على يافوخها فشطره شطرين فألقوا بها فى النار فأتت عليها .

حين سمع صلاح الدين بخبرها ساوره الحزن الشديد عليها فقد كان يود لو يجزل لها العطاء والمكافأة لو بقيت على قيد الحياة ولم تأت عليها النار ٠

(٣٦)

انه ليس لأحد أن يعجب من هذه القصة لأننا نجد فى الكتاب الرابع لموسى أنه حين اجتاز بنو اسرائيل صحراء سيناء ودخلوا أرض « مؤاب » التى نسميها اليوم بالكرك ومونريال كان ملك تلك الناحيـة يدعى « بالاق » Balak ، ولما كان قد استولى عليه الخوف الشديد من بنى اسرائيل وبسبب الذين كانوا جيرانه وما ارتكبوه فى حق شعب تلك الناحيـة فانه أرسل رجاله وزودهم بمال وفير وكلفهم أن يذهبوا الى الساحر « بلعم » Ballam الموجود فيما وراء نهر الفرات فى بلدة الرها وأمرهم أن يعطوا « لبلعم » هذه الثروة وان يعدوه بالمزيد من « الحلوان » ان هو أصاب أبناء اسرائيل حتى لا يعودوا قادرين على ايذائه .

وجاءه المبعوثون وسلموه الرسالة والحلوان اللذين كلفوهم بحملهما اليه وسألوه أن يصحبهم ٠ كما قدم فى ليلته هذه الى الشيطان قربانا جريا على عادته ، ولكن جاءه فى نومه من يأمره بالذهاب ويأخذ حذره فلا يلعن أبناء اسرائيل ٠ الا أنه فى أثناء سيره خالف أمر الرب وصمم أن يصب عليهم لعنته فأرسل ربنا ملاكه بسيف مسلول ، ووقف له الملاك على الطريق التى كان عليه أن يسلكها فى رحلته هذه ، فرأت أتانه التى يركبها الملاك والسيف فخافت وفزعت وغادرت هذا الطريق ودخلت حقلا ، فشرع بلعام يثخن الأتان ضربا حتى عادت الى الطريق الذى كانت تسير فيه

حتى بلغت موضعا شديد الضيق فاعترضها الملاك مرة اخرى مصلتا السيف ، فذعرت الدابة ذعراً شديداً فزحمت الاتان الحائط وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها بعصا ففتح الرب « فم » الأتان فقالت لبلعام : « ماذا صنعت بك حتى ضربتنى الآن ثلاثا ؟ » فقال بلعام للأتان « لانك ازدريت بى . لو كان فى يدى سيف لكنت الآن قد قتلتك » ، فقالت الاتان لبلعام : « ألست أنا أتانك التى ركبت عليها منذ وجودى الى هذا اليوم ؟ »

فى هذه اللحظة ــ وقد نطقت بما نطقت ــ فتح الرب عينيه فرأى الملاك فآمن فى الحال فقال له الملاك « ان طريقك مخالف لطريقى وسأعود من حيث جئت ان كانت هذه ارادتك » « فقال له الملاك : كلا بل أريدك أن تتابع سيرك لكن عليك ألا تصب لعنتك على أبناء اسرائيل » .

واحتفى بالاق به اذ تلقاه وأخذه الى ربوة يستطيع منها مشاهدة بنى اسرائيل الذين يلعنهم ، فلما بلغهم قال كيف لى أن العن من باركهم الرب !! » .

ثم نطق بنبوءته عن سيدتنا القديسة مريم وعن مولد عيسى المسيح اذ قال « سيولد ليعقوب رجل فى اسرائيل وسيقوم من بين الموتى ويضرب ويحطم رؤساء مؤاب » .

★★★

ولما لم يكن قادرا على ايذاء بنى اسرائيل بلعناته وسحره فقد نصحهم أن يتخيروا أجمل العذارى اللائى فى البلد ويعطوا كل واحدة منهن قدراً من النبيذ ويرسلونهن اليه فى معسكره لأن أولاد اسرائيل كانوا قد تعبوا وبلغ النصب بهم غايته ، فاذا

رأوا ما عليه صغيرات اسرائيل من جمال ودوا لو ضاجعوهن وشاركنهم شرب الخمر فيرتكبون الخطيئة ويعصون الرب ويجلبون غضبه على أنفسهن وأنفس غيرهم (٦٧) .

وحافظ أبناء اسرائيل على البنات الصغيرات وضاجعوهن وشربوا من خمرهن . فلا يعجبن أحد ان ضاعت القدس لأنهم ارتكبوا كل هذه المعاصى فى هذا البلد المقدس حتى اشتد غضب سيدنا عليهم ، وخدعهم الشيطان اذ وضع الكراهية بينهم حتى خربت المملكة .

(٣٧)

والآن فانى مخبرك عن انتخاب البطرك « هرقل » الذى كان رئيس أساقفة قيصرية (٦٨) فأقول أنه حين مات البطرك أمورى قام رئيس أساقفة صور (وليم) وهو رجل صالح يخشى الله ويحبه حبا جما فمضى الى القوامين على القبر المقدس ، العالمين بالشرائع المقدسة وتحدث اليهم ونجح فى ضم بعضهم الى جانبه اذ قال لهم :

« ايها السادة ... لقد أخذ الرب أبانا البطرك اليه وها أنتم ذا على وشك اجراء انتخاب بطرك آخر جديد يحل محله يكون من أهل هذا الجانب من العالم وانى لأنصحكم فى ايمان صادق ألا تختاروا اى أسقف من أساقفة هذه الناحية ، وحذار من أن تنتخبوا رجلا تندمون بعدئذ على اختياره وتتأذى به المملكة ، لأن الأمر سيكون بينى وبين رئيس أساقفة قيصرية ، اذ أنكم بعد انتخابكم اياه تقدمونه الى الملك فيقبله الملك وانكم تعرفون

أن أم الملك تحبه حبا جما ، فان شئتم اختيار رجل حكيم من أهالى ما وراء البحر فانى انا وكبار رجـال الدين فى المملكـة عـلى أتم استعداد لتقديم النصيحـة لكم ، وان كنتم فى ضيق ذات اليد فيما تتحملونه من الأموال فانى ومعى كبار رجـال الدين على أتم استعداد أن نتحملها عنكم دون ضجر .

« الا فاعلموا أن ما يدفعنى للكلام معكم الآن والنصح لكم هو **انى وجدت فى أحد الأسفار (٦٩) أن رجلا اسمه هرقل أعاد الصليب** من فارس الى القدس . وان آخر اسمه أيضا هرقل سوف يأخذه من القدس فى يوم يكون هو فيه فى الحـكم ويومذاك يضـيع الصليب . من أجل هذا أريدكم العمل بما أنصحكم به وأن تأخذوا به . » فلما سمع كبـار رجال الدين والقبر المقدس ما قاله البطرك واتفقـوا عليه .

حينذاك غادرهم رئيس أساقفة صور .

اما هـم فقـد ذهبـوا الى اجتمـاعهم الذى عقـدوه فى الكاتدرائية ، وكانت أم الملك قد حثتهم على انتخاب « هرقـل » ، فلمـا كانوا فى الاجتماع المشـار اليـه ضربوا عرض الحـائط بالنصيحة التى أسداها اليهم رئيس أساقفـة صـور ، لأن المرأة كانت قد استطاعت التأثير على بعضهم تأثيرا فاسدا مما ترتب عليـه أن انتخبوا « وليم » رئيس أساقفـة صور ، كما انتخبوا رئيس أساقفة قيصرية بطركا لبيت المقـدس وقدموهما معـا الى الملك الذى استقبلهما بالترحاب ، الا أن أمه راحت تتوسل اليه أن يصادق على اختيار « هرقل » بطركا لبيت المقـدس فوافق الملك على ذلك ونزل على مشيئـة أمه ورجائها .

★★★

ويقول بعض الناس انه كان من حق ملك بيت المقدس الذى لا يشاركه فيه أحد أو يعارضه فيه أحد حق اختيار البطرك ، الذى اذا كان التوامون على الهيكل المقدس قد اختاروا بطركاً — ايا كان هذا البطرك — قدموه الى الملك فعلى الملك المصادقة على اختياره، ولا يمكن تأجيل رده عليهم الى الساعة الأولى من الغد فان كان انتخابهم اياه فى الساعة الأولى من النهار لزم الملك أن يرد عليهم وقت صلاة الغروب .

هذا هو الحق الذى يقال انه كان متاحا للملك فى اختيار بطرك القدس ، لكنى لم أره استعمله ، ومن أجل هذا لا أستطيع أن أتبين مدى جدواه ، ذلك أنه اذا كان الملك يتمتع بهذا الامتياز أو الحق فانه يكون فى قدرته استعماله متى تكون هناك حاجة اليه .

كذلك يقال انه وارد فى الكتب المقدسة انه حين كان تلاميذ المسيح على جبل الزيتون بعد عيد العنصرة وبعد هلاك يهوذا الخائن أنهم اختاروا رجلين اسم أحدهما يوسف الصديق المعروف بسابا وأما الثانى فيعرف بمتياس(٧٠) Matthias واقترعوا بينهما ثم القوا قرعتهم فوقعت على متياس فحسب مع الأحد عشر رسولا .

★★★

من أجل ذلك قد يقول البعض أن كبار رجال القبر المقدس يمثلون الرسل وانهم يختارون من يريدون ثم يختار الملك من يشاء ممن اختاروهم .

والآن فسوف نتحدث عن حياة هرقل قبل ان يصير بطركا ثم بعد أن صار بطردا فنقول انه كان منذ بدايته رجلا عديم الحياء وليس له من العلم الا النزر اليسير ، وكان رجلا ضخم الجثه ، كما كان في الوقت ذاته منحل الاخلاق اشد الانحلال ، منكبا على ملذاته . عبداً لشهواته ، وكانت « أجنس » أم الملك الأبرص شديدة الولع به والعشق له ، فدفعهـا ميلها المفرط اليه ان تجعله رئيس شمامسة بيت المقدس ، ثم رئيس أساقفة قيصرية ، ثم أنتهى بها الأمر أخيرا الى أن جعلته البطرك ، فلما صار هو البطرك اتخذ خليلة له امراة اسمهـا « باسك دى ريفرى Pasque de Riveri وكانت هذه المرأة زوجة تاجـر أقمشـة وثيـاب فى نابلس التى تبعـد عن القدس .ربعـة وعشرين ميلاً ، لكنـه اعتـاد أن يأتى بهـا الى القـدس فتقيم معـه خمسة عشر يوما ، وقد تزيد هذه الفترة من الزمان ، وكان هو يغـدق عليها وعلى زوجها المال الكثير حتى صـارت هى وبعلها من الثراة والأغنيـاء ، ومن أجل هذا اعتاد زوجها أن يغمض عينيـه ويتغافل عنها فيفعل البطرك معها ما شاء ٠

ثم مات زوجها تاجر الأقمشـة فحمـل البطـرك أرملتـه وجعلها تعيش معه على الدوام فى داره لا تغـادره ، ثم اشترى لها دارا وأغدق عليها المجوهرات الثمينة والأحجار الغـالية ، حتى صارت أغنى امرأة شاهدتها القدس ، وما من غريب رآها الا وظنها « كونتيسة » ، أو حسبها « بارونة » لكثرة ما تتحلى به من الأحجـار الكريمـة وما ترتديه من الثياب الغاليـة الموشاة بالذهب ، وما تتحلى به من غالى الجوهر ٠ أما الخـلق الذين

يعرفونها فانهم كانوا يقولون ان مرت بهم : « ... انظروا . . ها هى البطريكة » ...

(٣٩)

ولقد حدث فى احدى المرات ان كان الملك وبارونات المملكة فى جلسة بقصر البطرك يتناقشون فى بعض الأمور الهامة ويستعرضون فى هذه الجلسة احتياجات البلد ويتدبرونها .

ثم انظر وتعجب مما جرى .. !!

لقد جاء خادم الى القصر حيث كان هؤلاء السادة الكبار مجتمعين ، وصاح بالبطرك : «سيدى البطرك : لقد جئتك بنبأ طيب سار !! ... فان كافأتنى مكافأة طيبة سخية أفضيت به اليك » ، ظن البطرك والملك وبقية المجتمعين أنه سوف يذكر خبرا فيه نصر للمسيحية ، فقد جرت عادة هذا الخادم أنه اذا جاءت الى القدس أخبار طيبة أسرع الى البطرك فقصها عليه ، ومن ثم قال له البطرك « هات ما عندك أيها التعيس ... !! هات ما عندك على أن يكون ساراً ! » ، فقال له الخادم : « لقد وضعت السيدة باسك دى ريفرى الساعة ابنة لك » . فرد عليه البطرك قائلا : « اخرس أيها الأحمق ولا تزد » .

★★★

ولما كان رئيس أساقفة صور يعرف عن حياة البطرك « هرقل » هذه الأمور وكثيراً مثلها فانه التمس من كبار التوامين على القبر المقدس ما سمعته يا قارئى منذ قليل . لكنهم أصموا

آذانهم وكأن بها وقرا ، ورفضوا أن يفعلوا ما التمسه منهم وليم الصورى بل فعلوا عكس ما طالبهم به .

★★★

بعد أن أصبح هرقل بطركا ، وفى يوم خميس العهد كان واقفا على جبل صهيون ليقوم بالمسح بالزيت المقدس فاذا به يعلن فجأة ودون سابق توقع أو انذار قرار الحرمان ضد رئيس أساقفة صور دون أى محاكمة ودون أى حق له مما يخالف سنن العدالة ، ومن ثم اشتكى رئيس أساقفة صور الى رومة التى استدعته للمثول بين يدى البابا اسكندر ليختبر مدى أيمانه أمام مجلس عقده هذا البابا ، وبينما هو يهىء نفسه ويستعد للذهاب الى هناك اذا « بهرقل » يستأجر مطببا ، ثم ينفحه قدرا كبيرا من المال رجاء أن يرافق رئيس الأساقفة وليم فى ذهابه الى رومة وأن يضع له السم ، فاستجاب المطبب لما طلبه هرقل منه وضع السم لوليم .

وركب البطرك البحر وذهب الى مرسيليا وسافر منها الى « جيفودان » Gevaudan مسقط رأسه ، فلما بلغه خبر موت وليم رئيس أساقفة صور كر راجعا ومضى الى القدس واكن ساءت حياته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وهكذا فان جميع الناس من علمانيين وروحانيين عرفوا صورة من حياة دنسة لشرير كبير (٧١) .

★★★

لقد اشتد غضب ربنا على من كانوا يعيشون فى مملكة بيت المقدس من أجل خطيئة أهلها ، وأراد أن يطهر أرضه من هذه

المعاصى وممن اقترفوها . وتمثل ذلك فى أن صلاح الدين حين استولى على مدينة القدس ووجد بها كهلين اسم أحدهما « روبرت دى كودر » Coudre كان ممن صحبوا جودفرى دى بويون وقت الفتح سنة ١٠٩٩ ، أما الآخر فيدعى « فوشييه فيولى » Foucher Fiole من مواليد القدس ، ولما كانا كهلين فقد أشفق عليهما صلاح الدين حين سألاه أن يأذن لهما بالاقامة حيث هما حتى يختما حياتهما فى مدينة القدس ، فرحب صلاح الدين بما طلباه منه وأذن لهما فى الاقامة وأمر بتزويدهما بكل ما هما فى حاجة اليه طوال أيامهما الباقية لهما فى هذه الدنيا .

وهكذا أمضيا بقية عمرهما حتى وافتهما منيتهما .

(٤٠)

أما الآن فانى مخبرك بشىء عن الملك « جى » وعسكره .

ذلك أنهم غادروا نبع صفورية قاصدين الذهاب الى طبرية لنجدتها ، لكنهم ما كادوا يخلفون النبع وراءهم حتى اعترضهم صلاح الدين وأمر مناوشيه من جماعته أن يتابعوا مضايقتهم لهم من الصبح الى الظهيرة ، وكانت الحرارة اذ ذاك حارقة حتى أنه لم يكن فى استطاعة الملك ورجاله التقدم فى الزحف للوصول الى الماء ، وتفرقوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون لأنهم لا يستطيعون الرجوع والا كانت خسائرهم جمة فادحة ، ومن ثم أرسل الى كونت طرابلس ــ الذى كان على الطليعة ــ يسأله رأيه وماذا يفعل ، فرد الكونت عليه بأنه ينبغى عليه أن يقيم حيث معسكره ، وكانت مشورة فاسدة لكنه لم يجد بدا من قبولها والعمل بها مما أسفر عن الضرر البليغ الذى لحق بهم ، هذا على الرغم من أنه كان يضرب عرض الحائط من قبل بكل رأى ــ مهما كان

صحيحا ـ مما كان يشير به الكونت عليه ولم يحدث قط أن أخذ بأى رأى رآه الكونت وعرضه عليه ·

وقال بعض من كانوا فى الجيش انه لو كان المسيحيون قد تابعوا سيرهم بدلا من الوقوف حيث هم لدارت الدائرة على صلاح الدين وللحقته الهزيمة (٧٢) .

(٤١)

ما كاد الجيش المسيحى ينصب معسكره كما أشار الكونت حتى بادر صلاح الدين ، فأمر رجاله أن يجمعوا كل ما يستطيعون جمعه من غصون الشجر ومن الحشائش الجافة وغير ذلك مما يمكن استعماله لايقاد النار ، وليجعل من هذه النار أسوارا تحيط بالمعسكر الصليبى ، فنفذ الجند أوامر قائدهم تنفيذا كاملا ، حتى اذا كان الصباح الباكر ازداد ضرامها حدة وتعالت ألسنة اللهب ، وأطبق الدخان على المسيحيين من كل جانب ، بالاضافة الى شدة حرارة الشمس وحمارة القيظ مما أنزل بالمسيحيين الأذى واضطرابا كبيرين ·

أما صلاح الدين فقد أمر باحضار قوافل الابل محملة بالماء من بحيرة طبرية ، كما وضع جرار الماء قرب المعسكر وأمر أن تفرغ على مرأى من المسيحيين مما زاد فى شدة لهفتهم الى الماء وزاد فى ظمئهم ، بالاضافة الى ما يعانونه من العذاب ·

ولقد حدث فى الجيش الصليبى فى ذلك اليوم حدث عجيب اذ أبت جياده — وهى عند نبع صفورية — ان تشرب الماء ليلا أو نهارا وقد دفعها الظمأ الممض الى أن ترمى أصحابها من فوق ظهورها فى لحظة كانوا فيها أحوج ما يكونون اليها (٧٣) .

حينذاك قام فارس اسمه « جوفرى فرانكليو » Francliew وذهب الى الملك وقال له : « مولاى الملك ، لقد آن الأوان لأن تجعل البولان Poulains غالبين على رجال مملكتك » .

***

كان من أسباب الكراهية بين الملك وجماعته البواتيين Poitivins وشعب بلده هو أنه حين أصبح ملكاً راح البواتيون ينشدون فيما بينهم وهم فى القدس أغنية اسخطت رجال المملكة سخطا شديدا ، وتقول هذه الأغنية :

maugré li Polein (٧٤)

avrons nous roi Poitivin

ولقد ترتب على ما بين الجانبين من كراهية متبادلة وازدراء : ضياع مملكة بيت المقدس .

(٤٢)

حين اشتعلت النيران وتعالت ألسنتها وكذلك سحب الدخان أحاط المسلمون بالجيش وراحوا يرمونه بسهامهم ويرشقونه بنبالهم ويقذفونه بنشابهم وتركوهم هم وجيادهم ما بين قتيل وجريح ، فلما رأى الملك النكبة الملمة بجيشه استدعى كبير فرسان الداوية والأمير ريناك وسألهما الرأى ، فأشارا عليه بقتال المسلمين ، وحينذاك أمر أخاه «ايمرى»(٧٥) الذى كان مدبر أمر الجيش أن يقوم بتنظيم الصفوف وترتيب الكتائب والفرق ، فبذل ايمرى غاية جهده فى تنفيذ أوامر أخيه الملك « جى » .

أما كونت طرابلس الذى كان وقت قدومهما على طليعة الجيش فقد قاد الفريق الأول الذى هو فى المقدمة ، وكان معه فى فريقه

هذا « ريموند » ابن أمير انطاكيـة بجميع رفاقه ، كما كان معـه أيضاً أبناء صاحب طبرية وهم : هيج ، ووليم ، ورالف ، وأوست (٧٦ Oste) أما باليان الابلينى وكونت جوسلين فكانا على المؤخرة .

★★★

ما كادت الصفوف تنتظم وتصبح على استعداد للقتـال حتى خرج خمســة فرسان من بين صفوفه كونت طرابلس وفـروا الى صلاح الدين قائلين له : « فيم انتظارك أيهـا السـلطان .. ؟ تقدم وخذ جميع المسيحيين فما نراهم جميعـا الا وقد أوشكت الدائرة أن تدور عليهم ! » . فلما سمع كلامهم أمر رجاله بالتقدم فأطاعوه حتى يصيروا أقرب ما يكونون الى المسيحيين .

ولما رأى الملك أن صلاح الدين أخذ فى التقـدم نحـوه أصدر أمره الى كونت طرابلس بالهجوم . وكان المتبع عند بارونات المملكة أنه اذا كانت المعركة تجرى على أرض أحد معين منهم حق لهذا البارون أن تكون له قيادة الطليعة .

ومن ثم فانه لما كانت طبرية تقع فى نطاق أراضى كونت طرابلس فقد كان من حقـه قيادة المقدمة .

ولقد أفسح المسلمون طريقـا بين صفوفهم حتى يمر الكونت بمن معـه فلما صاروا فى وسطهم أطبقوا عليهم وأبادوهم عن آخرهم غير اثنى عشر فارساً أو عشرة كان منهم كونت طرابلس نفســه وريموند ابن أمير انطاكية وأولاد صاحبة طبرية الأربعـة .

حين رأى الكونت ما نزل بهم من هزيمة نكراء لم يجرؤ على الذهاب الى طبرية التى لم تكن تبعـد عنهم أكثر من ميلين ، ويرجع

احجامه عن الذهاب الى هناك الى أنه لو تقدم لتم لصلاح الدين الاطباق عليه وأسره ، ومن ثم انطلق بهؤلاء الرفاق حتى وصل الى مدينة « صور » ٠

★★★

بعد أن حاقت الهزيمة بهذا الفريق زاد غضب الرب على المسيحيين بسبب آثامهم التى زادت زيادة جمة أسفرت عن سرعة قضاء صلاح الدين عليهم حتى صارت الغلبة له عليهم فى تلك الساحة بأكملها وذلك بين الضحى والعصر (٧٧) ، وكان انتصاره الذى أحرزه عظيما حتى لقد ألقى القبض على الملك ذاته وكبير فرسان الداوية والأمير رينالد والمركيز وليم وايمرى الكونستابل ، وهمفرى صاحب تورون ، وهيج صاحب جبيل ، وبليفان **Plivain** صاحب بوترون » وكثيرين غيرهم من البارونات والفرسان الذين يطول ذكر أسمائهم لو شرعنا فى ذكرها ٠

كذلك ضاع الصليب الطاهر ٠

★★★

ثم جاء فيما بعد — زمن هنرى كونت شامبين (٧٨) — أخ من الأخوان الداوية وقال للكونت هنرى أنه كان موجودا فى ساحة المعركة لحظة وقوع الهزيمة الساحقة ، وانه قام بدفن الصليب الطاهر فى موضع يعرف هو أين يكون ، وأنه يمكنه أن يدلهم عليه لو خرج فى حراسة البعض فيأتى به ، فلما سمع هنرى كونت شامبين ما قاله هذا الفارس بادر فزوده بالحراس الذين طلبهم للحفاظ على سلامته ، كما أذن لهم بالخروج بالحراس ، وكان خروجهم سرا، وانطلقوا الى حيث قادهم وظلوا يحفرون وينقبون

ثلاث ليـال سويا بلا جدوى فلم يعثروا على شىء قط ، ومن ثم عادوا الى مدينة عكـا ٠

★★★

لقد ألمت هذه النكبـة بالمسيحيين فى موضع يسمونه قرون حطين وهو يبعـد عن طبرية أربعـة أميـال ، وكان وقوعها يوم السبت الرابع من يوليو سنة ١١٨٧م ، أعنى يوم الاحتفال بعيد القديس « مارتن كاليدوس » وكان البابا اربان الثالث يجلس على الكرسى البابوى ، وكان فردريك امبراطورا على ألمانيـا ، وفيليب ابن لويس ملكا على فرنسا كما كان هنرى ملكا على انجلترا .
ملكا على انجلترا ٠

أما بيزنطـة فكـان عـلى عرشـهـا أسحق (٧٩) الثانى (انجيلوس) .

لقد أدمى نبأ هذه الهزيمة الفاجعة القلوب المخلصة ليسوع المسيح ، واغتمت لها النفوس حتى لقد مات من فداحتهـا البابا ايربان الثالث الذى كان اذ ذاك فى « ورارا » فأرفض جنانه حـين صك سمعه هذا النبأ فمات على أثره ٠

ثم مات فى آثره جريجورى الثامن الذى عاش حيـاة ملؤها الطهارة ، والذى لم يطل جلوسه على الكرسى البابوى سـوى شهرين ودع بعدهما الحياة هو الآخر ٠

ولما مات جريجـورى خلفـه كليمنت الثالث الذى وافـاه جوشيوس Jocius رئيس أساقفة صور بتقرير (٨٠) صادق عن هذا النبأ ، كما ستجده مكتوبا بعد هذا ٠

غادر صلاح الدين ساحة المعركة فرحا أشد الفرح بما أحرزه من نصر عظيم وما حازه من ظهور كبير على المسيحيين وأصدر أمره ان يجيئوه بكل الأسرى المسيحيين الذين وقعوا فى يده فى هذا اليوم ، وأمر ان يوقفوهم بين يديه ، فكان أول من جاؤوه به اليه الملك « جى » وكبير الداوية والأمير رينو دى شاتيون ، والمركيز وليم ، وهمفرى صاحب تورون ، والكونستابل ايمرى ، وهيج صاحب جبيل وعدة فرسان آخرين •

حين رآهم السلطان مصطفين أمامه أفضى الى الملك « جى » بسروره أن يكون فى قبضة يده جماعة من الأسرى الأقوياء ممن لهم مكانة الشرف مثل ملك بيت المقدس وكبير فرسان الداوية وسواهما من كبار البارونات •

ثم أمر أن يجيئوه بوعاء ذهبى مليء بالشراب الحلو فتذوق بعضه ، ثم ناوله الى الملك قائلا له : « اشرب أيها الملك ما شئت ان تشرب » •

كان الملك جى شديد الظمأ ، فعل من الشراب ما أروى ظمأه وأطفأ غلته ثم هم بمناولته الى الأمير أرناط الذى لم يقدر له ان يشرب اذ ما كاد صلاح الدين يراه يتناول الكاس من « جى » حتى بان عليه الغضب وقال له « اشرب فلن تشرب بعد اليوم » ، فقال له ريناله دى شاتيون « ان شاء الرب فانى لن اشرب بعد ذا ولن آكل أبدا » ، فوجه صلاح الدين كلامه اليه قائلا : « أيها الأمير ارناط •• أستحلفك بدينك ان تصدقنى القول •• ماذا كنت أنت تفعل بى لو أنى كنت الآن فى قبضتك كما أنت الآن فى قبضتى ؟• وكنت أنا اسيرك بدلا من ان تكون انت أسيرى ؟ » •

فقال رينالد « فليساعدنى الرب . لو كان الأمر على الصورة التى تذكرها لقطعت عنقك » .

حنق صلاح الدين من هذه الاجابة المهينة الوقحة وقال له : « أيها الخنزير ·· أتكون فى أسرى ثم تجيبنى بمثل هذا الجواب السفيه .. !! » .

ثم استل سيفه من جرابه وطعنه به طعنة اخترقت صدره ، فسارع المماليك الواقفون على مقربة منه وقطعوا رقبته ، واذ ذاك أخذ صلاح الدين بعض دمه ونثره على رأسه اشارة الى انه تم له أخذ ثأره ، ثم أمر بحملها الى دمشق فسحبوا جثمانه على الأرض حتى يرى المسلمون كيف تم الثأر ممن أخطأ فى حقهم ·

(٤٤)

ثم أمر صلاح الدين بأخذ الملك وغيره من الأسرى الى دمشق وحبسوهم حسب مراتبهم ·

وحين سمعت السيدة صاحبة طبرية ما جــرى على الملك من الأسر وما حاق بالمسيحيين من الهزيمة أيقنت أنهـا فقدت زوجهـا وأولادها ، فبعثت الى صلاح الدين بكلمة تبدى له فيها استعدادها لتسليمه طبرية ان هو أعطاها كتاب أمان تذهب به الى طرابلس . فلم يخيب لها صلاح الدين رجاءها بل منحهـا ما تطلبـــه عن طيب خاطر ، ثم أمر باحتلال البلد فى الحال ، كمــا أمـر ان تتمكن السيدة من الخروج هى وأهل طبرية آمنين على أنفسهم ·

فلما كان اليوم الثالث من المعركة كلف صلاح الدين أميرا اسمه « تقى الدين » (٨١) كان صاحب حماه وزوج اخته ان يسرع

الى عكا فاطاعه على عجل ، حتى اذا أصبح على مقربة من قرية تبعد عن عكا ثلاث مراحل وصل الى المدينة كونت « جوسلين » الذى كان واليا على عكا من قبل والذى كان أثناء القتال ـ على مؤخرة جماعة من كبار الجيش وتمكن هو وبليان الابلينى من النجاة من الهزيمة . فلما وصل الى المدينة استدعى جماعته من وجوه القوم وشاورهم فى الأمر ونزل على مشورتهم ، فارسل مفاتيحها الى تقى الدين قائلا له انه يسعى للحصـــول على كتاب أمان حتى يسلم المدينـــة الى السلطان ، على ان يكون كتاب الأمان شاملا سكانها أيضا ونساءهم وأولادهم ٠

كان حامل مفاتيح المدينة وحامل هذا الخبر رجلا من كبار رجالات عكا واسمه « بطرس برايس » (٨٢) ٠ Brice

حين سمع بقية النـــاس خبر تسليم كونت جوســلين المدينة وارساله مفاتيحها الى المسلمين اشتد بهم الغضب شدة كبيرة وجرى قتال عنيف فى أرجائها ، وقالوا انهم يؤثرون جعلها طعمة للنيران بدلا من ان يسلموها الى المسلمين ، بل ان البعض عمد فعلا فاشعل النار فى بعض نواحيها ٠

بينما كانت عكا تحترق أرســــــل تقى الدين بالخبر الى صلاح الدين يعلمه ان المملكة صارت ملكا له ويطلب اليه الحضور فقد أسلمه أهل عكا مفاتيجها ووضعوها فى يده ٠

حين سمع صـــلاح الدين هذا الخبر عظمت فرحتـه وبادر فأخبر كبارها أنه سوف يحبوهم بعطفه ورعايته وسوف يشملهم

فأخبر كبارها انه سوف يحبوهم بعطفه ورعايته وسوف يشملهم

أمانه على ان يتابعوا دفع ما جرت عادتهم على دفعــه للمسلمين ٠

وأخبرهم أن من أرادوا مغادرة البلد أخذوا كتاب أمان يتيح لهم الذهاب انى شأوا وحيثما أرادوا ٠

(٤٥)

حين سمع أهل عكا هذا الخبر تجمعوا للتشاور فيما بينهم ، فكان أول ما عملوه ان عمدوا الى اخماد النيران المشتعلة فى ضواحيها ، كما ان صلاح الدين أمر من جهته ضباطه بالاستيلاء على البلد ومعاقله ، كما منح أهلها وناسها أربعين يوما يأخذون خلالها نساءهم وأولادهم ويغادرونها ومعهم متاعهم ٠

بعد ان أمن مدينة عكا وأقام نوابه ورتب من يحفظ الأهالى ويرعاهم أنى كانوا مضى لحصار « صور » ، وكان بليان الابلينى ــ الذى كان على المؤخرة فى المعركة ــ قد أقام بها ، وكانت تربطه علاقات طيبة بصلاح الدين ، ومن ثم أرسل اليه يستعطفه فى ان يرسل اليه حراسا وكتاب أمان ليذهب الى القدس للبحث عن زوجته وأطفاله وأهل بيته ليصحبهم الى طرابلس ، فأجابه صلاح الدين بأنه سعيد أن يمده بالحرس الذى يرجوه ، وبكتاب أمان الى القدس ، على ان يقسم على الكتب المقدسة المسيحية ألا يقيم بالقدس سوى ليلة واحدة يغادرها بعدها فى الصباح ٠

فلما أقسم اليمين المطلوبة بعث اليه صلاح الدين من يؤمن طريقه الى القدس التى سر كثير من رجالاتها وسكانها به ، بما فيهم البطرك ٠

★★★

بينما كان بليان فى القدس تمسك بعهده الذى قطعه على نفسه ، كما خرج الجميع من البلد حسب اتفاقه مع صلاح الدين،

ثم ذهب المواطنون الى البطرك واستحلفوه بحق الرب ان يبذل قصارى جهده لاستبقاء بليان فى المدينة لعدم وجود رئيس أو حاكم يمكنه ان يمد يد المساعدة لهم ، فأرسل البطرك الى بليان يلتمس منه البقاء وعدم المغادرة ، فرد عليه بانه أخذ على نفسه العهد ، وأكده بالقسم أمام صلاح الدين أن لا يقيم بالمدينة بل عليه مغادرتها ومن ثم فانه لا يستطيع أن يطيل اقامته ومكثه بها عما عاهد عليه الصلاح ، فقال له البطرك انه سوف يحله من يمينه بما فى هذا الحل من خير للمسيحية فرضخ بليان للبطرك فاحله من عهده الذى كان قد قطعه على نفسه لصلاح الدين ، وظل مقيما بالقدس حتى جاء الوقت الذى اخليت القدس فيه ٠

★★★

فى هذه الأثناء كان صلاح الدين قد مضى لحصار مدينة صور ، الا انه ما كاد يبلغها حتى وجدها فى منعة بفضل ما هى عليه من التحصينات ، كما رآها عامرة بالرجال والفرسان الذين كتبت لهم النجاة فلم يصبهم الهلاك فى معركة حطين ومن ثم أصبحت حراسة « صور » موكولة اليهم ٠ ثم أدرك صلاح الدين انه غير مستطيع ان ينجح فى تحقيق شيء مما أراده هنا ، لذلك تحرك للاستيلاء على «صيدا» (٨٣) ثم استولى على بيروت ، ثم مضى بعد ذلك الى «جبيل» وأحضر معه صاحبها وأوقفه أمام القلعة . وكلفه أن يخاطب أهلها . فتشاور الرجال الذين بها فيما بينهم ثم اتفق رأيهم على أنهم عاجزون عن الحفاظ عليها فافضى بهم الرأى الى تسليمها فتحرر صاحبهم وأطلق سراحه (٨٤) ٠

ثم مضى صلاح الدين منها الى طرابلس (٨٥) فوجدها محصنة أكمل تحصين ، فلم يجد بدا من مغادرتها الى قيليقية حيث استولى على جبلة وعلى قلعتى صهيون ولا جارد ، ثم تابع زحفه من هنا الى



« بغراس » فدربساك ، وانتقل الى حصار قلعة من قلاع الداوية تعرف بصـــخرة وليم (٨٥) التى كان يعيش فيها أو فى الحصن المسمى بهذا الأسم فارس اسمه « جون جالا » Gala من مواليد صور ، وكان هذا الفارس قد هرب من قبل من المملكة وذهب الى البلاد الاسلامية لأنه كان قد وثب على مولاه وقتله ، ومن ثم يمم وجهه شطر صلاح الدين الذى عهد اليه بالقيام بتثقيف ابن أخيه وتعليمه فنون الحرب وتدريبه على استعمال السلاح وفق الطريقة الفرنجية . كما كلفه ان ينشئه على التقاليد والعادات الطيبة .

وحدث أثناء وجود الشاب النبيل المسلم فى رعاية « جون جالا » ان فكر الأخير فى اصـــلاح ما بينه هو ذاته وبين قومه فيعود الى النصرانية ، ورأى تمام سعادته أن ينجح فى ذلك السعى .

ثم جاء صلاح الدين الى حلب مستصحبا معه هذا الفارس وذلك الشاب وتركهما بها فسلك « جون جالا » مسلكا طيبا شريفا اذ أخذ يبعث بالرسائل الى الداوية الموجودين فى قلعة « بغراس » وأخبرهم أنهم أن أرادوا شراء ابن أخى صلاح الدين فانه سعيد ان يحقق أربتهم ويبيعهم اياه على أن يضمنوا له الحماية الشرعية فيعود الى مملكة بيت المقـــدس .

واستجاب الفرســـان الداوية لشرطه ورحبوا به وقبلوا ان يدفعوا له أربع عشرة ألف دينار اسلامى ، وان يمنحوه الحصانة . فلما تمت العملية مع الداوية خرج « جون جالا » هو والشاب ذات يوم وحدهما ومعهما صقورهما ، ومضى جون جالا بالشاب الى الداوية الذين كانوا فى انتظارهما ، فأخذوا الشاب وذهبوا به الى حصنهم .

(٤٦)

بعد ان هزم الصلاح المسيحيين وأسر ملكهم راحت أخته وابن أخيه تقى الدين يلحان عليه للعمل على استرداد الشاب ، ولم يكن

أمام صلاح الدين الا أن يستجيب ، فالولد ابن اخته ، وهذا يفسر السبب الذى دفع الصلاح للقيام بالاستيلاء على هذا الحصن ومحاصرته (٨٦) .

وفى أثناء قيامه بحصار الحصن جاء الى مدينة « صور » رينو الصيداوى الذى كتبت له النجاة يوم حطين وأرسل فارسا من ناحيته الى الصلاح الذى كان مقيما على حصار « لاروش جييوم » يعلن اليه رغبته فى تسليم مدينة صور ويطلب منه ان يرسل اليه اعلامه وراياته ليرفعها على القلعة ، ففرح صلاح الدين لسماعه هذا الخبر وناول الفارس الاعلام والبيارق وطلب اليه أن يسبقه فيرفعها على القلعة ، كما أخبره أنه ماض في أثره على جناح السرعة ليأخذ مفاتيحها .

وغادره الفارس وأحضر الرايات الى رينالد (الصيداوى) الذى كان قد شرع فى تنفيذ ما كان قد دبره ، لكن الرب لم يشأ ان تصبح مدينة صور فى يد المسلمين وان يتملكوها ، بل أراد بدلا من ذلك تخليصها من ربقة الأسر وحفظها فى يد المسيحيين حتى يستعملوها كقاعدة لهم فى الأيام المقبلة .

وخاف رينالد الصيداوى من أهل البلد ان هو رفع الرايات الاسلامية فوق الحصن فأعاد رسله الى صلاح الدين الذى كان لايزال قائما على الحصار وقال له انه لم يجرؤ على رفع أعلام صلاح الدين على أسوار المدينة ما لم يكن هو ذاته بها ، كما أخبره أنه اذا كان يسعى الى أخذ المدينة فعليه المبادرة بالمجىء على وجه السرعة .

وجاء الرسول الى صلاح الدين بهذه الرسالة التى ما كاد الصلاح يسمعها حتى رفع حصاره عن روش جيوم « وشرع فى الرحيل » (٨٧) .

بينما كان فى الطريق اذ بالمرب يرسل « كونراد ماركيز دى مونت فرات » الذى كان بالقسطنطينية منذ أمد بعيد ، واستولى ـ حين جاء ـ على صور وأخذ يستعد لوصول صلاح الدين ، وأخرج رينالد الصيداوى من المدينة واستولى على ما وجدوه بالقلعة من البيارق والأعلام : اشارة الى استهانته بأمره وازدرائه وعدم اكتراثه بأمر صلاح الذين الذى كان يتوقع حين وصوله الى صور أن يجد رينالد الصيداوى فى انتظاره ليسلمه البلدة ؛ لكن لم يجد شيئا من هذا القبيل · بل أبصر المدينة مجهزة أحسن جهاز لحربه ومحصنة خير تحصين فما كان منه الا أن رحل عنها وانطلق الى حصار عسقلان ·

(٤٧)

والآن دعنى أحدثك عن خبر وصول الماركيز كونراد الذى كان ـ كما سمعت ـ قد غادر بلاده الى القدس حاملا الصليب للحج لكن انتهى به الخروج الى القسطنطينية حيث زوجه امبراطورها اسحق بأخته ، لكنه لما كان قد قتل « ليفيرناس » Lyevernas من قبل فان أسرة القتيل راحت تهدد بالانتقام وأخذ الثأر ·

لقد كان هو نفسه رجلا شديد البسالة ، قد بلغ حدا كبيرا من الشجاعة حتى أن الامبراطور الكسيوس (٨٨) كان يخشاه كل الخشية ويود لو تمكن من فقأ عينيه ·

ولقد علمت زوجته بما كان يدبر له ، ولما كانت شديدة الحب له فكثيرا ما أخبرته بما كان يدبر له وبما يجرى ، وكثيرا ما توسلت اليه ان يبذل جهده للمحافظة على نفسه ليسلم من أى أذى ولا يصيبه شر ·

واستدعى الماركيز الرجال الذين جاء بهم من وطنه ، وأعلمهم بما قالته له زوجته ، وطلب منهم التعاون معه وفهمهم (فى السر) أنه حين يذهب الى الامبراطور فعليهم أن يحضروا الى الماركيز ويستأذنوه أن يسمح لهم بالذهاب الى القدس لاتمام حجهم ، كما أن عليهم أن يفهموه أنهم لن يقبلوا البقاء قط مهما أغدق عليهم من الهدايا ومهما قطع لهم من التعهد على نفسه لأنهم ان قبلوا ما يطلبه الامبراطور كان فى ذلك الخطر الجسيم عليه ، فاما أن ينتهى الأمر بقتله أو سمل عينيه ، فوعده رجاله أنهم فاعلون ما سألهم اياه وما طلبه منهم ٠

فلما كان صباح اليوم التالى انطلقوا جميعا للسلام على الامبراطور ، وما كادت الرسميات تنتهى حتى طلبوا من الماركيز أن يأذن لهم بمتابعة رحلتهم الى القدس ، فتوسل اليهم الماركيز ألا يفعلوا بل عليهم أن يبقوا الى جواره فلم يقبلوا له رجاء ولا توسلا بل أصروا على رفض رجائه ٠

وفهم الامبراطور البيزنطى من القائم بالترجمة أنهم يلحون على الماركيز فى أن يسمح لهم بالرحيل ، فناشدهم الامبراطور من جانبه ألا يفعلوا ووعدهم بالمال والثروة ان هم ظلوا مقيمين ، لا سيما وأن رحى الحرب لا تزال دائرة ، فأخبروه أنهم عازمون عزما أكيدا على ألا يقيموا أكثر مما أقاموا ٠

ثم جاء المركيز الى الامبراطور وأفهمه أنهم وعدوه وعدا أكيدا أيدوه باليمين التى قطعوها على أنفسهم أنهم لن يكادوا يفرغون من حجهم حتى يعودوا اليه ، فقبل الامبراطور حينذاك ما قيل له وأذن لهم بالسفر ٠



كانت هنـــاك سفينة لبعض البيازنة راسية في الميناء فأمر الامبراطور هؤلاء البيازنة ان يحملوا رجال المركيز الى الشام وزودهم بالمئونة ، ودفع لهم أجر السفينة كاملا ، كما قام المركيز فأعطاهم معظم ما معه من مال مما هو موجود معه بالقسطنطينية ، وبينما كانت السفينة موشكة على الاقلاع كان الامبراطور عند الشاطىء يستجم ويقضي بعض وقت فراغه .

ولما رأى المركيز السفينة تتهيأ للاقلاع وتمخر عباب الماء في بحر هـــادىء وكان الوقت ملائمـــا كل الملاءمـــة للابحار التفت الى الامبراطور وقال له : « سيدى الامبراطور ... لقد نسيت شيئا صغيرا تافها أريد أن يحمله أحد فرساني الى أبي والى ابن عمي » . فرد عليه الامبراطور قائلا : « بالله عليك هلا أسرعت وأخبرت به فارسك ؟ » .

حينذاك وثب المركيز الى قارب صغير انطلق به الى المركب المسافر والتي ما كاد يصبح على سطحها حتى سأل ربانها ان كان الأمر ملائما للابحار فلما اطمأن الى جوابه قال لقواده : « افردوا قلاعكم أيها الربابنة وأبحروا ، وأستحلفكم بالرب أن تسرعوا في الابحار ما وسعكم الاسراع » .

فيطعوا لأمره وأسرعوا حتى بعد ما بينهم وبين البلد ، وساعده الرب فأرسل الريح رخاء فانطلقت السفينة مجريها ومرساها حتى أوصلهم الابحـــار الى بلاد الشـــام خارج مدينة عكا (٨٩) . وكان ذلك يوم الثالث عشر من يوليو سنة ١٨٧ .

على هذه الصورة كان خلاص المركيز وهكذا أنقذه الرب من أيدي الاغريق .

كانت العـادة الجارية فى هذا الوقت بمدينة عكا أن يضرب بالناقوس كلما دخلت الميناء سفينة تكون قادمة من وراء البحار . فما يكاد الناس يسـمعون الناقوس حتى ينطلق قارب صغير الى الى حيث تكون السفينـة بالميناء ، وكان قد مضى عهد طويل منذ وصول آخر سفينة الى الميناء ·

فلما سمع المركيز دقـات الناقوس أمر بانزال قارب السفينة الصغير الى الماء ليستطلع السر ، ووضع به جماعة من أمهر الملاحين ليقفوا على هذا السر ويعلموا فى الوقت ذاته آخر الأخبار ·

واقترب القارب من « برج الذباب » وسأل الذين فيه لمن تكون هذه المدينة فأخبروه أنها لصلاح الدين ، وأن فى استطاعتهم الرسو فى أمان اعتمادا على كتاب أمان من صلاح الدين ، فرد عليهم أهل القارب أن لن يكون لهم رسو طالما أن البلد فى يد المسلمين ، فقال لهم أحد العلوج ممن كانوا بالبرج : « امضوا الى صور حيث مولانا صلاح الدين الذى استولى على صليبكم ، كما قبض على ملككم وجميع عسكره ، وسوف يأخذكم أنتم أيضا » ·

فلما سمع من بالقارب هذا الكلام عادوا الى السفينة وأفضوا بالخبر الى المركيز الذى تألم أشد الألم مما سمع ، ثم أمرهم بالابحار حتى يصبحوا بعيدين عن هذه الناحية ، فأبحروا فوصـلوا الى « صـور » ·

حين بلغ المركيز بمن معه مدينة « صور » فرح بهم أهل البلد فرحا شديدا لأن الرب بعث اليهم فى هذه اللحظة الحرجة بهذه السـفينة ·

ثم أرسل هؤلاء الناس بمن يأتيهم بنبــأ من على ظهر هذا المركب ، فلما عرفوا أنه المركيز دى مونتفرات صفقت قلوبهم فرحا ، وخفت طائفة كبيرة منهم الى المركيز تلتمس منه القاء مراسيه ودخول البلد . ومساعدة أهلها اذ لامناص لهم من الاستسلام للمسلمين ان لم يسـعفهم الرب بالنجدة ، ذلك لأن رايات صلاح الدين كانت تخفق . فلما سمع المركيز ما قالوه رد عليهم قائلا : « تقولون أيها السادة انى لو رحلت عنكم وعن مدينتكم هذه فسوف تستسلم وتفتح أبوابها للمسلمين ، وحينذاك تضيع من أيدى النصارى . وأنا أقول لكم انكم لو ارتضيتم بى حاكما عليها وعهدتهم بملكيتها الى وأقسمتم لى يمين الولاء والطاعة ، وقبلتم ان يكون من يخلفونى من ذريتى حكاما عليها فســوف أرسو وأدافع عنهــا بعون الرب ضــد المســلمين » .

ولما كان أهالى صور قد فقدوا الأمل وعرفوا ان صلاح الدين قادم للاستيلاء عليها ، وأن الملك جى قد وقع أسيرا فى يده ، وان المسيحية قد لقيت الهزيمة فقد سرهم أن يجدوا قائدا ورئيسا يتولى شئون المدينة ويدافع عنها من أجلهم ، ثم قبلوا جميع عروضه . وأقسموا أن يكونوا أوفياء له ولذريته وفق ما طلبه منهم .

حينذاك أرسى المركيز دى مونتفرات ودخل المدينة التى تلقاها أهلها بالترحاب والاجلال ، وساروا به فى موكب ضخم شق أرجاء بلدهم التى أسلموها اليه هى وقلعتها ، وأعطوه جميع استكاماتها قريرى العين غير كارهين لما فعلوا .

★★★

أما ريتالد الصيداوى الذى كان قد اتفق مع صلاح الدين على أن يقوم بتسليمه البلد فلم يجرؤ على البقاء بها ، ومن ثم استقل

قاربا وهرب به الى طرابلس مخلفا وراءه المركيز رئيسا ومالكا لصـــور .

ما كادت الأمور تستقر على هذا النحو حتى قدمت الى صور ثلاث سفن لأهالى بيزا ملآى بشتى أنواع الذخيرة ، وتحمل فوق ظهرها العدد الجم من الرجال مما زاد فى ادخال الطمأنينة الى نفوس أهلها .

ثم جاء صلاح الدين ليتسلم المدينة حسب اتفاقه مع « رينالد الصيداوى » ، متوقعا من « رينالد » ان يقوم بفتح أبوابها له وهو لايزال خارجها ، لكنه وجد غير ما توقع وأدرك أنه قد غرر به ، فقد كانت المدينة ــ كما عرفت وذكرت لك ــ قد آلت الى يد المركيز الذى أنزل رايات الصلاح الموجودة على أسوار البلد وحصونها وسار بالمركب الى السور المواجــه لعسكر المســلمين ومزق الرايــات الاسلامية وقذف بها الى البحر ، كما رمى البعض الآخــر منها فى الخندق كعمل من أعمال التحدى ، فلما شاهده صلاح الدين يفعل ذلك فقد كل أمل له فى استرداد لمدينة .

ثم أرسل الى دمشق يطلب ان يجيئوه بالمركيز الكبير ، فلما دخل عليه كلف واحدا أن يتحدث الى كونراد وأن يقول له انه ان تخلى له عن صور فسوف يطلق سراح أبيه الذى فى أسره ، وسوف يصله بالمال الوفير ، فرد عليه كونراد قائلا انه لن يفرط فى صور أو فى حصاة من حصاها ولا فى ذرة رمل من رمالها،حتى ولو عرضت عليه أموال الدنيا لقاء اطلاق سراح أبيه ، بل زاد على ذلك فقال له : « أشـدد وثاقه وأحكم قيده واربطه الى خازوق وسأكون ، أنا أول من يرميه فيصميه فيرديه ، وهل كان أبى سوى كهل عجوز لا جدوى منه ، وليس من نفع من ورائه ، وانه لا يساوى شيئا !! » .

ثم جاء المسلمون بالأب أمام المدينة فصاح المركيز صارخا : « يا كونراد يا ولدى العزيز ... ان المدينة وديعة فى يدك فحافظ عليها ما استطعت الحفاظ » .

وكان جواب الابن أن تناول قوسا ووتره ورمى به أباه .

فلما سمع صلاح الدين بما فعله ولد المركيز هـــذا قال لمن حوله : « ان هذا الرجل كافر لا دين له ، وانه لمتوحش غظ القلب » .



مضى الصلاح بعد ذلك الى « قيصرية » فحاصرها واستولى عليها ، وتابع حركته هذه فاستولى على « ارسوف » ثم يافا ، ثم انطلق لحصار عسقلان لكنها عزت عليه لشدة حصانتها وما كانت عليه من المنعة والقوة مما ترتب عليه تأخر سقوطها ، وحينذاك أرسل الى دمشق وأمر باحضار « جى » فلما جاء قال له الصلاح : « أيهـــا الملك ، لو أسلمتنى مدينة عسقلان أطلقت سراحك » ، فأجابه الملك انه ما كان له ان يفعل شيئا من هذا القبيل حتى يشاور فيه رجاله الموجودين بالمدينة ، فلم يعارضه السلطان بل أذن له فى المضى اليهم . فلما صار هناك استدعى اليه كبار رجالات البلد لعدم وجود فرسان بها وقال لهم : « أيها السادة ، ان صلاح الدين يقول انه سوف يطلق سراحى ان أنا أسلمته البلد . ولكنى أرى الظلم كل الظلم لمدينة جميلة كهذه المدينة ان تستسلم من أجل فرد واحد ، فان رأيتم أنكم قادرون على الحفاظ عليها لتكون ذات جدوى للمســـيحيين

والمسيحية فلا تسلموها له أبدا ، ولا تفرطوا فيها ، أما أن رأيتم أنكم عاجزون عن الحفاظ عليها فلا ألومكم ان أنتم أسلمتموها اليه ، بل أرجوكم أن تسلموها له فاتخلص من ربقة الأسر » .

حينذاك تشاور أهل البلد فيما بينهم وأخذوا يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة ، فرأوا أنهم غير قادرين على الحفاظ عليها وصون سلامتها ، لعدم توقعهم وصول أية نجدة تأتيهم ، وقالوا فيما بينهم أنهم لو عرفوا مجيء نجدة لظلوا رافضين تسليمها الى صلاح الدين ٠

حين انكشف الأمر على هذه الصورة رأوا أن الأجدى عليهم تسليمها فتسلم حياتهم ولا يموتون جوعاً فيأخذها الصلاح حينذاك غصبا ٠ لذلك اسلموها اليه واشترطوا عليه آلا يضاروا فى نسائهم ولا أبنائهم وان يسلم لهم ما تبقى فى أيديهم وما يملكون ، وان يلتزم الصلاح بحراستهم حتى يبلغوا البلاد المسيحية ٠

ترك صلاح الدين للملك « جى » اختيار عشرة رجال ممن معه فاختارهم وكان منهم أخوه وكبير فرسان المعبد والأخ الكونستابل « ايمرى » ، كما كان الباقون على هذا المستوى الرفيع من المكانة ٠

لكن كان أحد من اختارهم كاتبا بدلا من أن يكون فارسا فعد ذلك من جانبه خطأ كبيرا يحمل فى طياته شرا مستطيرا ، اذ كيف يؤثر الكاتب على الفارس وكيف يفضل شاميا ؟

وتعهد صلاح الدين ان يطلق سراح الملك وان يكون ذلك فى مطلع شهر مارس ٠

أما عسقلان فقد آلت اليه فى مستهل أغسطس (٩٠) ٠

★★★

حين أصبحت عسقلان ملك يمين الصلاح بعث بالملك الى نابلس ٠



كذلك أخبر الملكة ان فى استطاعتها أن تصاحب زوجها الملك فى خروجه ، اذ لم يشأ ان تظل فى القدس وهو قائم على حصارها •

حين سمعت الملكة ما قاله السلطان انطلقت الى نابلس لتكون مع الملك . وبذلك كانت بها حين استيلاء صلاح الدين على القدس •

★★★

لقد حدث يوم استسلام عسقلان أن جاء من القدس بعض الناس ممن كان السلطان استدعاهم ليشاهدوا بأعينهم عما اذا كان فى الامكان عقد الصلح مع رجال من أهل المدينة ، وكان ذلك يوم جمعة ، والوقت ظهراً حين تلبدت السماء بالغيوم وأكفهر الأفق ، وغابت الشمس حتى صار النهار ليلا دامسا ، وحينذاك ذهب السلطان الى رجالات القدس وأخبرهم أنهم يحسنون صنعا لو أسلموها اليه •

★★★

ولقد فاتنى أن أذكر أنه يوم استسلام عسقلان لصلاح الدين أن استسلمت له أيضا القلاع والحصون الأخرى المحيطة بها .

حين سمع بعض كبار الرجال ما قاله الصلاح بشأن تسليمه القدس قالوا « هذا أمر لا يرضى به الرب أبدا » ، فقال لهم صلاح الدين :

«سأخبركم أيها السادة أنكم سوف تسلمونها الىّ وأنه لا مناص لكم من تسليمها •

« وانى لأعتقد اعتقادا جازما أن القدس بيت الله وذلك ما نؤمن به وتؤمنون به أنتم أيضا ، وهو أمر مؤكد فى ديننا ودينكم • ووارد فى ملتكم وملتنا •

« ولذلك فانى لن أحاصرها وهى بيت الرب ولن أرميها بالقذائف ما دمت أستطيع امتلاكها بالتراضى أو بالسلم . وهذا ما أسعى اليه جاهدا وصادقا .

« وأزيدكم علما الآن انى سوف أجعلكم تذعنون لى . وانى سوف أمنحكم ثلاثين ألف قطعة بيزنطية مساعدة لكم فى تحصين المدينة ، وأعطيكم ـ الى جانب ذلك ـ أرضا مساحتها خمسة أميال فى أية ناحية حول المدينة تتحركون فيها كما شئتم وتعملون ما تريدون .

« وسوف أجهزها بالطعام الكافى حتى لا يكون ثم نقص فى أية ناحية من النواحي وذلك بفضل السوق التى سادعكم تقيمونها .

« وسأمنحكم من الآن حتى عيد الفصح هدنة ، فان أنتم تلقيتم أية معونة حصنتم أنفسكم ضدى ، أما اذا لم تصلكم أية معونة فعليكم أن تسلمونى المدينة ، وحينذاك تخرجون فى ظل حمايتى أنتم وما تملكون الى أى بلد مسيحى تريدون الذهاب اليه » .

فردوا عليه قائلين أنهم لن يسلموا البلد أبداً الى المسلمين ، فهى المدينة التى سفح فيها السيد دمه من أجلهم .

فلما شاهد صلاح الدين هذا الموقف وسمع ردهم عليه أقسم جهد ايمانه الا يقبل أخذ القدس سلما بل لابد من أخذها عنوة وحربا .

وارسل بليان الابلينى الى السلطان رسالة يرجوه فيها أن يزوده بحرس وبكتاب أمان من أجل زوجته وأطفاله حتى يرسلهم الى طرابلس ، ثم أخبره أنه غير مطمئن الى عهد عاهده عليه من قبل

فأرسل الصلاح اليه فارساً وأمره بحراسة أهل بليان حتى يبلغوا طرابلس ، ثم أعقب ذلك استيلاؤه على جميع ممتلكات القـــدس باستثناء « صور » والكرك ومونتريال (٩١) ٠

(٥٠)

غادر صلاح الدين عسقلان فى ليلة خميس ومضى لمحاصرة بيت المقدس (٩٢) ، فلما كان صباح الغد ــ أعنى الجمعة ــ فرض الحصار على الأسوار الممتدة من باب داود حتى باب سان استفان ٠ على انه قبل اغارته على المقادسة بعث اليهم يطلب منهم ان يسلموه البلد وقال انه يسعده أن يلتزم بالشروط التى قدمها لهم فى عسقلان ، وأنه يحترم هذه الشروط ٠

وأفهمهم أنهم ان لم يسلموه البلد فسوف يشرع فى مهاجمتها ولن يقبل منهم حينئذ أى عرض يتقدمون به بل انه سوف يتملكها قسرا ، لأن هذا كان قسمه وعهده ، ومن ثم جهز رجاله بالسلاح تأهباً للهجوم عليهم فلم يكترثوا بما قال بل انطلقوا يقاتلون المسلمين قتالا ضاريا ولكن لم يطل أمد هذا القتال ، فقد كانت الشمس تواجه عيون المسلمين فاضطروا لتأجيل المعركة حتى مالت الشمس للغروب فأخذوا فى القتال حتى دخل الليل .

ظل صلاح الدين يحاصر القدس ثمانية أيام على هذه الصورة دون أن ينجح بقواته على ارغام المسيحيين على الارتداد الى المدينة ، لكنهم كانوا يواجهونهم خارج الأسوار ٠ وكانت هذه المواجهة تظل موصولة حتى يسدل الظلام سدوله ، واستطاع النصارى أن يرغموا المسلمين مرتين أو ثلاث مرات على الارتداد الى معسكراتهم دون أن يستطيع المسلمون أن يشيدوا فى هذه الناحية من المدينة بطارية أو منجنيقا (٩٣) ٠



والآن حان الوقت كى أحدثك كيف كان هجوم المسلمين ، فأقول أنهم لم يقوموا بأية حركة حتى الظهر ، فاذا أصبحت الشمس فى أقفيتهم وواجهت وجوه المسيحيين هاجموهم من غير انقطاع حتى يدخل الليل وكانت معهم آلاتهم الجلدية التى يثيرون بها الدخان فينطلق فى وجوه النصارى الذين كانوا يكابدون حينذاك العثير ، كما صارت الشمس تلفح وجوههم .

(٥١)

حين أيقن السلطان انه لن يستطيع أن يصيب النصارى بأى ضرر من هذا الجانب من المدينة مضى فنقل عمليات الحصار التى يقوم بها رجاله الى المنطقة الواقعة بين باب القديس اصطفـــان وجبل الزيتون (٩٤) وكان الواقف على هذا الجبل يستطيع أن يرى كل ما يجرى فى القدس وما يحدث بها .

استغرق حصار المدينة ثمانية أيام بعد وصول السلطان الى المدينة ، وكان معنى هذا عدم استطاعة أى أحد الخروج منها طوال هذه الفترة .

لم يكن بين باب سان استيفان وباب ياهو شفاط الذى تركز عند الحصار أى باب أو ممر خلفى يستطيع من خلاله المدافعون عن البلد القيام بأى هجوم يشنونه على المسلمين ، اللهم الا اذا استثنينا بوابة « مادلين » Madeleine التى يمكن من خلالها الوصول الى البقعة الواقعة بين السورين (٩٥) .

حدث فى نفس اليوم الذى تحرك فيه السلطان من عند باب داود الى باب سنت ستيفن ان تم تشييد بطارية راحت ترمى أسوار المدينة فبلغت رمياتها ثلاثاً ، كما بنى السلطان فى نفس الليلة عدة

بطاريات ومناجيق ، حتى اذا جاء الغد أصبح عددها احدى عشرة واحدة كبيرة ، وراحت جميعها ترمى أسوار البلد .

حين تبلج النهار سلح صلاح الدين رجاله وأنشأ سوراً دفاعياً يحمى رماة سهامه الذين أصبح رميهم موصولا كأنه المطر المنهمر ، حتى لم تعد عند اشد الشجعان من رجال المدينة القدرة على أن يطلوا من فوق الأسوار .

وجاء المسلمون الى الخندق واستعملوا ألغامهم واستطاعوا على مدى يومين أن يهدموا خمسة عشر متراً من السور ، فتمكنوا بذلك من فتح نفق لهم وضعوا فيه مادة قابلة للاحتراق ، وأضرموا النيران مما ترتب عليه انهيار السور وسقوطه فى الخندق ، وعجز المسيحيون عن الحفر ضد المسلمين بسبب ما تملكهم من الخوف مما تقذفهم به بطارياتهم ومناجيقهم والنشاب التى لم يعد فى الاستطاعة احتمالها .

(٥٢)

لا يجوز لى أن اغفل عنك عملا من أعمال الرحمة التى قام بها صلاح الدين ، فقد حدث أثناء حصار القدس – حين غادر بلدوين الابلينى المملكة – ان عهد بابنه الصغير المسمى «توماسين» Thomassin الى رعاية اخيه بليان .

كما كان هناك طفل آخر صغير اسمه « جيلمان » Guillemin وهو ابن ريموند صاحب جبيل ، وكان الطفلان فى القدس ، فلما سمع ابواهما ان الصلاح قائم على حصار المدينة بعثا اليه يستعطفانه على الصغيرين وأن يسمح لهما بالمجىء اليهما

حتى لا يقعا فى الأسر ، فلما بلغ هذا الرجاء الصلاح سره أن يفعل شيئا يلبى به رجاءهما ، فأرسل فى الحال الى بليان الحاكم بالقدس أن يبعث اليه « توماسين » ابن أخيه بلدوين و « جويليمن » ابن ريموند ، فأرسلهما بليان اليه فى لحظته ، فلما صار الصغيران عند صلاح الدين أخذهما وأجلسهما على ركبتيه وبكى ، فسأله من حوله من أمرائه عما يبكيه فأخبرهما انه لا يجوز لأحد أن يعجب من تصاريف الدنيا لأن كل شيء فيها عارية تسترد ، ثم قال لهم « وانى لمخبركم بسبب بكائى ، فانى كما أجرد أطفال الآخرين مما يملكون فسوف يجرد غيرى أطفالى بعد موتى مما يملكون هم أيضا ، وحسبى هذا ففيه الكفاية . ولكن أخى « سيف الدين (المعروف بالعادل) الذى سيتولى رعاية أولادى من بعدى سوف يجردهم هو الآخر مما يملكون » (٩٦) .

هذا ما تنبأ به صلاح الدين ، وهذا هو ما فعله أخوه فيما بعد ، كما انه هو ما يقع فعلا فى زمننا هذا .

(٥٣)

لم يدع صلاح الدين وسيلة من وسائل تحقيق رغبته الكبرى فى الاستيلاء على مدينة القدس من الهجوم العنيف ليلا ونهارا الا اتبعها ، مما ترتب عليه حزن المسيحيين الذين بداخلها ، وبلغ الارهاق بهم أشده ، فلما أدركوا عجزهم عن حماية أنفسهم والدفاع عنها راحوا يتشاورون فيما بينهم عما ينبغى عليهم عمله فى هذا الموقف الذى هم فيه ، فذهبوا الى اثنين هما البطرك وبليان الابلينى ، وأخبروهما برغبتهم فى الاغارة تحت جنح الدجى على الجيش الاسلامى ومهاجمته ، ذلك لأن الموت فى ساحة المعركة أشرف عندهم من الوقوع فى الأسر فى يد العدو ملطخين بالعار .

كما ادركوا الى جانب ذلك أن دفاعهم غير ذى جدوى ، وان الاشرف لهم أن يلقوا منيتهم فى البقعة التى لقى فيها المسيح عيسى منيته من اجلهم ، فذلك اشرف لهم من ان يسلموا المدينة الى المسلمين . نأجمع الكل : فرسانا وأشرافا وأولى الأمر فيهم على قبول اقتراحهم هذا ، ولم يخالفهم فيه سوى البطرك الذى قال لهم : « أيها السادة ، ما أحسب هذا الرأى الا رأيا خطيرا بالغ الضرر . لأن هناك اعتبارا آخر فلو كان خلاصنا بتعريض أنفسنا للخطر فليس هذا بالعمل الصحيح ، فانه يوجد ازاء كل واحد فى هذه المدينة خمسون امرأة وطفلا ، فلو متنا أخذ المسلمون النساء والصغار . وربما لم يقتلوهم ولكن يردونهم عن ملتهم وعن ايمانهم بعيسى المسيح ، فيخسرهم الرب على بكرة أبيهم . لكن اذا استطعنا الاتفاق مع صلاح الدين على الخروج جميعاً من المدينة والذهاب الى البلاد التى فى يد النصارى فذلك أجدى عاقبة من القتال ، لما فى ذلك من خلاص النساء والأطفال » .

حين سمع القوم ما قاله البطرك استجابوا له ووافقوه على ما ذهب إليه والتمسوا من بليان الابلينى أن يمضى الى صلاح الدين ليستطيع التوصل معه الى عقد الصلح .

ومضى بليان الابلينى الى السلطان وتحدث معه فى الأمر .

وقام المسلمون بشن غارة على المسيحيين فى نفس اللحظة التى كان بليان يفاوض فيها سلطانهم ، وجاء المسلمون بالسلالم وأسندوها الى أسوار المدينة وتسلقوها ورفعوا عشر رايات او اثنتى عشرة راية فوقها — كما ذهبوا الى النواحى التى حفروها . فلما شاهد صلاح الدين ورجاله الاعلام على أسوار البلد قال لبليان « ما الذى يدعوك للسعى الى أن أسلمكم المدينة والى الصلح وها أنت ذا ترى رجالى وبيارقى تخفق فوقها . . لقد جئت يا بليان

متأخراً بعد أن آل البلد الى يدى وصار فى قبضتى ، كما أن الفقراء والحجاج وغيرهم من المسلمين يلاحقوننى ويحثوننى على الثأر لاخوانهم الذين سبق لجودفرى أن ذبحهم وأهرق دمهم ودماء من صادفهم فى شوارع القدس بل وفى المسجد الأقصى (٩٧) .



على أنه فى أثناء الحديث بين الاثنين أبى الرب الا أن يؤتى المسيحيين نصرا من لدنه ويظلهم برعايته ، اذ سقط المسلمون الذين على الأسوار وهلك من فى المتاريس ، كما تخطف القتل من كان منهم فى الخنادق مما أدى الى احساس صلاح الدين بالعار واستيلاء الحزن عليه فطلب من بليان أن ينصرف فى لحظته هذه اذ لم يعد ثم مجال للتفاوض بينهما ، وأخبره أنه لن يفاوضه فى شىء .

لكن لما طلع صباح الغد جاء بليان للتفاوض مع صلاح الدين الذى أظهر استعداده للانصات لما جاء من أجله فأخبره « أن أهل البلد داخلهم اليأس من الحفاظ على حياتهم ومن ثم فانهم يؤثرون أن يقتل بعضهم بعضاً بدلا من اخذهم قسرا ، وهم أن فعلوا ذلك كانت الخسارة كبيرة فادحة فى الأرواح فى كلا الجانبين قبل أن تتمكن أيها السلطان من اخذ المدينة بالحرب كما تريد » .

(٥٤)

والآن دعنى أحدثك عن بطارية اسلامية أصابت سياجاً خشبياً باحد الابراج فسقط السياج وكان لسقوطه دوى شديد بث الفزع فى قلوب الرجال من كلا الجانبين فصاح رجالهم « النجدة ... النجدة ... » فظن من بالداخل من المسلمين والمسيحيين ان قد هوجموا من أعدائهم .

والآن فانى محدثك بما فعلته نساء القدس .

لقد جئن بأحواض وضعنها أمام جبل الجمجمة ، وملآنها بالماء البارد ، ودلّين فيها أطفالهن حتى الاذقان ، وقطعن جدائل شعورهن وتذفن بها بعيداً .

أما القسس والرهبان والراهبات فقد خرجوا جميعاً حفاة ووصلوا الى تحت الأسوار فى موكب حاملين أمامهم الصليب الطاهر .

أما القسس فقد رفعوا الصليب عاليا كما لو كان جسد المسيح .

الا أن سيدنا لم يتنازل فيستمع الى صلواتهم وابتهالاتهم ، ولا الى صراخهم الذى ملأ أرجاء المدينة وتردد صداه فى كل ناحية منها ، ذلك لأن ما ارتكب من أعمال الزنا ومن الخطايا التى اقترفها الناس حال دون أن تبلغ الرب أصواتهم، فغضب عليهم غضباً حمله على أن يطهر المدينة ، فطهرها منهم حتى لم يبق بها سوى كهلين كانا فى الرمق الأخير من حياتهما .

(٥٥)

والآن دعنا نترك هذه الآثام ونخبرك بما كان من خبر بليان الابليتى الذى ذهب الى صلاح الدين وأخبره أن نصارى القدس يريدون تسليمه المدينة ، لقاء الابقاء على أرواحهم فرد عليه صلاح الدين أن قد فات وقت الحديث فى هذا الأمر ، وقال له « أنى حين اقترحت عليهم ذلك الاقتراح وعرضته عليهم لقاء أن يسلمونى المدينة رفضوا العرض ، وحينذاك أقسمت الا يكون بينى وبينهم تراض وانما يكون استيلائى على البلد بالقوة والحرب والعنف ، وما عليهم الآن الا الخضوع لمشيئتى وطاعتى اطاعة العبد لمولاه ،

ولا سبيل أمامهم غير هذا ، وها انت ذا ترى انك لن تلقى أيـــة مساعدة منى ، ولابد من أن تسقط المدينـــة وما عـــنى أهلهـــا الا الاستسلام .

وعاد بليان يتوسل الى صلاح الدين ويستحلفه بالله أن تأخذه الرحمة بهم ، فرد عليه صلاح الدين قائلا :

« اصغ الى يابليان فسأخبرك بما أنا فاعله وذلك بسبب حبى لله وحبى لك .

« اننى ســأكون رحيمــا بهــم مع عــدم اخـــلالى بقسمى الذى أقسمته .

« عليهم أن يستسلموا لى كما لو كانوا أسرى قد سقطوا فى يدى . ولكنى سوف أترك لهم ما يملكون ، وأدع لهم أموالهم .

« فأما القادرون منهم على افتداء أنفسهم فسوف أطلق سراحهم لقاء فدية مشروطة ومقدرة .

« وأما الذين لا يملكون تحرير أنفسهم أو لا يريدون فديتهـــا فسوف يظلون فى أسرى كما لو كانوا قد أخذوا قهراً » .

حينذاك سأله بليان : « وما قدر هذه الفدية ؟ » .

قال : « ستكـــون الفدية على الرجـــل ثلاثين دينـــاراً . وأمـــا المرأة ففديتها عشرون ، وأما فدية الطفل فخمسة ، فمن عجز عن دفع فديته فقد جرى عليه الرق وصار عبداً » .

فقال بليان : « انه لا يستطيع دفع هذا القدر من الفدية فى مدينة كهذه المدينة سوى نفر قليل هم الأثرياء ، ولو تمكن واحد من الدفع فان أزاءه مائة يعجزون عن افتداء أنفسهم ولو بدينارين فقط ، لأن المدينة غاصة بالملقين الذين لا يملكون شروى نقير والذين وفدوا عليها من النواحى المحيطة بها التماسا للحماية . فلنفتش عن وسيلة أخرى تمكنهم من افتداء أنفسهم » .

فأجابه صلاح الدين انه سوف يفكر فى الأمر ، وطلب اليه الانصراف والعودة اليه فى الغد .

★★★

استأذن بليان فى الرواح ومضى الى المدينة وذهب الى البطرك واستدعى كبار رجالها ، وأفضى اليهم بما جرى بينه وبين السلطان من حديث ، فلما سمعوا ما قاله بلغ الغضب منهم غايته لاسيما حين سمعوا ما يتعلق بالعامة والفقراء من أهل المدينة ، وراحوا يتباحثون الأمر فيما بينهم ، وتذكروا أن هناك قدراً كبيراً من المال لملك انجلترا كان قد جعله وديعة عند الاستبارية ، وان الخير كل الخير فى بذل هذا المال فدية لفك الأسرى من العامة . وكان الملك جى قد أخذ الذى كان موجوداً منه عند الداوية وصرفه فى استئجار الناس الذين استصحبهم معه لكنهم هلكوا جميعاً عن بكرة أبيهم مع الصليب المقدس ، فان هم استطاعوا الآن الحصول على المال الذى عند الاسبتارية لكان ذلك اجدى من المال الذى يتوقعون الحصول عليه من الداوية ، ومن ثم مضى اليهم كل من البطرك وسراة المدينة وأعيانها مع بليان وأخبروهم انهم يريدون أموال ملك انجلترا الموجودة فى خزانتهم لدفع فدية فقراء المدينة ومعدميها .

حينذاك قال كبير الاسبتارية انه سوف يبحث الأمر مع بقيه اخوانه .

★★★

وقال رجال المدينة انه يجب عليهم الحذر مما يسفر عنه الأمر من العواقب ، لأنهم واثقون تماما انه ان لم تبذل هذه فى افتداء الفقراء فلابد من أن يستولى عليها صلاح الدين وحينذاك لن يكونوا قد خدموا الرب ولا النصرانية .

وتشاور رئيس البنادقة مع بقية الاخوان الذين استصوبوا الفكرة ، وقالوا انهم اذا دفعوا المال فانهم يريدون أن يبذل لأفتداء الفقراء (٩٨) . ومن ثم مضى كبير رجال المنظمة الى البطرك والى الذين معه وأخبرهم أن ملك انجلترا يرضيه كل الرضا أن يمدهم بالمال افتداء للفقراء .

وحينذاك سأل الجميع بليان أن يتوجه الى صلاح الدين ويحصل منه على أحسن اتفاق سلمى يمكنه الحصول عليه منه .

دخل بليان على صلاح الدين وحياه فسأله السلطان عما وراءه فقال له أنه طامع في مزيد من رحمته باجابة ملتمسه ، فقال له الصلاح انه سوف يأخذ كل ما فى الدير ولكنه لن يمس شيئاً غير ذلك لأن المدينة وكل ما فيها قد أصبحت ملكاً خالصاً له ، فقال له بليان « استحلفك بالله أن تبذل شروطاً معقولة لفقراء المدينة ، ولن اقصر أنا من جانبى فى أن أسعى ليدفع لك كل شىء ، لانه لا يوجد القادرون على دفع الفدية المطلوبة أكثر من اثنين بين كل مائة من الفقراء » .

فرد عليه الصلاح انه من اجل خاطر الله ومن أجل خاطر بليان ثانياً سيخفض الفدية حتى يقدروا على دفعها .

وتم الاتفاق بين الجانبين على أن يدفـــع كل قـــادر عشر بيزنتيات ، والمرأة القادرة خمسة ، والطفل بيزنتا واحداً ، وان يحملوا معهم فى مغادرتهم كل ما لهم وما يبيعونه ويرهنونه ، ثم يخرجوا آمنين من غير ضرر يلحقهم او اذى يصيبهم .

★★★

حين تم الاتفاق قال بليان للصلاح : « مولاى ... لقد اتفقنا الآن علىما يدفعه كل قادر على الدفع من الفدية المفروضة عليه ، وانى لاستحلفك بالله العليى ان تخفض القدر المطـــلوب منهـــا ، وسأتخذ انا من جانبى كل الخطوات لحمل البطـــرك والداويـــة والاسبتارية وسراة البلد على دفع فدية الفقراء » .

فأجابه صلاح الدين أنه سعيد اذ يخفض القدر وانه سيدعهم يرحلون أن هم دفعوا اليه مائة ألف دينار ، لكن بليان رد عليـــه قائلا : « مولاى ... ان يدفع القادرون الفدية فلن يتبقى مال يمكن جمعه لدفع الذى تطلبه لتحرير الفقراء » فقـــال الصـــلاح انه لن يذهب الى أبعد مما ذهب اليه فى تخفيض مقدار الفدية ، واذ ذاك سأله بليان « وكم من المال يريده فدية لسبعة آلاف رجل» فقال له « خمسون ألف بيزنتة » فقال بليان : « مولاى انـــه قدر لا طاقة لهم بدفعه » .

ثم شرع السلطان وبليان يبحثان الأمر فيما بينهما واتفقـــا أخيراً على دفع الفدية فكانت ثلاثين ألف بيزنتة لسبعة آلاف أسير من الرجـــال ، على أن تعتبر كل امرأتين وعشرة أطفال تحت سن البلوغ رجلا واحداً .

حين فرغ الاثنان من الاتفاق على كل شيء اختار صلاح الدين يوماً تباع فيه أملاكهم وترهن لسداد الفدية ، ثم أمهلهم خمسين يوماً يصبح الناس والبضائع وما يملكون بعدها حقاً خالصاً للسلطان . اما ان هم دفعوا الفدية فسوف يسمح لهم بالخروج من المدينة آمنين سالمين الى حيثما أرادوا من بلاد تكون تابعة للمسيحيين .

كذلك أخبر الصلاح بليـــان أن يطلب الى كـــل المواطنين القادرين على حمل السلاح أن يحمله فى خروجـــه لدفـــع غـــائلة اللصوص وشر قطاع الطرق الذين قد يعرضون لهم حتى يصلوا الى نهاية الطريق وحتى يخرج من هنا آخرهم (٩٩) .

ولما فرع الاثنان من صياغة مقررات اتفاقهم استـــأذن بليان من السلطان فى الذهاب وقال له : « مولاى سوف أذهب الى المدينة اذا وافقت وسوف أعود اليك بمفاتيحها » .

★★★

هكذا عاد بليان الى المدينة وجاء الى البطرك ، فلما جلس الواحد منهما الى الآخر استدعيا الداوية والاسبتارية وكبار رجال المدينة ليستمعا منهم عما اذا كان اتفاق الســـلام الذى جاء به بليان مقبولا أو مرفوضاً ، فكان رد الجماعة عليهما : « ما لنا حيلة الا الموافقة ما دام ليس هناك ما هو احسن مما امكن التوصـــل اليه ، ولما لم يـــكن فى مقـــدورنا عمـــل شيء ما ، فليس لنـــا الا القبول » .

بعد أن شرح بليان لهم كل ما اتفق عليه مع السلطان ناولوه مفاتيح الأبواب ، فلما صارت فى يد السلطان فرح أشد الفرح وشكر الله ونبيه محمداً (ﷺ) ، ثم أرسل طائفة من الفرسان والسرجندية لحراسة برج داود ، وبذلك منع أى مسيحى من المغادرة ما لم يكن قد دفع الفدية .

حينذاك دخل المسلمون المدينة لشراء ما يعرضه المسيحيون للبيع .

(٥٧)

صادف يوم تسلم صلاح الدين القدس يوم جمعة كما صادف فى الوقت ذاته يوم الاحتفال بعيد القديس ليجير Leger الذى هو الثانى من اكتوبر .

ما ان احتل رجال السلطان برج داود وصارت اليهم حراسة أبواب المدينة حتى نودى فيها بوجوب قيام أهلها باحضار مبالغ فديتهم الى البرج حيث عين رجال رسميون لجمعها وكتاب لتدوينها. وما كان للأهالى أن ينتظروا حتى تفرغ الخمسون يوماً والا القى القبض على المتخلفين منهم وصودر كل ما يمتلكون .

وذهب البطرك وبليان الى الاسبتارية ، وتسلما منهم ثلاثين الف بيزنتى من الذهب ومضوا بها الى برج داود لافتداء سبعة آلاف مسيحى ، فلما دفعاها اجتمعا بالبارونات وكبار رجال البلد واختاروا اثنين من أثرى الناس من كل شارع من شوارع المدينة وجعلوهم يقسمون على الآثار المقدسة الا تأخذهم شفقة بأحد ما : رجلا كان أو امرأة ، ولا بغريب أو صديق ، بل يحملونهم هم أيضاً

على القسم على الآثار المقدسة بان الذى قدمه هذا أو ذاك انما هو كل ما يملك ، والا يدعوا احداً : رجلا كان أو امرأة يحتفظ بشيء يحتاج اليه للوصول الى الأراضى التى هى فى حوزة النصارى ، وبذلك يمكن افتداء المزيد من الفقراء ·

وكانت لديهم سجلات بها أسماء فقراء كل شارع فبلغ العدد سبعين ألف نسمة ، فلما فرغوا من ذلك كله خرجوا يحرسون من تم افتداؤه من أهل القدس ·



وتباحث البطرك وبليان ثم استدعيا الداوية والاسبتارية وكبار رجال أهل البلد ، وتوسلا اليهم باسم الرب أن يفعلا ما فيه اسعاف الفقراء المتخلفين بعد فى القدس وما فيه صلاح أمرهم ، فجمعوا لهم بعض المال ، الا أن الداوية والاسبتارية لم يتبرعوا بعد بما كان ينبغى التبرع به خوف مصادرة الصلاح لهذا المال .

واستطاع ثراة القدس افتداء المزيد من الفقراء من الفائض المأخوذ من أمثالهم الذين غادروا المدينة ، وان كنت أنا لا أستطيع أن اذكر كم كان عددهم .



والآن سأقص عليك كيف استطاع صلاح الدين أن يمنع وقوع أى أذى بمسيحيى القدس من جانب المسلمين ، ذلك انه وضع فى

كل شارع فارسين وعشرة من الجند لحراسة البلد فقاموا بالحفاظ عليها خير قيام وعلى اكمل وجه حتى اننى لم اسمع قط بأى مضرة أصابت المسيحيين الذين خرجوا من البلد وعسكروا على مسافة اقل من رمية قوس من معسكر الجيش الاسلامى . وعهد الصلاح الى قواته بحماية المسيحيين ليلا ونهاراً ، فلم يجرؤ أحد أن ينالهم بأذى ، كما سلموا من هجمات اللصوص عليهم .

لكن بقى فى المدينة - بعد الذين غادروها - من لم يسعفهم الخروج لعدم دفعهم الفدية وكانوا لا يقلون عن أربعين الف فقير معدم، وحينذاك قال سيف الدين لأخيه صلاح الدين : (مولاى ... لقد عاونتك فى فتح هذه البلاد والاستيلاء على مدينة القدس ، والآن حان لى أن أسألك أن تعطينى ألف أسير من فقرائها » فسأله أخوه وماذا هو صانع بهم ؟ فقال انه مفتديهم ، فاستجاب له صلاح الدين وأمر ضباطه أن يسلموه الألف أسير الذين طلبهم فدفعوهم اليه فلما صاروا فى يد سيف الدين أطلق سراحهم اكراماً لله .

ثم ذهب البطرك وبليان بعد ذلك الى صلاح الدين يستعطفانه ويستحلفانه بالله أن يهبهما من لم يستطيعوا افتداء أنفسهم ، فاسلمهما الفين آخرين ، كما وهب عشرة آلاف غيرهم الى الداوية والاسبتارية والى ثراة المدينة ، وكان على استعداد للمزيد من هؤلاء لولا حادث أغبر وقع وكان هذا الحادث يتمثل فى أن صلاح الدين أخبر جماعته انه يريد أن يحسن الى الناس كما أحسن أخوه والبطرك وبليان فأمر ضباطه فى القدس بفتح المر الخلفى القريب من سنت لازار ، ووضعوا طائفة من العسكر عند بابه ، ونودى فى فترائها بالسماح لهم بالخروج من هنا ، ثم امر ضباطه القريبين من باب داود أن يراجعوا الخارجين ، فان وجدوا منهم أحداً يستطيع افتداء نفسه ولم يدفع فديته ردوه وحبسوه حتى يوفيها .

ووقف العامة والشباب والنساء الصغيرات فى الساحة الواقعة بين السورين . أما الكهول والعجزة فوضعوهم خارج المدينة واستمر التفتيش من شروق الشمس حتى آذنت بالغروب ، وكان ذلك يتم خارج الممر الخلفى . وكان هذا يداً بيضاء واحسانا من جانب صلاح الدين لفقراء كثيرين لا يحصيهم العد .

لقد كان صلاح الدين على استعداد بالاذن لمزيد من القوم الذين لازالوا متخلفين عن الخروج لو لم يحدث حدث سيء سأقص خبره عليك ، فقد كان من بين هؤلاء الفقراء رجل يحمل على ظهره جرة مشدودة الى عصاة . وكان هناك جماعة من المسلمين الاتقياء المعروفين بالحجاج ممن يعتبرون الخمر رجساً من عمل الشيطان ، وذهب الظن بأحدهم الى ان هذه الجرة مليئة بالخمر فصاح « لن يخرج هذا الخنزير بالخمر التى أمر الله أن تطهر البلد من شاربيها ، فجذب العصا المعلقة الى كتف الرجل (الصليبى) فسقطت الجرة فانكسرت فتساقط ما فيها من نقود فأثار دهشة المسلمين واستغرابهم ، فأخبروا السلطان بان النصارى نازحون بأموالهم ولا يريدون دفع فديتهم .

وقيل ان الرجل حامل الجرة المكسورة كان انجليزيا .

حينذاك أمر صلاح الدين الا يؤذن لأحد بالخروج حتى يدفع فديته .



ثم أحصوا بعد ذلك من لازالوا فى المدينة فاذا هم لا يقلون عن احدى عشرة الف نسمة . فلما عرف البطرك وبليان ان هذا

العدد الضخم سوف يظل فى ربقة الاسر قالا لصلاح الدين « أيها المولى العظيم •• هلا امسكتنا نحن بحق الله حتى ندبر المال لندفعه فدية لأولئك المساكين؟ وتأذن لهم بالخروج ؟» فرد عليهما قائلا انه لا يستطيع القبض على رجلين (يعنى البطرك وبليان) مقابل أحد عشر ألف انسان ، وانه لن يبحث هذا الأمر بعد ذلك .

بذلك أصبح اهل المدينة أسرى فى يد صلاح الدين .

(٥٨)

والآن فانى محدثك بعمل عظيم من أعمال الرحمة التى فعلها صلاح الدين تجاه سيدات القدس ، ذلك ان طائفة كبيرة من نساء وبنات الفرسان الذين لاقوا حتفهم فى ساحة المعركة فررن الى القدس فلما افتدين أنفسهن بالمال وغادرن المدينة جئن الى صلاح الدين يسألنه أن يسبغ عليهن فيىء رحمته ، فاستفسر منهن من هن ؟ وعمن يكن ؟ وما أمرهن ؟ فقلن انهن نسوة وبنات الفرسان الذين هلكوا أو أسروا فى المعركة . فسألهن وما حاجتهن فقلن انه لما كان صلاح الدين قد زج برجالهن وآبائهن فى الحبس فقد ضاعت اراضيهن وانهن جئنه يلتمسن منه بحق الرب أن يكلأهن برحمته ويعينهن فى بلواهن ، فلما رآهن مستخرطات فى البكاء أشفق عليهن وقال انه سوف يطلق سراح رجالهن الذين لازالوا على قيد الحياة فى الاسر . ثم أمر باستقصاء أخبار رجالهن فمن كان لايزال حيا منهم أطلق سراحه ، أما من هلك آباؤهن وازواجهن فى ساحة القتال فقد أمر أن يخرج لهن من ماله الخاص ما يكافىء مكانة الراحل ، فكان المال الذى وصلهن قدراً كبيراً ، وكانت له فى هذا الموضوع يد بيضاء فتوجهن بالشكر للرب على ما أسداه اليهن صلاح الدين من العطف والرحمة والاحسان .

ولما تم خروج جميع المسيحيين من القدس سواء منهم الغنى أو الفقير وتجمعوا أمام الجيش الاسلامى تملك صلاح الدين العجب والدهشة من كثرتهم البالغة .

ثم أخبره رجاله انه يستحيل على مثل هذه الكثرة مغادرة البلد فى يوم واحد فقط .

(٥٩)

لذلك أمر صلاح الدين تقسيمهم الى ثلاث مجموعات ، عهد بالمجموعة الأولى الى الداوية ، وبالثانية الى الاسبتارية ، وبالثالثة الى البطرك وبليان . فلما تم ترتيب خروجهم على هذا النسق أقام خمسين فارساً لحراسة كل مجموعة وضمان سلامتها فى أثناء مضيها الى البلاد التى فى حوزة النصرانية .

★★★

والآن فانى محدثك كيف كانت حراستهم .

لقد كان هناك خمسة وعشرون فارساً للطليعة ومثلهم للمؤخرة .

فأما فرسان الطليعة فكانوا بعد تناولهم طعامهم نهاراً يمضون لأخذ قسط من الراحة وتقديم العلف الى جيادهم ثم يمتطونها بعد تناول العشاء ويمضون وهم فى كامل سلاحهم ويظلون طول ليلهم يقظين لا تغفل لهم عين عن حراسة النازحين حتى لا يتسلل اللصوص الى صفوفهم فى غفلة منهم فيصيبهم منهم الضرر .

وكان أهل المؤخرة اذا رأوا رجلا أو امرأة أو طفلا قد أضر به المشى وانهكه السير فلم يعد يستطيعه أحد منهم أمروا اتباعهم بالنزول عن ظهور جيادهم والترجل ، وكلفوهم أن يحملوا المرهق المتعب حتى يوصلوه الى معسكره .

أما ان كان الضعيف طفلا أردفوه خلفهم أو جعلوه أمامهم فاذا بلغ غايته وتناول عشاءه ، وسدوه الفراش ليأخذ حظه من النوم ، فاذا كان اليوم التالى جعلوا الطليعة مؤخـــرة حتى اذا وصلوا الى ناحية المعسكر عهدوا الى المسيحيين ممن لديهم السلاح أن يحملوا سلاحهم لحراسة هذا المعبر حتى يمر الجميع .

وكانوا اينما حلوا نصبوا خيامهم فيحمل اليهم فلاحو الناحيــة كميـــات وفيره مـــن الطعــــام حتى يستطيع المسيحيون شراء ما هم فى حاجة اليه .

★★★

كان أول الجماعات هى التى عهد بها الى الداوية ثم يتلوها من هم مع الاسبتارية ، ثم يجىء فى النهاية البطرك وبليان الابلينى اللذان كانا يطمعان أن يرققا قلب صلاح الدين بتوسلاتهما ليطلق سراح الذين لا يزالون مقيمين فى المدينة ، لكنه لم يستجب لهما .

(٦٠)

على هذه الصورة كانت حراسة صـــلاح الدين للمسيحيين حتى بلغوا أرض طرابلس .

وبعد ان دخلوا أرض « لى بوى » Le Puy وصاروا في بلاد بترون Botron ونيفين Nephin (١٠٠) تصدى لهم رينالد صاحب البلاد الأخيرة واوقف لهم عسكره يترصدونهم فى احد المعابر آمراً أياهم باعتراض المقادسة وسرقتهم ونهب كل ما يجدون سبيلا الى نهبه ، وبذلك اغتصبوا منهم كل شىء كان فى حوزتهم ــ وان كان قليلا ــ مما تركه لهم صلاح الدين ومما اذن لهم بالاحتفاظ به حين خروجهم .

ترى من ذا الذى يستطيع أن يروى لك خبر ما انهمر من دموعهم ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصف الحزن البالغ الذى نزل بمدينة القدس الطاهرة ؟

لقد صارت هذه المدينة التى كانت تعرف بسيدة المدن ذليلة وأصبحت فى ربقة الأسر !! .

ان المدينة التى كان يحق أن تكون صاحبة السلطان ، وان يكون فى يدها زمام الآمور ويكون لها الأمر والنهى قد صارت اليوم فى محنة .

★★★

اما الذين قدرت لهم النجاة وكتب لهم الخروج سالمين ولم يصبهم أذى من جهة حاشية صاحب «نيفين» فقد مضوا قدماً نحو طرابلس وهم يتوقعون أن يجدوا الترحيب بهم هنا ، الا أن صاحب طرابلس أمر بقفل الأبواب فى وجوههم حتى لا يستطيعوا الدخول ، وزاد فأرسل اتباعه الى منفذ يعرف بمعبر القديس « وليم » فألقوا القبض على كبار وجوههم وسلبوهم ما معهم وعاملوهم معاملة يخجل اللسان عن روايتها .

لقد عامل أهل نيفين وطرابلس المقادسة معاملة أسوأ مما يتوقعون أن يعاملهم بها المسلمون الذين - كما علمت - قد صحبوهم حتى يصلوا الى غايتهم سالمين آمنين معافين فى أنفسهم وأبدانهم ، كما ان هؤلاء المسلمين لم يقصروا فى تزويدهم بالطعام الوفير • على حين نهب النصارى ما معهم ، وحرموهم من الأمن والطمأنينة فلم يعرفوهما ، وكان من جراء هذه الآثام التى ارتكبها النيفيون فى حق هؤلاء المقادسة ان عاقب الرب صاحب نيفين فى حياته بأن أفقده نور عينيه ، ولم يهيىء لذريته السيادة على الناحية ، بل زاد فتعداهم الى جميع من شاركوهم فى هذا العمل الخسيس اذ فقدوا هم أيضا كل ما يملكونه •

ولقد تابع معظم الفقراء مسيرتهم الى أنطاكية والى بلاد رومانيا (١٠١) ، وبقى البعض خارج طرابلس وان انتهى الأمر أخيرا باستطاعتهم البقاء فيها .

★★★

وقد ذهب العسقلانيون والغزاويون وبعض الذين جاؤوا من القدس الى الاسكندرية فتلقاهم واليها لقاء طيبا ، وأحسن معاملتهم وأقامهم فى مواضع أحاطها بالأسلاك لحراستهم كما اقام الحراسة عليهم ليلا ونهارا ، وصانهم بهذه الطريقة طول فصل الشتاء فظلوا مقيمين بالاسكندرية حتى شهر مارس حين ركبوا البحر للسفر الى البلاد المسيحية •

(٦١)

والآن فانى محدثك عما كان يفعله مسلمو الاسكندرية كل يوم •

كان وجوه أهلها وأصحاب السلطة فيها يجيئون الى النصارى بكميات ضخمة من المأكل والمشرب ويصلونهم بالمال ، كما اشترى أثرياء المسيحيين من أموالهم الخاصة بضائع نقلوهـا على ظهور السفن فلما عبروا البحر راحوا يبيعونها ويتاجرون فيها فأصابوا منها ربحا كبيرا ٠



وسأحدثك الآن عن حادث آخر ذلك أنه بينما كان للبيازنة والبنادقة والجنوية وغيرهم ثمان وثلاثون سفينة وكانوا يمضون الشتاء فى ثغر الاسكندرية حتى اذا جاء شهر مارس نشطت الحركة التجارية نشاطاً كبيراً بفضل هؤلاء التجار فيعودون الى سفنهم وحيذاك يذهب ربابنتها الى والى الاسكندرية ويدفعون له الضرائب المستحقة له عليهم ، ويسألونه الاذن لهم بالابحار حين تواتيهم الريح ، فلما كانت هذه المرة قال لهم والى الاسكندرية انه لن يأذن لهم بالسفر والابحار حتى يأخذوا العهد على أنفسهم بحمل هؤلاء الفقراء المساكين ، فرفض الربابنة طلبه لأنهم لم يؤجروا سفنهم وليس لديهم هم أنفسهم من الزاد ما ينقلونه اليهم ويقدمونه لهم ، فقال لهم الوالى وماذا ترون اذن أنكم فاعلون بهم ؟ فأجابوه نتركهم حيث هم الآن . فقال لهم ثانية « وأنى لكم الابحار ؟ ٠٠ هل تريدون ان تتركوا هؤلاء الناس وراءكم ليهلكوا أو ليصيروا عبيداً أرقاء للمسلمين فتفسدون بذلك كتاب الأمان الذى أعطاكم اياه السلطان ؟ ٠ ان هذا الأمر لن يكون أبدا ، بل لابد لكم من أن تأخذوهم معكم ٠ وانى لمخبركم بما سأفعله لحفظ عهد الأمان ٠٠٠ اننى سوف أمدكم بالطعام الوفير والماء الكثير على أن تحملوهم على مراكبكم ، فان لم تقبلوا فلن تبحروا » ٠

حين رأى ربابنة السفن الا خيار لهم لم يجدوا بدا من اخذ هؤلاء الفقراء واستجابوا لطلب الوالى الذى كان رجلا حصيفا وعاقلا

يفيض قلبه وجوانحه بخشية الله رغم انه مسلم . ثم قال الوالى لهؤلاء الربابنة : « تعالوا واقسموا أمامى على اناجيلكم وكتبكم المقدسة انكم سوف تحسنون معاملتهم ، وإنكم سوف تحملونهم الى ميناء من الموانى المسيحية الآمنة . ولما كنت انا قد أرغمتكم على حملهم فانقلوهم كما تنقلون الآثرياء فلا ينالهم منكم شر أو يصيبهم منكم اذى ، واذا علمت أنكم عاملتوهم معاملة تنطوى على السوء والخشونة ألقيت القبض على تجار بلدكم الذين يأتون الى هذا البلد (أى الاسكندرية) » .

على هذه الصورة أمضى المسيحيون الشتاء فى الاسكندرية ثم رحلوا من مصر آمنين سالمين .

(٦٢)

والآن اصغ الى ما فعله صلاح الدين حين حارب القدس فصارت ملك يمينه ، ذلك انه أبى أن يغادرها قبل أن يصلى فى مسجدها ، فأرسل الى شقيقته التى كان رينولد قد ألقى القبض عليها وسألها ان تأتى لتشاركه الصلاة فى الأقصى ، شكراً لله والحمد (ﷺ) على ما أسبغه الله على المسلمين من النعمة اذ أفاء عليهم فضله وأسبغ عليهم نعمته ، فرد المسجد عليهم .

لما علمت أخته بهذه الدعوة جاءت الى القدس ومعها عشرون جملا محملة بماء الورد .

على أنه قبل دخول الصلاح وأخته الى المسجد الأقصى نظفه بنفس الطريقة التى كان المسيحيون ينظفونه بها كنائسهم اذ يقول

المسلمون لا يدخل المسجد - الذى طهره الله - خنزير ولا من يأكل لحمه .

★★★

وتسلق بعض المسلمين المبنى وأنزلوا الصليب المرفوع عليه ونقلوه بعيدا ووضعوه عند باب داود مهللين . ويقول البعض ان الصليب تحطم فى أثناء النقل وتناثر شظايا ، ويقول آخرون بل انهم بعد انزاله من الهيكل نقلوه الى الكرك .

ثم أمر صلاح الدين بتطهير المسجد فطهروه بماء الورد الذى جاؤوا به من دمشق ، فدخله السلطان وصلى شاكراً لله فضله عليه اذ جعله فى حوزته .

بعد أن فرغ صلاح الدين من الصلاة خرج من القدس متجها شطر طبرية ، وبلغ حصنا من حصون الداوية يسمونه « بلفوار » Belvoir فأسلموه اليه ، ثم جاء الى قلعة صفد - وكانت فى يد الداوية - فأسلموها هى الأخرى اليه (١٠٢) .

★★★

بعد أن تسلم صلاح الدين هذه المدن والقلاع الواقعة على ذلك الجانب من نهر الأردن انطلق لحصار الكرك التى كان يتوقع أن يستسلم له حصنها حال وصوله الى هناك ، ولكن كان بالحصن رجال صدقت نواياهم ، فهم يكرهون أن يفعلوا ما يشينهم أو يجلب العار على المسيحية فاستبسلوا فى الدفاع عن أنفسهم وصمدوا طويلا حتى عز عندهم الطعام بل وعدموه حتى أكلوا ما فى الحصن من الكلاب والقطط وغيرها من الحيوانات التى كانت موجودة به .

ثم أمر الصلاح رجاله بالاستمرار فى محاصرة الحصن حتى فى حالة غيابه هو ذاته عنهم لانه أراد الذهاب لحصار « صور » التى كان واثقا تمام الثقة من وقوعها فى يده ٠

كذلك حاصر مونتريال Montreal التي تبعد عن الكرك ستة وثلاثين ميلا والتى تقع في مؤاب Moab فقاسي أهل هذه القلاع وتلك الناحية فداحة وطأة الحصار الذى استحكمت حلقاته عليهم حتى اضطروا الى بيع نسائهم وأطفالهم للمسلمين ليشتروا بثمنهم الخبز الذى يسد رمقهم ٠

اما فى « مونتريال » فقد أصيب الرجال بالعمى نتيجة انعدام الملح ، لكنهم لم يشاؤوا أن يرتكبوا الخطيئة فيسلمون القلعة ، بل ظلوا يتوقعون أن يمدهم الرب – من آن لآخر – بنجدة تكون فيها النجاة لهم مما هم فيه من ضيق وعسرة ٠ وكثيرا ما عرض عليهم صلاح الدين بأن يمدهم بالمال الوفير ، كما ضمن لهم سلامة الخروج الى البلاد المسيحية لكنهم ظلوا رافضين لكل هذه العروض ، ضاربين بها عرض الحائط ٠

★★★

رحل صلاح الدين عن هذه القلاع والحصون بعد أن وكل أمر حصارها الى قوأته فى ثناء غيابه ، ومضى الى دمشق حيث أعد الات الحصار وجهزها بالرجال والعتاد ، فلما فرغ من ذلك تابع سيره فبلغ « صور » ، وبعث الى مصر فى طلب أساطيله ليتم حصاره لصور برا وبحرا ٠

كذلك أمر باحضار والد الماركيز المسجون حتى يشاهد الحصار بنفسه ، ثم جاء بطائفة كبيرة من أهل القدس الذين

كانوا مارين أمام صور وجعلهم يعسكرون الى جانب فئة من عسكره قاصدا من وراء ذلك انه اذا رآهم المركيز والمسيحيون من أهل صور خافوا ، ومن ثم يحملهم هذا الخوف على أن يسلموه المدينة ·

الا ان المركيز كان رجلا حصيفا فلم يتسرب الخوف الى نفسه مما يرى ، ولم يداخله اليأس ·

(٦٣)

أرسل صلاح الدين رسالة الى المركيز يقول له فيها ان عليه أن يذكر كيف تم له الاستيلاء على القدس ، وكيف القى بأبيه فى السجن ، ثم عرض عليه صلاح الدين ـ ان هو أسلمه المدينة ـ أن يطلق سراح أبيه ويغدق عليه من المال ما يجعله يعيش فى ثراء وبلهنية . الا ان المركيز رد عليه أن يفعل بأبيه ما شاء أن يفعل ، وان يبالغ فى انزال المضرة به ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فان ذلك كله لن يحمله ـ بفضل الرب ـ على أن يسلمه مدينة صور بل سيظل مدافعاً عنها معتمداً على الله . فلما سمع السلطان ما قاله المركيز أصدر أمره الى أسطوله بحصار « صور » وان يكون حصارها قريبا من سواحلها حتى لا يتمكن أحد من دخولها أو مغادرتها .

كذلك أمر رجاله بتهيئة البطاريات حتى تكون على استعداد لماتكلف به ، فقام رجاله ببناء أربع عشرة قطعة ما بين بطارية ومنجنيق تعمل ليلا ونهاراً ، على ألا تصيب أهل البلد بسوء ، ولم يكن يمر يوم دون أن يشن المسيحيون على المسلمين هجومين أو ثلاثة ، وكان يقودهم فارس من أسبانيا اتخذ صور محل اقامة له وكان اسمه Sanco Martin « شانجة مارتن » ، وكان كل ما معه من السلاح أخضر اللون .

كان « شانجة » هذا اذا طلع وظهر على الاســوار وبدا للعيان تدافع المسلمون بعضهم فى اثر بعض لمشاهدة ما عليه من الملابس والسلاح الملون بالأخضر ، وكان يحلى خوذته بقرنى وعل فذلك انسب ما يخون نه ..

★★★

أما المركيز فكانت له مراكبه التى تمتاز بما فيها من نوافذ وكوى يجلس اليها رماة النشاب فيرمون منها بسهامهم ، وكانت مراكب المركيز هذه تمتاز بخفتها الشديدة حتى لتستطيع الواحدة منها أن تصبح على مقربة كبيرة من الساحل بل وملاصقة له .

وكان الرماة يكبدون المسلمين خسائر فادحة ولا تستطيـع سـفنهم الاقتراب من هؤلاء الرماة وكانوا يسمون هذه المراكب بال Barbotes .



حـين رآى المركيز نفســه محـاصراً براً وبحـراً امـر باحـدى السفــن — التى كـانت مستعـدة عـلى الـدوام للابحـار بأن تبحـر تحـت جنـح الظـلام الى كونت طرابلس طـالباً منه أن ينجـده بالرجـال والذخيرة مما هـو فى مسيس الحاجة اليه • فلما بلغت الرسالة كونت طرابلس بادر هذا الكونت فأعد عشر شوان وجهزها بالرجـال والعتاد والذخيرة ، وارسلها اليه فى « صور » فابحرت من ساعتها الى هناك ، حتى اذا صارت على بعد أربعة أميال من صور شاء الرب ألا تبلغ هذه الشوانى البلد اذ أرسل ريحاً صرصرا عاتية ، وهبت عاصفة هوجاء أرغمت السفن على العودة الى طرابلس وان لم يصبها أذى أو ضرر ، فلما أدرك الماركيز ان ابواب النجـدة قد انسدت من كل جـانب صلى لله راجيا اياه أن يلهمه الصواب وان يعينه على الوصول الى صور ،

فساعده الرب بما سوف تسمعه اذ حدث فى هذه الأثناء ان كان هناك شاب مسلم كان أبوه أميرا من كبار الأمراء ثم حدث بين الولد والوالد شجار هرب على أثره الابن من الجيش الاسلامى وجاء الى المدينة فتلقاه الماركيز بالسرور وسرعان ما جعله مسيحياً .

★★★

والآن سوف أخبرك بما فعله المركيز ·

ذلك انه ما كاد هذا الشاب الذى تنصر يقيم فى صور بعض الوقت حتى حمله الماركيز على كتابة رسالة الى صلاح الدين تفيض بالتحايا لمولاه ويخبره فيها انه أصبح على علم تام بكل ما يجرى فى الموضع الذى هو فيـه وقال له ان النصارى يعـدون عدتهم للهرب من المدينة ليلتهم هذه فارين بحياتهم ، فان لم يصدقه فما عليه الا أن يمضى الى الميناء وسوف يسمع جلبة مَن ازمعوا الفرار ، وسيصله ضجيجهم وهم يهيئون السفن التى سوف يبحرون عنيها .

ولما فرغ من كتابة هذه الأسطر ربطها احد العسكر من صور فى قوس وقذف بها الى معسكر المسلمين ·

(٦٤)

حين وجد المسلمون السهم المعلقة به هذه الرسالة أخذوه الى صلاح الدين فقرر أن يقرأ عليه ما تضمنته سطورها ، فلما وقف على محتواها أخبر أمراءه بما فيها وأعـدّ احسن رجاله واركبهم البطسات والشوانى ليهاجموا المسيحيين .

أما الماركيز فقد هـيّأ البرج الواقع اسفل البوابة الرئيسية ووضع حامية عنـد السور الرئيسى حتى اذا ما حاول المسلمون الهجوم أمكن صدهم ·

كذلك أمر رجال حاميتـه هذه أن يلزموا الصمت المطلق ويركنوا الى الهدوء التام حتى لا يعرف أحد بما يجرى . ثم أمر باغلاق الأبواب الأمامية والا يؤذن لكائن من كان بمغادرة موقعه ، ومن ثم بقى الجميع فى المدينة طول اليوم ، فلما أقام المركيز رجاله فى البرج وعلى الأسوار بهذه الصورة ذهب هو الى الميناء وأعد البطسات ، وأمر كل قادر على حمل السلاح بالخروج الى الميناء فى ليلتهم هذه فأطاعوه واحـدثوا جلبة عظيمة حتى اذا سمعهـا المسلمون أيقنوا صدق ما جاء فى رسالة الشاب .

★★★

ثم تسلح المسلمون ودخلوا فى سفنهم الكبيرة وأصبحوا على استعداد للهجوم على النصارى ، فلما آذن الفجر بالطلوع اقتربوا من الميناء ووجدوا السلسلة مرفوعة فظنوا ان المسيحيين سوف يخرجون من هذا الباب في هذه الساعة ويفرون .

لقد رتب المركيز كل هذه الترتيبات وجعلها على هذه الصورة لانه كان يبغى أن تدخل السفن الاسلامية ميناء المدينة بعد أن جهزت الأبراج ذات السلاسل بالرجال الذين أدوا عملهم فى هذا اليوم على أحسن صورة ، فلما رآى المسلمون ان السلسلة غير موجودة صدق منهم العزم على اقتحام الميناء ودخوله ، فدخلتـه خمس سفن من سفنهم الضخمة ، فلما شاهد المركيز ما تم من دخول السفن امر بغلق المدخل بالسلاسل وحينذاك أطبق المسيحيون على هذه السفن وهاجموها واستولوا عليها وفتكوا بجميع من وجدوه بها من المسلمين .

ثم سلح المركيز البطسات الاسلامية الخمسة التى استولى عليها بالاضافة الى اثنتين كانوا قد وجدوهما بصور وجهزها جميعها، بالاضافة الى اثنتين كان المسيحيون قد وجدوهما بصور وجهزهـا جميعا بالعديد من الفرسان والرجال المسلحين ، وأبحرت جميعها فى

فجر اليوم التالى فى هدوء وسكون وهاجمت السفن الاسلامية ، فلما رأى أصحابها عجزهم عن مواجهة الغارة المسيحية فروا الى النواحى المجاوره لعسكرهم ، ثم جاء المسلمون راكبو الخيـــل الى الساحل باعداد جمة كثيفة ومضوا ناحية البحر نجدة لاخوانهم الذين على ظهور هذه المراكب مما أدى الى ضياع الكثير من الجند وجيادهم وراحوا ما بين قتيل وغريق ، فلما رأى الباقون أن لم يعد فى قدرتهم تحمل أهوال القتال سحبوا خمساً من شوانيهم الى الساحل وانطلقت اثنتان نحو بيروت ، وقد أنزلتا ـ فيما بعد ـ كثيرا من الضرر بالمسيحيين كما ستعلم خبر ذلك فى حينه (١٠٣) .

(٦٥)

والآن ساقص عليك خبر ما فعله المسلمون براً :

لقد أحضروا سلالم التسلق وانسلوا بواسطتها الى داخـــل الحصن فصاروا بذلك أبعد ما يكونون عن السور الرئيسى ، وهنا حاولوا نصب سلاليمهم لكن الأسوار كانت أعلى من أن تمكنهم من بلوغ ما أرادوه ، فعاودوا الكرة فما استطاعوا أن يلحقوا الأذى بهذه الأسوار . ويرجع ذلك الى شدة مراس المدافعين الموجودين فوقها، فلما تبين لهم عجزهم المطلق عن تسلق الأسوار بعثوا فى طـــلب النقابين وكلفوهم بالحفر أسفلها فأنجزوا ما كلفوا به ، وبلـــغ النقب بهم الصخور المواجهة للمسيحيين فاقتحموا الموضع عليهم ، والتحم رجال من هنا ورجال من هناك ، وأسعف الرب جنده فى هذه اللحظة ، فبعد أن تمت للنصارى الغلبة على خصومهم بحرا جاءهم الخبر ان المسلمين يهاجمون أسوار المدينة ، وانهم اقتحموا التحصينات الأمامية ، فلما ترامى خبر ذلك الى ســـمع المـــركيز كر راجعاً الى المدينة وبلغ بوابتها ففتحها وهجم الجميع منها على المسلمين الذين ما كادوا يرون رجال البلد يشنون الغارة عليهم

حتى لاذوا بأذيال الفرار تاركين وراءهم من قومهم من لا يستطيعون الهروب عبر هذه التحصينات الأمامية ، أما الذين لم يسعفهم الهرب فقد دارت عليهم الدائرة وحقت عليهم الهزيمة ، فانطلق النصارى فى أعقابهم يتعقبونهم وراحوا يطاردونهم حتى افضت بهم المطاردة الى معسكر الجيش الاسلامى .

على هذه الصورة كان انقاذ الرب لمدينة صور .

ولقد نشبت هذه المعركة يوم الفاتح من السنة الجديدة وكان الحصار قد بدأ يوم عيد جميع القديسين واستمر حتى اليوم الأول من يناير سنة ١١٨٨ من تجسد عيسى المسيح (١٠٤) .

(٦٧)

حين صار صلاح الدين أمام قلعة « بوفورت » أدرك عن قناعة انه لن يستطيع الحصول على شىء ما بالقوة ، ومن ثم أجمع رأيه على اصطناع الخديعة والغش المقوت ، فنادى على « رينالد » أن يخرج اليه لمحادثته ووعده بارسال كتاب أمان منه هو ذاته ، فرفض « رينالد » طلب السلطان بحجة أنه لا يصح لأحد أن يطمئن الى أمان رجل كافر ، فكرر الصلاح طلبه عدة مرات ، ثم هدده انه ان لم يصدع لما يطلبه ولم يخرج اليه ثم تمكن من أخذه بالقوة فسوف يحرقه حيا هو وجميع رجاله الذين معه فى الحصن ، نجزع « رينولد » واخذ فى مشاورة رفاقه : ايذهب اليه أم يظل على رفضه ، فنصحه رجاله ألا يستجيب اليه لأنه ان أطاعه ومضى اليه كما يريد أمسكه صلاح الدين واستولى على حصنه ، ولكن رينالد أصم أذنيه عن نصيحة رفاقه ومضى اليه اعتماداً منه على أمان صلاح الدين الشخصى .

على أنه قبل مغادرته الحصن حمل رجاله على أن يقسموا ألا يألو جهدا فى الحفاظ على الحصن حتى يظل فى أيدى المسيحيين ، والا يسلموه أبداً الى المسلمين مهما جد من الأمر ، لذلك ترك الحصن ومضى الى صلاح الدين الذى أظهر النية الحسنة والفرح الشديد بمقدمه عليه .

ما كاد صلاح الدين يرى رينالد حتى أيقن انه بالغ اربته من الاستيلاء على الحصن ، وأمر لرينالد بالهدايا الثمينة والجواهر الغالية ، كما أمر بطاقم ركوب نفيس لجواده وكان رينالد يعرف مقدار اعتزاز المسلمين بمثل هذا الطاقم ، كما زوده بحرس قوى . لكن ساور الشك « رينالد » فى ان الصلاح يرتب أمرا بليل ، فما لبث أن أرسل يستاذنه فى المغادرة ليعود سالما الى حصنه اذ معه كتاب الأمان الذى جاء بمقتضاه ، فما كاد صلاح الدين يعرف ان رينالد قد أدرك ما وراء هذه الدعوة وما دبر حتى أذن له بالانصراف (١٠٥) .

(٦٨)

بعد أن مضى رينالد وأصبح على مقربة من بيروت ومن « بوفورت » جاء الى الصلاح كاتب من بيروت اسمه « بلهيس » Belheis وكان من رجال رينالد وسأله عما حمله على استجابة أمير صيدا حتى يأذن له فى الرجوع من حيث جاء فقال له الصلاح انه انما جاء بكتاب أمان منه هو شخصيا ، وانه لا يحب أن يخون عهدا قطعه بنفسه على نفسه أو ينكث بعهده ، فرد عليه «بلهيس» قائلا انه لو دخل «رينالد » الحصن فلن يتمكن الصلاح أبداً من أخذه وأسره ، ثم أضاف الفارس الى ذلك قوله « انك فى حل من العهد منذ اللحظة التى غادرك فيها « رينالد » . فقال له الصلاح انه لن يأسره تحت أى ظرف من الظروف .

فرد الكاتب عليه قائلا « اسعفنى برجال يطيعوننى ولا يعصون لى امراً ، وسأتولى أنا الذهاب اليه واخذه والقبض عليه ، وبهذه الطريقة لا تكون أنت قد حنثت بيمينك ولا خنت العهد الذى أعطيته اياه » .

حينئذ أمر صلاح الدين بعض رجاله أن يصحبوا الكاتب وأن يطيعوه فى كل ما يشير به عليهم . فأمرهم الكاتب بالاسراع الى القبض على صاحب صيدا ومن معه قبل أن يبلغوا الحصن ، وقال رجال « رينالد » اصاحبهم وهم فى الطريق : « مولانا رينالد : ان جمعاً كبيراً من الرجال فى أثرنا » ، فرد عليهم قائلا « انى واثق من ذلك تماما وانى خدعت وغرر بى ، وما هؤلاء الذين فى أثرى الا قادمون للقبض علىّ ، فأعدوا أسلحتكم وأسرعوا الى الحصن ، وأستحلفكم بحق عهد الولاء الذى قطعتموه لى على أنفسكم الا تتهاونوا فتسلمون الحصن أبداً ، وذلك من أجل نفع المسيحية الا اذا أنا امرتكم بتسليمه رجاء تحريرى واطلاق سراحى » .

ومضى اتباعه الى الحصن ، اما هو فقد قدم المسلمون وامسكوه وعادوا به الى صلاح الدين .

(٦٩)

ايقن صلاح الدين أنه لابد مالك حصن « بوفورت » بعد أن وقع فى يده صاحب صيدا الذى طلب منه الصلاح أن يسلمه الحصن فرد عليه قائلا : « انه يستحيل عليك وأنت المولى الجليل القدر الذى أسبغ الرب عليه آيات العظمة — أن تنقض وعدا وعدت به من اجل مثل هذا الحصن التافه ، لانك حتى الآن لم تنكث قط عهداً ابرمته » فرد عليه السلطان : « اسمع يا رينالد .. أن نبيى محمداً (ﷺ) علمنى ان اخذ عدو الله بعهد الله . اضف الى

ذلك انني أقسمت ألا أترك مدينة ولا قلعة الا أخذتها بأية وسيلة أستطيعها ، ولا أحب لنفسى أن أكون ناكثا فى يمينى » ، فأجابه رينالد « استحلفك بالله اذن يا مولاى أن تأذن لى بالرجوع الى حصنى ، وانى لو رجعت اليه فانى مسلمه لك » ، فقال له : « نفـ ما تريد يا رينالد ، واوف بكلمتك ولابد من أن تسلمنى الحصن والا قتلتك شر قتلة » .

حينذاك أسلم « رينالد » نفسه للرب وقال للصلاح : « ان جسمى فى يدك يمكنك أن تفعل به ما تشاء ، أما روحى فأنها ملك الرب . . . وانت قادر على الجسد تفعل به ما تشاء » .

(٧٠)

غضب صلاح الدين حينذاك على رينالد اذ سمع قوله هذا ، ثم أمر بأن يؤخذ حتى يصير على مقربة من حصنه فيضرب ويعذب تعذيبا وحشيا ، ثم يعلق من قدميه وذراعيه وذلك على مرآى من رجاله الذين بالحصن حتى تنفطر قلوبهم حزنا عليه وتأسى رثاء عليه ، لكن رينالد صاح وهو تحت وطأة التعذيب : « تماسكوا يا رجال ولا يحزنكم أمرى بل حافظوا على الحصن من أجل النصرانية » ، فلما رآى صلاح الدين صبر رينالد على تحمل العذاب واصراره على عدم تسليمه الحصن ضاعف شدته عليه فخاف رينالد أن يهلك فناشد رجاله أن يأخذوه وقال لهم لم أعد يا رجال قادراً على تحمل المزيد مما أكابده وانى لاحلكم من جميع عهودكم التى عاهدتمونى عليها وادعوكم أن تسلموهم الحصن ليطلقوا سراحى . وان أخشى ما أخشاه ـــ ان انتم لم تعملوا على اطلاقى ـــ ان أخسر البدن والروح معاً » .

أخذ رجاله يتشاورون فيما بينهم فيما قاله لهم ، ثم أسلموا الحصن الى صلاح الدين على أن يطلق سراح مولاهم (١٠٦) .

هكذا آل الحصن الى أيدى المسلمين حتى قدم ملك نقـــارة كما سنقص عليك خبر ذلك فيما بعد (١٠٧) ٠

(٧١)

اغتبط صلاح الدين اذ تمكن من أخذ حصن « بوفورت » مما ترتب عليه ضعف مدينة « صور » ضعفا بالغا ٠

بعد أن آل الحصن الى صلاح الدين قال لرينالد « انه بسبب الخيانة التى خانها لقومه (اذ أعطى الحصن لصلاح الدين) فانه سوف يعطيه نصف صيدا وما يتبعها من أرض فتصبح ملكا له لا يجوز لمسلم قط استرجاعها منه ٠

بذلك تملك رينالد صور وظلت فى قبضته بقية أيام حياته ، ثم صارت لولده بليان من بعده حتى عقد فردريك الهدنة مع سلطان مصر الكامل الذى منح بليان النصف الآخر من صيدا لأنه شارك فى عقد الاتفاقية (١٠٨) ٠

★★★

كان بليان هذا صاحب صور ابن « هلفيس » Helvis التى هى ابنة بليان الأبلينى والملكة ماريا ، وكان زواج رينالـــد من هذه الآنسة بعد ضياع هذه الأرض وبعد خلاصـه من أسر صلاح الدين ٠ الذى غادر « بوفورت » ومضى على رأس جيشه الى دمشق ٠

(٧٢)

والآن سأدع الكلام عن « صلاح الدين » جانبا وأخبرك عن أمر « جوشيوس » Joscius بطرك صور الذى ذهب مبعوثا الى

بابا رومة حاملا اليه أتعس الأخبار عن النكبة التى نزلت بارض الميعـــاد (١٠٩) .

استقل « جوشيوس » بطسة ذات اشرعة سوداء صبغوها بهذا اللون القاتم حتى اذا قاربت الرسو عند المكان الذاهبة اليه أدرك من يرونها انها تحمل أخبارا محزنة .

وبلغت هذه السفينة أرض الملك وليم صاحب صقلية وأبوليا وقلهورية وكان هذا متزوجا من « جوانا » Joan قريبة هنرى ملك انجلترا الذى كان قريبا من هناك حين وصل رئيس أساقفة « صور » الذى مضى اليه وأخبره بنبأ القاصمة التى أصابت مملكة القدس ، فلما سمع الملك وليم بالكارثة حزن حزنا شديدا واعتبر نفســه ملوماً بعض اللوم على ما أصاب المملكة من ضياع ، وسأشرح لك الآن سبب هذا الاعتبار .

ذلك انه حين سمع بما جرى من قيام الكسيوس بسمل عينى أخيه وتنصيب نفسه امبراطورا مكانه تشاور [الملك وليم] مع افصاله واتفقوا على ارسال جيش كبير لفتح القسطنطينية (١١٠) وضمها لأملاكه ، ولذلك استأجر أكبر عدد من الرجال ، وجهــز أسطولا ضخما من السفن من شتى الأنواع ، كما أرسل الى بلاد ما وراء البحر والى جميع البلاد التربية حاشداً الكثير من الفرسان والعسكر ، ودفع الى كل واحد من هؤلاء وهؤلاء من الأجر ما يكافىء مكانتــه ووضعه .

كذلك استنفر الحجاج القادمين من البلاد الأخرى ، المارين اذ ذاك عبر مملكته مما جعله لمدة عامين مسيطراً على جميع الطرق.

والمسالك سيطرة أعجزت الناس عن الذهاب الى بلاد ما وراء البحار التي أصابها وهن شديد من جراء عدم الوافدين اليها . ولما دارت الدائرة على «جي» ولقى الهزيمة لم يعد معه سوى طائفة قليلة جدا من الرجال مما اضطره الى أن يسوق للحرب كل من صادفه ، ولذلك لم يلق صلاح الدين أي مقاومة حين جاء الى هذه البلاد والقلاع مما أدى الى استسلامها كلها الا « صور » .

لهذا قال الملك وليم ما قاله من انه يعود باللائمة على نفسه ولا يعفيها من تحمل بعض التبعة في ضياع بيت المقدس .

(٧٣)

والآن سأحدثك عما جرى لأسطول الملك وليم صاحب صقلية ، ثم أقص عليك خبر المساعدة التي أرسلها الى بلاد ما وراء البحر فأقول انه لم يصاحب أسطوله في سفره هذا بل تخلف ليجهز الامدادات ويعد المساعدات الضرورية لذلك وليهيىء أعظم رجال بلاده لارسالهم على رأس قواته مع جعل القيادة العليا في أيديهم ، فلما أصبحت السفن والبطسات على تمام الاستعداد ركبوا متن الماء فأبلغهم الابحار الى « دورازو » فاحتلوها وأقاموا بها جماعة لحفظها ، ثم مضوا منها الى « سالونيكا » ، واحتلوا جميع الأراضي التي بينها وبين « دورازو » ، وأقاموا شحنة بها هي أيضا ، فلما فرغوا من ذلك أبحروا الى القسطنطينية ، فاستولى الأسى الشديد على نفوس اليونان اذ رأوا سعة ما استولى عليه هؤلاء الغزاة ، فجاؤوا الى قادة جيوشهم وأخبروهم أنهم يفعلون

خيراً ان قدموا ، وقالوا لهم انهم هم انفسهم اسعد ما يكونون بوصولهم ، وانهم سيكونون أشد غبطة وأعظم سعادة ان هم أخذوا بثأر الرجل الطيب الذى سملوا عينيه ، والذى انتقم من « أندرونيكوس » الشرير جزاء ما اقترقت يداه من آثام ، واخبروهم انه ينبغى عليهم أن يقوموا بحركة التفاف كبيرة للوصول الى القسطنطينية ، ولكن يجب أن يكون ذهابهم اليها برا ٠

كذلك أعلموهم انهم سوف يصاحبونهم فى ذهابهم سرا ويدلونهم على معالم الطريق ويمدونهم بكميات كبيرة مما يحتاجونه من الطعام والمئونة ٠٠٠ ذلك لأنهم كارهون للامبراطور ولا تنطوى قلوبهم على أى عطف عليه أو حب له .

والتمس اليونان من الغزاة أن يسمحوا لهم بالذهاب معهم ويتركوا الأسطول ، ثم قادوهم الى موضع يبعد عن القسطنطينية مسافة ستة أيام ، وهو موضع قريب من مدينة اسمها « فيليبى » ، فعسكروا هناك فى أحد الأودية ٠

بينما كان اليونان يقودون القوة الغازية برا اعلموهم انه يجب أن يكون معروفاً للجميع أن قواتهم ينبغى أن تكون على استعداد للاشتباك فى القتال قرب « فيليبى » ٠

حينما نودى الى حمل السلاح تجمع الكل عند مطلع فجر اليوم التالى لمهاجمة الغزاة وأصبحوا على أتم اهبة للقتال عير قلة من الرجال فروا الى سفنهم ، وهكذا ضاع هذا الجيش ٠

والآن فانى محدثك عن المساعدة التى قدمها الملك وليم للأراضى الواقعة فيما وراء البحر (١١١) فأقول انه أرسل مائتى سفينة صغيرة ومائتى فارس ، حتى اذا كان شهر أغسطس أرسل ثلاثمائة فارس غير الذين سبق أن بعث بهم ، وكان قصده من ارسالهم ان يكونوا نجدة وحماية لما بقى من الأراضى التى لازالت فى أيدى المسيحيين . كما أعد من ناحية أخرى أسطولا كبيرا من السفن والمراكب الكبيرة عازما على أن يكون هذا الآسطول من ملك انجلترا أخى زوجته ، ولا أقول انه حمل الصليب لأنه ما كاد هذا الأسطول يبحر حتى مات [وليم] دون أن يترك وريثا (١١٢) له . فجاء أهل ابوليا وصقلية وقلهورية الى قريب له اسمه « تانكريد » ونصبوه مكانه ملكا عليهم .

وقد جرت هذه الأحداث فى سنة ١١٨٨ من تجسد عيسى المسيح .

(٧٤)

لندع الآن الكلام جانبا عن تانكريد ونرجؤه الى وقت يكون مناسبا للكلام عنه ، أما فى هذه اللحظة فانى محدثك عما كان من أمر « جوشيوس » رئيس أساقفة صور الذى كان الملك وليم قد زوده بالخيل والمال ليتمكن من الذهاب الى رومة ، فلما وصلها وجد البابا اربان الثالث فى « فرارا » فقص عليه نبأ النكبة الفادحة التى نزلت بالنصارى فى القدس ، وكيف غزاها المسلمون. فلما سمع البابا ما حدثه به « جوشيوس » اعتراه الغم المقيم حتى مات حزناً وكمداً .

وانه لمن الأمور الجديرة بالاعتبار والملاحظة ان الذى جاء بالصليب الطاهر الى القدس كان اسمه « هرقل » ، وأن الذى

أخرجه من القدس شخص آخر يدعى « هرقل » أيضاً ، واذا كانت القدس فتحت زمن ايربان الثانى فقد استولى عليها المسلمون زمن ايربان الثالث .

ثم جاء جريجورى الثامن لكن لم تطل حياته أكثر من شهرين مات بعدهما فخلفه كليمنت الثالث الذى أرسل رسله الى البلاد النصرانية ليذيع خبر حضور « جوشيوس » قادماً من أرض المعاد . كما أرسل الى جميع كبار رجال المسيحية من أباطرة وملوك وكونتات ومراكيز وفرسان وقادة حربيين يخبرهم انه سيأخذ على عاتقه جب خطايا كل من سيساهمون فى حمل الصليب ليحاربوا من أجل استعادة الأرض الموعودة على شرط ان يعترفوا ويتوبوا توبة صادقة عن خطاياهم .

كذلك أذاع على الملأ انه سيمحو الذنوب ويمنح الكفارة لجميع من يريدونها من أجل قيامهم بخدمة الرب ، وسوف يعفى كل ذاهب لخدمة الرب من دفع العشور .

★★★

حين سمع وجوه المسيحية وعظماؤها هذا الخبر هرول كافتهم من أباطرة وملوك وأساقفة ورؤساء أساقفة ، وكذلك عامة الناس الى حمل الصليب ، وكان أول من أقبل جاداً على حمله الملك فردريك امبراطور ألمانيا الذى سافر برا حتى بلغ بلاد الروم كما سنقص عليك خبر ذلك فيما بعد .

وكان للامبراطور فردريك هذا أربعة أبناء أسنّهم يدعى هنرى وهو الذى تزوج من كونستانس عمة الملك وليم .

واما الابن الثانى فهو أوتو ، كـــونت برجنديـــا ، وكـــانت امرأته هى ابنة «ثيبوت» Thibaut كونت بلوا وقد مات عنها دون وريث .

أما ثالث أبنـــاء الامبراطور فردريك فهو « فيليب » راعى كنيسة « بافنبرك » Bavenberk لكنه ترك سلك الكهنوت بعد موت كل من أبيه واخيه واصبح يعرف بدوق سوابيا .

ولقد تزوج فردريك من ابنة اسحق امبراطور القسطنطينية التى كانت من قبل تحت وليم الصغير ملك صقلية فأصطحبها معه الى الأراضى المقدسة ثم مات عنها فى عكا (١١٣) .

لقد بدأ فيليب ملك فرنسا وهنرى ملك انجلترا معركة كبرى فى أسقفية « بورجيس » Bourges قـــرب بلدة تعرف باســـم « ايسودون » Issodun واصـــطفت الجيوش من كلا الجانبين وتأهبت كتائب كل فريق للنزال ، وبينما كان كل منهما على هذه الصورة اذا برسل من كنيسة رومة يأتون فوجدوا العسكر على هذه الصورة التى ذكرناها من التأهب للحرب والقتال فلم يكف هؤلاء الرسل عن دعواتهم الرحيمة وتوسلاتهم الحارة حتى استجاب الروح القدس فأظل برحمته الملكين فتخلى كل منهما عن الحرب ، وشرعا فى المفاوضـــة للوصول الى الســـلام ، وهكذا هدأت حدة الأمور بينهما وخرجا يحملان الصليب .

واحتذى فرســـان هاتين المملكتين وشعباهما حـــذو هذين العاهلين ، فحملوا هم أيضاً الصليب لاسترداد القدس ، الا أن الملكين لم يبادرا للخروج مبادرة الامبراطور (١١٤) .

ولن أحدثك الآن عن الدافع الذى أدى الى اشتعال نار الحرب بين هذين الملكين ولكنى سوف أرجىء ذلك الى وقت آخر وسأسوق بدلا من ذلك ما كان من صلاح الدين الذى استولى على البلاد .

بلغ سمع صلاح الدين نبأ خروج امبراطورا ألمانيا وملك انجلترا وجميع كبار البارونات ، وتيقن حمهم الصليب لقتاله فكان وقع هذا الخبر عليه كريها ، الا انه حصن نفسه فى عكا تحصينا قويا وجهزها بكل ما تحتاجه من آلات الحصار والذخيرة والرجال ، وعهد بالدفاع عنها الى رجال يعتبرون فى الذروة والغارب اذ كانوا موضع ثقته ، ولقد قام بذلك لأنه كان يدرك تمام الادراك انه اذا لم يأخذ حذره تماما فلابد أن يصل الصليبيون الى ميناء عكا ويصبحوا أمامها .

ثم أصدر أمره لمن عهد اليهم بأمر الدفاع عن المدينة الا يهاجموا أى قوم جاؤوا لحصارهم . بل عليهم التزام الهدوء وهم فى داخل المدينة ، فان حاصرهم النصارى ـ أيا كان هؤلاء النصارى ـ أفهموهم أن السلطان سوف يحضر سريعا لمساعدتهم ، حتى لو كان جالساً الى عرشه بل سوف ينهض فى لحظته من أمام مائدته ويمضى اليهم لانقاذهم ، وانه لو جاءه رسول يحمل اليه هذا النبأ فى ليل أو نهار فسيهب سريعاً حتى ولو كان طريح الفراش ، وسوف يتحامل على نفسه حينذاك ويخرج لمساعدتهم .

هكذا كانت عكا على شفا الحرب .



يضاف الى ذلك انه جعل القلاع والحصون والمدن الممتدة على طول الساحل والتى كان هو قد استولى عليها من قبل مستعدة كل الاستعداد ، فلما أيقن انه أحكم الأمور استنفر جيشه وخرج لحصار طرابلس .



فى اللحظة التى كان فيها صلاح الدين قادما لحصار طرابلس كانت بحرية الملك وليم قد وصلت الى « صور » وعلى ظهرها مائتا فارس (١١٥) (وكان ذلك فى مطلع صيف ١١٨٨) .

كذلك كان المركيز قد أعد سفنه المتوسطة الحجم لنجدة طرابلس ، كما أمر فرسان الملك وليم بالخروج هم أيضا ، فلبوا أمره وخرجوا وفى صحبتهم الفارس الأخضر ، فلما وصلوا الى وجهتهم توقفوا لينالوا قسطاً — ولو ضئيلا — من الراحة ، حتى اذا استجمعوا أغاروا على العسكر الاسلامى ، وكانوا هم بقيادة الفارس الأخضر فى هذا الهجوم،فلما رآه المسلمون وعلم صلاح الدين بوصوله بعث اليه برسالة قصيرة يرجوه فيها أن يقدم عليه زائراً وأعطاه الأمان فاستجاب ذلك الفارس الأخضر لما طلبه منه صلاح الدين وأهداه السلطان جواداً ووصله بكثير من الذهب والفضة وبالغ فى الترحيب به ، لكنه لم يفكر قط فى القبض عليه ، بيد أنه أخبره انه سوف يقطعه الاقطاعات الكثيرة ان هو آثر البقاء الى جانبه ، فرد عليه الفارس الأخضر انه لم يحضر ليعيش بين المسلمين ولكن ليبذل قصارى جهده فى سبيل القضاء عليهم . ولما فرغ من قوله هذا استأذنه فى الرواح فاذن له فمضى من ساعته الى طرابلس

★★★

رأى صلاح الدين ما جعله يوقن أنه أعجز من أن ينال من خصمه أو يصيبه بضر نظرا لضخامة القوات التى جاءت لمساعدته ، فرحل من ثم الى احدى المدن المطلة على الساحل واسمها « طرطوس » وحاصرها (١١٦) وذلك فى النصف الأول من يوليو ١١٨٨ م .

بعد أن رحل صلاح الدين كتبت الملكة « سيبيلا » Sibylla زوجة الملك « جى » الذى كان موجودا اذ ذاك فى طرابلس كتابا الى الصلاح تقول له انه ينبغى عليه الالتزام بما اتفق عليه مع زوجها حين أسلمه « جى » عسقلان ، وانه قد حان الوقت لاطلاق سراحه ، فرد عليها الصلاح بأنه يرضيه كل الرضا ان يفعل ما أشارت به ، ثم أرسل كتابا الى دمشق يطلب فيه أن يرسلوا اليه الملك وعشرة من الفرسان الأسرى الذين يختارهم « جى » بنفســـه كما ذكرنا لك من قبل (١١٧) .

كذلك أصدر صلاح الدين أمرا باحضار المركيز وليم وغيره اليه أثناء قيامه بمحاصرة « طرطوس » .

فلما وصلوا اليه حمل الصلاح الملك وجميع البارونات الذين كان قد فك أسارهم وحررهم أن يقسموا اليمين بألا يحملوا بعد يومهم هذا السلاح لقتاله ، ثم أطلق سراحهم وتركهم ريحلون (١١٨) .

ثم عبر الملك البحر على ظهر سفينة متوسطة حتى بلغ جزيرة تقع فى مواجهة « طرطوسة » . ثم طلب المللك « جى » من رسل صلاح الدين الذين صاحبوه أن يكونوا شهودا له عند السلطان أنهم عبروا البحر (١١٩) .

جاء الملك الى طرابلس حيث كانت الملكة موجودة بها فاتسم اللقاء بالفرحة الغامرة .

ثم أمر صلاح الدين بارسال الماركيز وليم الى ابنه الذى كان موجوداً بصور وذهب الى الكرك مصطحباً « همفرى » الذى لا زال فى أسره ، فلما أصبحوا خارج حصن الكرك كلفه صلاح الدين أن

يخاطب حاميته فقال لهم « أيها السادة : اذا كنتم قادرين على الدفاع عن انفسكم وعن الحصن بما يعود بالنفع على المسيحية فثابروا على الدفاع عنه واثبتوا حيث أنتم ، أما اذا أحسستم انكم عاجزون عن الصمود فانى أدعوكم لتسليم الحصن لخلاصى » .

ولما كان أهل الحصن حينذاك فى ضيق شديد فقد اتفقوا فيما بينهم على تسليم الحصن الى صلاح الدين ان هو أعطاهم عهد أمان بالخروج سالمين آمنين هم ونساؤهم وأبناؤهم وما معهم ليذهبوا الى بلاد تكون فى أيدى المسيحيين ، وأن يطلق سراح مولاهم . فلما تسلم الصلاح ردهم سره هذا الرد ووعدهم للمرة الثانية انه سوف يفتدى حريمهم وأبناءهم ومن يجده فى بلاد القدس ، فلما تأكد هذا الاتفاق من الطرفين أسلموه الحصن . واذ ذاك ذهب صلاح الدين الى « مونتريال » .

لما كانت هذه القلاع قد ظلت فى أيـدى المسـلمين عـامين ونصف العام بعد ضياع القدس ولم يعد ثمت بارقة أمل توحى بانقاذ أى واحدة منها فقد أصبح مفهوما انه يجب استسلامها هى الأخرى وتسليمها اليه .

ثم أمر بأخـذ « همفرى » الى أمه ، وأخرج أهل الحصـن محروسين حتى بلغوا أرض أنطاكية (١٢٠) . فلما فرغ من ذلك كر عائدا الى حصار « طرطوسة » ولما تبين له بعد فترة قضاها فى هذا الحصار انه لم يستطع الحصول على شىء ما فقد مضى الى بلدة عـلى بعد خمسـة أميـال منها اسمهـا « فـالانيا » Valania فاستولى عليها وعاث فيها خرابا ولم يرغب فى وضع حامية بها لوجود قلعتها على قمة جبل شاهق الارتفاع (١٢١) .

ثم ذهب الى أنطاكية واستولى على مدينتين بها ووضع فى كل منهما شحنة ، أما احدى هاتين المدينتين فتعرف بجبلة ، وكان استيلاؤه عليها يوم الخامس عشر من يوليو • وأما الثانية فهى « اللاذقية » (١٢٢) [وكان استيلاؤه عليها يوم الحادى والعشرين من الشهر ذاته] • ثم انطلق من هنا حتى صار أمام أنطاكية ، لكنه وجدها شـــديدة التحصين قوية الدفاع ، وحينئـذ تذكر « جون جيل » الذى كان لا يزال مقيما فى المكان المعروف باسم « صخرة وليم » (١٢٣) فيمم وجهه شطره رجاء محاصرته لكنه عجز عن أخذه والاستيلاء عليه ، فعاد من لحظته الى دمشق عساه يأخذ هو وعسكره قسطا من الراحة ويستعيدون نشاطهم •

لكنه ظل مع ذلك غاضبا من الداوية لأخـذهم ابن أخيـه ولمساندتهم « جون جيل » ضده •

(٧٦)

بينما كان صلاح الدين فى مدينة دمشق اذا بخاطر سوء يمر بباله فيحمله على سلوك مسلك ينطوى على الشر ، وأعنى به الفتك بجميع من فى أسره : داوية كانوا أو غير داوية ، ومن ثم أرسل أوامره الى جميع عماله أن يرسلوا كل من فى يدهم من الأسرى ، فخفوا لطاعته مرة أخرى فى الحال ، فلما أصبح هؤلاء الأسرى الذين بعث فى طلبهم فى حضرته قال لهم : « انكم فرسان وأهل حرب وقتال ، ومن ثم فما زال يرتجى منكم كسب كبير ــ وها أنتم ذا ترون أنى فتحت جميع البلاد المسيحية الواقعة فى هذا الجانب من البحر ، كما استوليت على الصليب ، وأسرت مليككم ، وأهلكت بالسيف معظم باروناتكم ، وانى لمشفق عليكم لأنكم فرسان وأهل شجاعة ، ومن ثم فأستطيع أن أجنى فوائد جمة ان أنتم ذهبتم الى بلاد المسلمين ، وأقول لكم انكم ان أطعتمونى وذهبتم الى هناك

كتبتم لأنفسكم الحياة الطيبة فأزوجكم وأقطعكم الاقطاعات واغدق عليكم الذهب والفضة كما أفعل مع خاصة أهلى » .

فلما سمعوا ما قاله سألوه « وما الذى يبغيه منهم من وراء ذلك ويريده منهم ؟ » ، فبين لهم أنه يريـــدهم أن يجبوا دينهـــم والا يؤمنوا بالصليب ولا بملة عيسى المســيح ، وان يعتنقوا دين محمد (ﷺ) ، فردوا جميعهم عليه فى صوت واحد أنهم باذن ربهم لن يهجروا ملة المسيح الذى صلبه اليهود فى أورشليم ، ثم قالوا له « انما نؤثر الهلاك على يدك فى سبيل مَن تحمل المــوت من أجلنا ، وانه لأحب الينا أن نموت على يديك من أجله لأننا نعرف جيداً كَذب ما تدعوننا اليه » .

(٧٧)

عصفت حدة الغضب بصلاح الدين حين سمع ما قالوه له ، وأمر بقتل الداوية عن بكرة أبيهم فى لحظته هذه ، فما فرغ من كلامه حتى بدأ القتل يستحر فيهم ، فعظم الأسى والحزن عليهم . وكانت مذبحة كبيرة وكثر الدم المسفوك . كل ذلك وهو يحسب أنه يخدم الرب وكان الأمر كما قال سيدنا لتلاميذه كما جاء فى الانجيل « ستأتى ســـاعة فيهـــا يظن كل من يقتلكم انه يقـــدم خدمة لله » (١٢٤) .

بعد أن أمر صلاح الدين بما أمر دخل عليه كهل مسلم اســمه « قراقوش » ، ممن رأوا « جودفرى دى بويون » والبارونات الأوائل زمن الفتح وقال له « انك لم تسلك سبيل الرشد بقتلك الداوية ، فهل تراك تظن أنك بما فعلت قد وضعت خاتمة لحربك ؟ » اننى أرى لزاما على أن أخبرك أن الداوية ولدوا أبطالا ، وزيادة على

ذلك دعنى أخبرك أن أحبابهم وأقاربهم لن يسكتوا عن مصارعهم ولن يدعوا دمهم يذهب هباء ، بل سوف يلحون فى طلب الثأر لهم » .

وكان حقا ما قاله الكهل حين جاء « جيمس افسن » لحصار عكا مع سفنه الحربية الضخمة كما ستعلم خبره بعد قليل فى موضعه فى هذا الكتاب » (١٢٥) .

ولقد وصل هذا الخبر البابا كليمنت الثالث فغضب أشد الغضب وأرسل رسله يستعجلون خروج الصليبيين .

(٧٨)

لقد استطاع صلاح الدين ان يحكم فى سنة ١١٨٩ مملكة القدس فى هدوء مدة عامين أو أكثر ، بعد ان تم له فتحها وبعد اطلاق سراح الملك « جى » .

ما كاد خبر المأساة التى لحقت بمملكة بيت المقدس يعم ويعلمه الناس فى البلاد الواقعة فيما وراء البحار حتى بادر « جو فرى اللوزنيانيى » أخو الملك وكان رجلا حكيما شجاعا ـ فركب البحر من ساعته دون أن ينتظر قدوم عاهلى انجلترا وفرنسا ، وأجمع عزمه على بذل كل ما فى قدرته لمساعدة (أخيه) الملك ، وكان يرافقه فى سفره هذا رفيقه فى السلاح « أندرو بريين » Andrew Brienne وكان رجلا شريف المحتد عالى الهمة ، وأسرع الاثنان الى الخروج ومعهما ثلة من الفرسان وسبقوا سواهم ووصلوا الى صور .

كان « جوفرى » هذا قد سمع بخبر أخيه وما حدث لمملكة بيت المقدس ، وعلم أيضا كيف تمكن صلاح الدين من هزيمة الملك

« جى » والقبض عليه ، ثم سمع خبر اطلاق سراحه ، فلما علم بذلك كله أحس بالألم وخرج يلتمس أين يكون أخوه فعلم انه ذهب الى انطاكية .

(٧٩)

حين سمع « جوفرى اللوزنيانى » بما سمع ، وعلم بما علم غادر « صور » ويمم وجهه ناحية طرابلس حيث قوبل أكرم مقابلة ، وفرح به الناس أعظم الفرح واغتبطوا بمجيئه أيما اغتباط . فلما استجم هو ومن معه رافقهم كونت (١٢٦) طرابلس الى أنطاكية ، فلما صار بها وجد أخاه الذى سر به سروراً شديداً .

حين وصل « جوفرى » اللوزنيانى جمع الملك وكبير الداوية وايمرى والكندستابل أخا الملك الفرسان الذين نجوا من الهلاك فكان الذين جمعهم قرابة ستمائة فارس وحينذاك خرجوا قاصدين مملكة بيت المقدس حتى اذا صاروا أمام مدينة « صور » توقع الملك والملكة أن يدخلاها باعتبارها من أملاكهما ، الا أن ماركيز « دى مونتفرات » الذى كان يتولى عبء الدفاع عن البلد ضد صلاح الدين وقت استيلائه على القدس ووقت أسره الملك رفض الاذن لهما بدخول « صور » ، وكان الذى يدفعه الى هذا الموقف هو اعتماده على أن أهل البلد اعتبروه ولى أمرهم منذ أن كان « جى » فى أسر صلاح الدين (١٢٧) .

(٨٠)

حين شاهد الملك وقاحة المركيز وما ألحقه به من الاهانة اذ رفض أن يأذن له بدخول البلد ، وحين أدرك الملك أيضا انه لم تعد

توجد قرية ولا بيت فى كافة أرجاء المملكة يرحب بمقدمه أحس بالحسرة الشديدة تعصر قلبه ، ووجد أن الموت أشهى مذاقا وأشرف من حياة العار فتشاور مع « جوفرى » اللوزنيانى ومع رئيس الداوية وغيرهما من البارونات الذين كانوا معه فقالوا له انه يعرف البلاد أحسن مما يعرفونها هم ، زد على ذلك انه هو الملك وصاحب الأمر والنهى ، أما هم فليسوا سوى أغراب عنها ، ومن ثم فانهم يتركون له الأمر يدبره كيفما شاء وحسبما يريد ، وذكروا له أنهم رهن ارادته وطوع أمره ، وأخبره أخوه « جوفرى » ان امبراطور المانيا وملكى فرنسا وانجلترا وحشدا كثيفا من البارونات قد حملوا الصليب وأنهم فى طريقهم الى هذه البلاد بل انهم على وشك الوصول ، ثم زاد أخوه فقال له : « الأجدى عليك آن يجدك هؤلاء القادمون — حين وصولهم محاصراً احدى المدن بدلا من أن يجدوك ساكنا بطالا » . واذ ذاك سألهم الملك عما اذا كانوا على استعداد للذهاب معه وملازمته أينما مضى فردوا عليه ان له عليهم الطاعة التامة وانهم لا يحيدون عنه انى ذهب ولو كان الموت يتهددهم ، ولا سيما وانهم قد جاؤوا من وراء البحار لا لشىء الا نجدة للأرض المقدسة .

(٨١)

حين سمع الملك « جى » رد هؤلاء السادة العظام غمره السرور اذ أدرك حسن نواياهم تجاهه ، وعرف ان الـرب « لن يضرب المسيحيين بعصاتين » فتشجع وفوض أمره اليه ونصب معسكره على تل صغير خارج عكا (١٢٨) .

لقد كان ايمان أتباع الرب عظيما ، وقد أقبلوا وهم قلة بقلوب لا تعرف الخوف ، ونهضوا بعمل ضخم داخل المدينة ألا وهو فرضهم الحصار على مدينة عكا التى كانت مكتظة بالمسلمين والتى كان بها مسيحى واحد مقابل كل عشرة من المسلمين ، فكأنهم بذلك

وضعوا أنفسهم بين المطرقة والسندان ، اذ لو أراد أهل البلد من المسلمين أن يطبقوا عليهم لاستطــاعوا ذلك فى يسر ولأبادوهم ، ولكانوا كالباشق ينقض على فرخ صغير ٠

(٨٢)

حينذاك أرسل صلاح الدين فى أرجاء مصر والشام وغيرهما من بلاد الكفر يأمر رجاله بالمجىء اليه ليأخذوا بقية المسيحيين الذين نجوا من المعركة والذين اندفعوا فى طيش وشدة لحصــــار عكا ، فلما سمع المسلمون هذا الخبر توافدوا عليه زمرا اثر زمر ملبين أمـره ٠

(٨٣)

حين تم لصلاح الدين ما أراد حشد قومه وجمعهم كلهم على تل صغير يقع على بعد مرحلة من مدينة عكا وأقام هو نفسه هناك أعنى فى الموضع المعروف بتورون صلاح الدين ثم أحدق برجالنــا جموع غفيرة كما أحدقت هذه الجموع بالجماعات التى كانت قد قدمت لحصار عكا ، وكثيرا ما قال المسلمون لصلاح الدين « دعنا نهاجمهم فنأسرهم ولا نعود نصادف أحداً قط يجىء لمضايقتنــا ومحاربتنا » ، فكان يرد عليهم انه فى انتظار أخيه سيف الدين الذى كان قد أرسله قبل ذلك الى خليفة بغداد يدعــوه ان يشاركــه فرصة النصر والاحتفال به ٠ فلما رأى المسيحيون كيف تزدريهم القوات الاسلامية وتسخر منهم دب فى نفوسهم الذعر ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب ، ومن ثم التمسوا من رب الرحمة أن يثبتهم ويثيبهم على ما قاموا به من وضع أنفسهم فى خدمته ليمسحوا العار الذى يحسونه ، وأن يجزيهم لقاء ذلك الجزاء الحسن فيهيىء لهم

« معزيا يمكث معهم » (١٢٩) فيعرف هذا المعزى « آلامنا الجسدية ومتاعبنا الحربية فلا يأذن لأعداء الصليب بالظهور مرة أخرى على المسيحيين ، فتفضل الرب فأعطاهم هذا المعزى وكذلك « روح الحق » ٠

لقد منحهم الرب ذلك المعزى لآن توسلهم اليه كان صادرا من قلوب خاشعة طاهرة ، ونفوس صافية صادقة مخلصة .

(٨٤)

ويجب عليك أن تعرف ان ربنا رب الجلالة — بعد أن جمع صلاح الدين قواته — زار رجالنا فتولاهم برحمته اذ أرسل اليهم رجلا شريفا جليل القدر جاءهم من وراء البحار اسمه « جيمس افيسن » James Avesnes بأسطول مؤلف بما لا يقل عن خمسين (١٣٠) طرادا بحريا كما أنه لا يجوز لأحد ما ان يشك فى أن الرب هو الذى أسعفهم بهذه النجدة وأمدهم بذلك الغوث ، وحينذاك خرج صلاح الدين مع أمير من أمرائه اسمه « قراقوش » Caracois ، فلما شاهد السلطان الطرادات البحرية قد وصلت قال « أقسم بالله ان الفرنجة قد أصابتهم لوثة ومسهم الخبل !! اما ترونهم شيدوا أبراجهم على سطح الماء ؟ » — فقال له قراقوش « بل هذه يا مولاى هى النجدة التى جاءت الى الفرنجة ٠ ولقد سبق لى ان أخبرتك — حين فتكت بالداوية — انهم مذاكير حرب » . فلما سمع صلاح الدين هذا الكلام منه اشتد حنقه واستحر غضبه وعظم حزنه وأصدر أمره الى قراقوش أن يمضى الى مدينة عكا ويستولى عليها نيابة عنه حتى تكون كلمته فيها هى العليا .



لقد وصلت الطرادات أمام عكا يوم دخلها قراقوش وكان ذلك فى الشهر الثالث منذ بدأ « جى » الحصار • ولقد حاول المسلمون جهدهم منع من فى الطرادات الحربية من الرسو وأن يحولوا دون انزال ما بها ، ولكن ربنا ساعد شعبه فتمكن المسيحيون من انزال ما معهم من أمتعة بسلامة ، وتأكد لفرسان عيسى المسيح ان ذلك كله كان برحمة من الرب وعطف منه عليهم •

★★★

لقد عسكر « جيمس افيسن » على البر أمام عكا ، وضاعف الفريزيون والألمان والبريتون الذين جاؤوا بصحبته وحفروا خندقا وأقاموا الأسوار الشائكة والحواجز والستائر التى اتخذوهــا من الصوارى والأرماث ، ثم حاولوا بعد ذلك تحويل النهر الذى يمر عبر المدينة لينتهى الى الرمل حيث يقيمون فيحرمون المسلمين الذين يعيشون داخل البلد مما يشربون مما يجعلهم يكابدون نقصا فى الماء الصالح للشرب ، ولم يكن بعكا من الماء غير هذا الا ما يأتيهم به المطر يقومون بجمعه فى صهاريج خاصة به •



كان صلاح الدين يرى بنفسه تزايد بأس المسيحيين يوما بعد يوم، وحينذاك أمر رجاله أن يضاعفوا من هجومهم على النصارى هجوما يتسم بالضراوة والوحشية دون ان يتركوا لهم لحظة يستردون فيها أنفاسهم ، كما أمر أيضا رجاله الذين كانوا داخــل المدينة بمهاجمة العدو فى عنف لا يعرف الهوادة وفى قســوة لا تعرف الرحمة ، والا يكفوا عن ذلك لحظة ، واعلمهم انهم ان فعلوا ذلك وجد المسيحيون أنفسهم يحاربون فى جبهتين فى آن واحد •

استمر القتال على هذه الصورة وعلى الوضع الذى ذكرناه حتى جاء ملكا فرنسا وانجلترا ، وحينذاك أصبح القتال موصولا غير مقطوع ، ولقد تابع البارونات القادمون من وراء البحار — من أجل هذه الحرب الصليبية ـ رحلتهم هذه بشق النفس ولكن كان لهم نصيب فى الاستيلاء على عكا .

(٨٥)

بينما كان الملك « جى » وبارونات مملكة فرنسا وغيرهم من أهل الممالك الأخرى الذين قدموا للاشتراك فى الحصار واقفين أمام المدينة استعد صلاح الدين بجميع كتائبه لمحاربة رجالنا وضيقوا علينا الخناق ضيقا شديدا أعجزهم تماما حتى عن الحصول على المئونه من أية ناحية مما ترتب عليه نفاذ مالديهم من الطعام ، وضربت المجاعة رجال الجيش فلم يعودوا قادرين على احتمال وطأتها وأهوالها ، وحينذاك أخذ الملك وكبار قادة الجيش فى التشاور وراحوا يتساءلون فيما بينهم عما هم فاعلون ، فأجمعوا العزم على قصد المعسكر الاسلامى وتدميره ، فحشدوا جموعهم واغاروا على قاعدة لصلاح الدين ، وكان على مقدمتهم رئيس الداوية الأخ « جيرار دى ريد فورت » ، وعلى المؤخرة « أندرو دى بريين »

أما الملك وأخوه جوفرى اللوزنيانى فقد قاما بحراسة المعسكر خوفا من غارة قد يشنها المسلمون الذين بالمدينة .

لكن ما كاد صلاح الدين يرى المقاتلين النصارى قادمين حتى أمر عسكره باخلاء المعسكر والانسحاب فدخله العسكر المسيحيون وهم أشد ما يكونون جوعاً فالتهموا ما صادفوه حتى امتلأت بطونهم الخمصى ، وحملوا ما وجدوه من صنوف المتجر ثم انقلبوا عائدين الى حيث كانوا فى نظام حسن .

لكن شاء حظهم العـاثر أن ينطـلق جـواد أحدحجـاجهم فلما حاولوا امسـاكه جمح فاختلت صفوفهم ، واختلط حابلهم بنابلهم وتشرذموا ، وسادتهم الفوضى وانعدم النظام ، فلما شاهد صـلاح الدين وهو فى مكانه ما هم فيه من الفوضى التى ضربت أجرانها عليهم سأل علجا ممن كانوا معه كيف انتهى أمر الفرنجة الى هذه الحال ؟ فرد عليه قائلا : « لقد صاروا هكذا اذ لا قائد لهم ، فان أنت عاجلتهم بالهجوم عليهم فى لحظتك هذه أمكنك الظهـور عليهم ، وكانوا هم ـ وما يملكون ـ غنيمة باردة لك » .

وكان صلاح الدين حين رأى الحجاج [الصليبيين] يتقدمون ويقتحمون معسكره داخله اليأس من صدهم ، ويرجـع ذلك الى أعدادهم الكثيفة الضخمة التى انسالت ضده ، أما الآن فقد أصبح فى موقف الهاجم والحق بأعدائه الهزيمة النكراء ، ولقى الكثيرون منهم مصارعهم على أيدى رجاله ، وسالت دماؤهم غزيرة حتى خالطت مياه النهر .

ولما رأى الملك جى ورئيس الداوية « وأندرو دى بريين » ما حل برفاقهم من الهلاك الشديد على أيدى المسلمين خرج ثلاثتهم على رأس قوة كبيرة ليكونوا نجدة لاخوانهم الذين يعانون الضيق .

(٨٦)

حين عرف المسلمون الموجودون فى عكا أن المعسكر الصليبى خلا من أصحابهم لمغادرتهم اياه اذ صاحبوا الملك فى خروجه لتخليص المسيحيين شد ذلك من عزائم المسلمين وشنوا على معسكر خصمهم غارة شعواء أودعوها كل بطشهم وغضبهم ، وكادوا أن يأخذوا المعسكر كله لولا أن أسعف الرب شعبه بنجدة تمثلت فى « جو فرى » اللوزنيانى الذى استطاع ـ بثلة قليلة من الرجال كان الملك قـد

تركتهم معه ـ ان يستعيد السيطرة على المعسكر ، فكان جوفرى بهذه الكرة الفارس المغوار الذى نجح فى الدفاع عن المعسكر ورد العدو خاسرا ، وأعمل فى رجاله القتل بحد السيف عند باب القديس نيقولا ، فاستحق يومذاك ثناء الجميع عليه لأنه استطاع أن ينجز هو وحده أكثر مما تستطيع انجازه العصبة الأمجاد .

★★★

أما الملك ورئيس الداوية وأندرو فقد استطاعوا بمن معهم من العسكر أن يدافعوا ما وسعهم الدفاع عن العامة الموجودين فى المعسكر ، كما تمكنوا من أن ينقذوهم ، الا أن المسلمين فى أثناء نزولهم من « تورون صلاح الدين » أغاروا غارة وحشية على الملك ومن معه فلم ينج منهم الا فئة قليلة .

أما كبير الداوية وأندرو اللذان كانا فى الطليعة بمن معهما فقد استطاعا أن يجعلا من هذه الطليعة قوة متماسكة حتى مر العامة سالمين .

لكن حدث فى أثناء نزولهم من « تورون » ان هوجموا مهاجمة ضارية أدت الى هلاك كل من كبير الداوية وأندرو اذ لقيا مصرعهما ، فعم الألم الناس وحزن الكل لهلاك هذين البطلين البارزين (١٣١) [وكان ذلك فى شهر أكتوبر من سنة ١١٨٩ م] .

ثم قام الداوية فانتخبوا بعد قليل رجلا كريم المحتد من رجالهم اسمه الأخ « روبرت سابليه » Robert de Sablé وجعلوه رئيسا عليهم .

(٨٧)

بعث صلاح الدين بعد هذه الهزيمة برسالة الى الملك « جى » يتهمه فيها بنقضه العهد الذى عاهده عليه ، كما يتهمه بأنه نكث باتفاقه معه يوم أطلقه من حبسه ، اذ كان « جى » قد اقسم ألا يحمل السلاح ضده ، وألا يحاربه . وأن يعود الى ما وراء البحار ، فرد عليه « جى » انه أوفى بكل ما عاهده عليه ، وانه لم يخل باتفاقه معه ، فقد عبر البحر فى حضرة رجال صلاح الدين وهم شهود على ذلك . وقال أيضا انه ما من أحد يستطيع أن يتهمه بحمله السلاح والا كان ظالما له ، وان كان هو لا ينكر ما قيل من أنه كان على ظهر جواده سيف (١٣٢) ، وانه كان عليه هو نفسه درع ، ولكن كان لابد من ذلك حتى لا تصيب السهام دابته فتؤذيها .

على هذه الصورة أخذ الملك « جى » يبرىء نفسه أمام صلاح الدين بشأن يمينه التى أقسمها له .

(٨٨)

بينما كان حصار عكا مستمراً كان الامبراطور فردريك العظيم يعد ترتيباته ليجىء عبر البر مستصحباً كثيراً من الفرسان وحاملا معه أموالا جمة وثروات تليق بالتاج الامبراطورى ، ومر فى اثناء سيره ببلاد المجر ، ثم دخل بلاد الروم التى بذل امبراطور القسطنطينية كل ما يستطيع بذله وعمل كل ما يمكنه عمله ليمنع فردريك من السير عبر أرضه ، ولما أدرك فردريك ما يقوم به الامبراطور البيزنطى فى هذا الصدد ليمنعه من المرور

ببلاده بعث اليه برسوله « هيرمان » أسقف مينيستر Herman of Munster مع طائفة من رجاله الأمجاد فلما بلغوا القسطنطينية طلبوا من صاحبها أن ييسر لمولاهم الامبراطور السير فى بلاده هو وكافة من معه حتى يتابعوا زحفهم ويتمكنوا من استعادة القدس • الا أن الامبراطور البيزنطى رد عليهم قائلا أنهم لن يمروا عبر أراضيه ولن يسمح لهم باجتيازها ، ثم زاد وجاوز الحد اذ ألقى القبض على رسل فردريك وزج بهم فى الحبس ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب منه لما كانت تنطوى عليه نفوس اليونان من حقد وكراهية لكنيسة رومة وللمسيحيين اللاتين •

غضب الامبراطور « فردريك » غضبا شديدا وأرعف أنفه حين سمع بخبر القبض على رسله وايداعهم الحبس ، ومن ثم أمضى شتاء هذه السنة كله فى بلاد الروم ، وأعلنها حربا ضروسا على امبراطور القسطنطينية حتى لقد استولى على جانب كبير من أرضه ، فلما رأى صاحب بيزنطة أن الامبراطور الألمانى قد احتل جزءا كبيرا من بلاده ، خاف أن يضيع ما تبقى منها فتدبر الأمر مع رجاله وامتهن نفسه ، وحينذاك قام رجال كرام من كلا الجانبين بدعم السلام واتمام الوفاق بين الطرفين ، فتم اطلاق سراح رسل فردريك وهم « هرمان » أسقف مينيستر ومن معه ، واذ ذاك رتب امبراطور القسطنطينية السفن لتنقل عبر نجروبونت Negropont من يريد السفر بحرا • أما الذين يؤثرون السفر بالبر فقد أرفدهم بالمال الوفير وأعانهم عونا كبيرا ، وأسعفهم بالمساعدة حتى يتمكنوا من تخليص القدس (١٣٣) •

كان خروج فردريك فى مايو ١١٨٦ ولكنه لم يستطع أن يدخل آسيا الصغرى الا فى مارس من العام التالى •

حين ترامى الى سمع سلطان قونية (١٣٤) [وهو قلج أرسلان الثانى ١١٥٥ ـ ١١٩٢] عقد الصلح بين الامبراطورين [البيزنطى والألمانى] وأن فردريك سوف يسير بجيشه فى بلاده هو ذاته اضطرب باله كل الاضطراب ، وآلى بينه وبين نفسه ومن معه الا أن يمنع هذا العبور ، فجمع السلطان كل رعاياه واستعدوا للدفاع عن الشعاب وحراسة المسالك والطرق التى لابد للجيش من اجتيازها ، فلما سمع الامبراطور [فردريك] أن قلج أرسلان يريد أن يسد عليه الطرق ويمنعه من مسيرته هذه تخلى عن هذا الطريق واتجه الى طريق آخر اذ تسنى له أن يجد جماعة من الفلاحين يستطيعون أن يدلوه على غير هذا الطريق الذى لم يكن المسلمون يظنون أن سوف يسلكه الألمان ، وكانت المفاجأة الكبرى أن يؤثر فردريك تلك المسالك الوعرة الصخرية ، ذات الجبال الكثيرة رغم بعدها عن الطريق المنشود .

على انه بعد نجاحه فى اجتياز تلك المناطق الصحراوية والأراضى الجرداء أصابه الجوع هو ورجاله فقد انعدم ما لديهم من الزاد ، كما أضناه الظمأ هو وفرسانه ورجاله ، مما أنزل بهم ضررا بليغا ، على أنه بعد نجاحه فى اجتياز تلك الفيافى الجرداء جاء الى سهل فسيح يؤدى به الى قونية حيث توقع أن يجد الطريق أيسر وأسهل ويجدها خالية من العقبات لكن خاب ما توقعه فقد وصل الى أرض سبخة لا يستطيع أحد اجتيازها سيراً على الأقدام ولا على ظهور الجياد ، فلم يجد بدا من أن يأمر رجاله من أن يحلوا رحالهم ويخلعوا عنهم دروعهم ، وينزعوا مجناتهم لينصرفوا الى تعبيد الطرق حتى يتسنى لهم السير فيها ، كما أمرهم بقتل جيادهم ليجعلوا من جثث ما قتلوه منها جسوراً لمن يريد الزحف،فأطاع عسكره أمره،

ومن ثم ساروا عبر هذا المكان الخطر مؤيدين بعون الرب ، وتابعوا زحفهم حتى أصبحوا على مقربة من « قونية » فلما بلغوها خرج لهم سلطانها وتصدى لهم بكل عسكره طمعا منه فى أن يسد فى وجههم المسالك وهم بقيادة الامبراطور فينتهى الأمر بهم الى عجزهم عن التقدم .

كانت القوات الاسلامية قوية وكثيفة وهو أمر لم يفت انتباه فردريك فرتب كتائبه أحسن ترتيب وأعد كتائبه على أكمل وجه ، وعهد بقيادة المؤخرة الى ولده « دوق سوابيا » ، وكان اسمه هو الآخر فردريك وكان رجلا يتسم بالاخلاص والأمانة ، واشتهر بالسمعة الحسنة .

اما الذين استطاعوا النجاة بنسائهم وأتباعهم فقد فَروا الى الامبراطور ، وهكذا احتل قونية عند وصوله اليها (١٣٥) [وكان ذلك فى مايو ١١٩٠] .

(٩٠)

بعد ان دخل الامبراطور فردريك قونية عقد السلطان معه هدنة تعهد بمقتضاها أن يكون رهن اشارته وأن يسلمه رهائن من علية القوم برهانا على محافظته على مقتضيات شروط السلم المعقود بينهما . وأن ييسر له المطعم والمأكل والجياد ، وان يبيعه ذلك كله بثمن معقول فى سوق يقيمها يتوفر فيها كل ما يحتاجه الجيش . كما تعهد أن يصبح هو ذاته رجله وتابعه ، ويتسلم منه قونية .

لما سمع الامبراطور ما قاله السلطان داخله السرور لأنه كان مزمعا الزحف على مملكة بيت المقدس ، ومن ثم قبل عقد اتفاق بينهما يأخذ السلطان بمقتضاه أربعا وعشرين رهينة من أكبر رجاله ، وان يعقد السلطان السوق التى وعده بها .

ثم أقسم السلطان والامبراطور أن يلتزم كل منهما بالاتفاقية التزاما يليق بمن كان فى مكانتهما ، وما كاد الاتفاق يعقد ويؤكده كل من الطرفين حتى رحل الامبراطور من مدينة « قونية » مستصحبا جميع من معه ، ونصب معسكره خارجها ، كما عقد له السلطان السوق المتفق عليها بينهما حتى تتوفر الامدادات التى يحتاجها الرجال والدواب .

وقد جرى هذا كله فى شهر يوليو [من عام ١١٩٠ م] .

(٩١)

واستمع الآن كيف كان سلوك الألمان فى تركيا بعد ان عقد الامبراطور الهدنة مع السلطان وبعد ان تسلم فردريك الرهائن من قلج أرسلان ، فقد سلك الألمان سلوكا ما كان لهم أن يسلكوه حين صارت لهم اليد العليا ، اذ شرعوا فى ارتكاب أعمال تثير حنق مسلمى تركيا وراحوا يستولون على الأطعمة والجياد وغير ذلك مما يصادفونه فى السوق دون أن يدفعوا ثمنا لما نهبوه وما استحوذوا عليه ، وكان اذا طالبهم أحد بثمن ما أخذوه غصباً ثاروا عليه وقتلوه .

ووصل الى سمع السلطان خبر سيرة الألمان السيئة مع رعاياه المسلمين فأرسل رسولا من جهته الى الامبراطور يخبره بواقع الأمر

فألزم فردريك رجاله بدفع ثمن ما اغتصبوه ، فاستجاب له البعض ، أما الغالبية العظمى منهم فلم تستمع اليه ، فلم يجد فردريك بدا حينذاك من أن يدفع هو من جيبه ثمن ما اغتصبوه وعوّض المسلمين عما نهبه رجاله .

ولما أخذت صيحات الغضب تتعالى ضد الألمان الذين أفحشوا فى سلوكهم خاف السلطان أن تزداد الأمور تعقيدا ، ومن ثم أمر رجاله بالاستعداد بخيولهم وأسلحتهم للخروج فى أثر الجيش الألمانى وتعقبه والانتقام منه لما الحقه من الشر وأنزله من المضرة برعيته .



سار الامبراطور فى الطريق المؤدى الى آرمينية ، ومعه الرهائن وعددهم أربع وعشرون رهينة وهم الذين أخذهم من السلطان حسب الاتفاق المبرم بينهما ، لكن لم يعد لهذه الاتفاقية المبرمة بينهما جدوى فقد هاجمه السلطان دون سابق انذار أو مبرر .

كان من الأمور المعتادة عند هؤلاء المسلمين أنهم اذا رأوا صالحهم فى شجب أى اتفاق بادروا الى شجبه دون سابق انذار . وبينما كان الامبراطور فردريك مغذا السير نحو « أرمينية » اذا بالسلطان ينقض الاتفاق وينكث بعهده الذى ارتضاه معه والقاضى بألا يقوم بارتكاب أى عمل يلحق المضرة بالألمان ، فجمع كل جيشه وشجب الاتفاقية التى كان قد أقسم على احترامها . فلم يكن يمر يوم الا ويغير على عسكر الامبراطور فيكبدهم خسائر فادحة ويصيبهم بالضرر البليغ .

ولما رأى الامبراطور أن أعداد المسلمين في تزايد مستمر يوما أثر يوم رتب صفوفه على أكمل وجه استعدادا للقتال العنيف من جانبه ، وقاد هو المؤخرة وعهد بالطليعة الى ابنه ، ونجح الاثنان نجاحاً ملحوظاً فى خطتهما هذه التى أعدّاها ، وصحبهما التوفيق فى حماية رجالهما . على انه كثيرا ما اعترض هؤلاء الشرقيون عسكر الامبراطور وراحوا يناوشونهم حتى يحملوهم على الاشتباك معهم فى القتال ، الا أن الامبراطور جاهد فى منع رجاله من الاقدام على ما يسعى اليه السلطان السلجوقي فأفسد على المسلمين خطتهم فى محاولتهم جرهم للقتال .

لما التزم الامبراطور بهذه الخطة حافظ على مشاته وفرسانه ، مما ساعده على متابعة الزحف فدخل بهم أرض « أرمينية » وان اتسم دخولهم وتميز بالمشقة البالغة ، غير انهم أحسوا بالأمان حين صاروا بها واستشعروا السلامة والطمأنينة .

(٩٢)

حين لاحظ الامبراطور عدم احترام السلطان لعهوده التى قطعها على نفسه ولا للمواثيق المبرمة بينهما ، أنه يعنيه أمر رهائنه فى شىء بل انه ماض قدما فى مهاجمة عسكر الألمان أمر بقتل الرهائن فقتلوا فى أماكن متفرقة ، فكان كلما نزل منزلا قتل بعضاً منهم .

وكان يوجد بالجيش الصليبى شخصية بارزة موقرة تتجسم فى كونت فيرزبيرج Wurzburg وأسقفها وهو رجل مرموق ذائع الصيت تملؤ الحكمة بردته ، هذا الى جانب ما توفر له من الثقافة والمعرفة ، كما كان هناك أيضاً هلفنشتين (١٣٦) Helfnstein واسمه « جودفرى » وكان مستشارا للامبراطور وحامل أختامه ، وكثيرا

ما ألهب هذا الرجل الصالح مشاعر المسيحيين بخطبه التبشيرية الطاهرة وعظاته الدينية ، وكان يدخل الطمأنينة في نفوس الناس اذ يخبرهم أن ما يلاقونه من البلايا انما يلاقونه في سبيل الرب ، وأن فيه محوا لذنوبهم وحجبا لخطاياهم .

(٩٣)

في الوقت الذي وصـــل فيه الامبراطور الى أرمينية كان حاكمها ـ ويدعى ليو ويعرف بصاحب الجبل (١٣٧) ـ قد توج ملكا عليها كما ستعلم نبأ ذلك بعد حين .

حين شاع خبر اقتراب الامبراطور فردريك رحل المسلمون عن قلعة « بغراس » التي كان صلاح الدين قد استولى عليها بعد سقوط مملكة بيت المقدس ، فلما ســـمع « فولك دي بويون » Bouillon قريب ليون ان المسلمين غادروها مضى فاحتل قلعتها وظل مالكا لحصنها ـ عشرين عاما مما ترتب عليه ان شن ليو الحرب على الأمير بوهيموند بعد موت أبيه وأصبح الأمر بأجمعه في يد روبين بن بوهيموند (١٣٨) .

ولقد طالب الداوية بهذا الحصن لأنه كان في أيديهم من قبل ، كما أنهم كانوا قد حاصروه ذات مـــرة بأمـــر من البـــابا انوسنت . على أن ليون اتخذ موقفـــاً من الداوية اذ وافـــق على اعادة الحصن اليهم ان هو أخذ أنطاكية لابن أخيه « روبين » .

هكذا شاءت رحمة الرب أن يبقى الحصن في أيد مسيحية ، ثم أعطاه « ليون » ـ كما سأروي فيما بعد ـ الى الداوية فقد كان في أيديهم من قبل (١٣٩) .

دخل الامبراطور فردريك أرمينية على رأس جيشه فى الصيف حين كانت الشمس على أشدها، والناس قد تملكهم الضجر من شدة القيظ ، ولما دخلها الألمان أصبحوا يشعرون بكثير من الطمأنينة أكثر مما كانوا عليه من قبل ، اذ كان سلطان قونية قد تركهم وعاد الى بلاده . ولقد ضرب الامبراطور معسكره على شاطىء أحد الأنهار فى أرض على مقربة من القلعة المعروفة باسم « سلفكه » Selefke وخرج صاحب ارمينية للترحيب به ، لكنه لم يستطع الوصول اليه بسبب شدة تزاحم رجال الجيش ودفع بعضهم بعضاً من أجل عبور أحد الجسور ، فلما رأى عجزهم عن عبوره أرسل اثنين من اشراف بلده هما الاخوان « كونستانس » كاماريديس وبلدوين كاماريديس Camardeis فجاءا الى قائد قوات المانيا وأخبراه أنهما موفدان من قبل مولاهما ليون وأنه أرسلهما الى الامبراطور ليكونا دليله في زحفه ، ومرشديه الى الطرق في عبور المسالك الموجودة داخل « أرمينية » ، فجاء المارشال بالاخوين الى الامبراطور فانحنيا احتراما واجلالا ، وناولاه رسالة مولاهما « ليون » اليه فرحب الامبراطور بما اشتملت عليه الرسالة ، ثم سألهما ان كانا يعرفان طريقاً يكون قريباً الى الموضع المقيم به الامبراطور فى لحظته هذه بدلا من الطريق المؤدى الى الجسر حتى يستطيع الجيش الألمانى سلوكه دون أن تعترضه أية عقبة ، فأجاباه أى نعم : ان هو خاض النهر لأن فى هذا النهر مخاضة جيدة وليست بالخطيرة فامتطى الامبراطور حينذاك جواده لعبور النهر ورافقه ابنه « فردريك » دوق سوابيا ، ثم قال له الاخوان « كاماريديس » : « سوف نعبر النهر يامولانا قبلك ونريك الطريق التى تعبره عندها فى أمان ، وتكون أنت ومن معك فى أتم سلام » ، فأذن لهما الامبراطور ان يفعلا ما قالا ، ففعلا .

ثم عادا اليه وحيذاك أمرهما أن يعبراه مع ولده فأطاعاه ثم كر ثلاثتهم راجعين ، فأخذ الامبراطور يتأهب لاجتيـــاز النهر هو الآخر ، وكان معه حشد كثيف من الجند يسيرون أمامه وخلفه ، حتى اذا صار فى وسط ماء النهر تعثر جواده من تحته عثرة سقط منها الامبراطور فى الماء فبردت أطرافه من شدة الصقيع وخارت قواه وعجز عن تدارك نفســـه وانقاذها ، وتفتحت عروق بدنه فمات غريقا ، فتفرق رجاله على وجوههم هنا وهناك ولم يستطيعوا عمل شىء ينقذون به مولاهم ويخلصونه من سقوطه ٠

(٩٥)

ان هلاك رجل عظيم كهذا الرجل الذى اخلص النية فى سبيل نجدة أورشليم القدس يعتبر خسارة فادحة ألمت بالمسيحية وتركت بها جرحا عميقا ٠

ترى من ذا الذى يستطيع ان يصور الحزن الذى اعترى من كانوا معه ؟ أو يصف دموع البارونات الذين كانوا فى صحبته ؟

ومن ذا الذى يقدر على ذكر جزع الفرسان وغيرهم من الناس الذين فقـــدوا قائدهم على حين غرة منهـــم وعلى غير توقع من أحد ما ؟ ٠

ولقد صدق فيه ما هو وارد فى كتاب سليمان « لقد رأسوك عليهم وجعلوك قائدهم ، وكنت أنت أيضا واحدا منهم » ٠

لقد كان هذا الامبراطور شديد التواضع مع فرسان النصرانية، حتى انه كان ينعت الفقراء « باخوته » . وعلى هذه الصورة كانت

رقة قلبه ، وسمو روحه ، فلو ان عجلة عربة عطبت فى الطريق وكان هو شاهدها أبَى أن يتابع سيره حتى يصلح العطب .

لقد خسرت النصرانية خسارة فادحة يوم هلاكه (١٤٠) [الذى كان يوم الأحد الخامس من أغسطس سنة ١١٩٠ من تجسد عيسى المسيح] .

ولقد انتشل رفاقه جثته من النهر وأدرجوها فى أكفانها ، وضمخوها بما يليق به كامبراطور ثم نقلوه الى انطاكية ودفن فى مشهد رهيب ، وسجى جثمانه فى كنيسة القديس بطرس الى يمين شرفة المنشدين ، والى جوار قبر « اديمار » (١٤١) الأسقف . وكان الى يساره موضع الحربة التى طعن بها « لونجنس » Langinus سيدنا عيسى المسيح والتى وجدت على جبل الجلجثة .

(٩٦)

والآن فانى مخبرك بالسبب الذى من أجله قدم الامبراطور عن طريق البر ، ذلك انه فى الوقت الذى كان فيه بألمانيا كان يوجد بها عراف تعرف الى فردريك فقربه اليه ، ولما كان هذا الامبراطور رجلا واسع الثقافة فقد كان حريصاً على ان يضم مجلسه كل بارز فى فنه . وكثيراً ما كان يدخل معهم فى مناقشات علمية ، وكان اذا اعجب بأحد ما ضمه الى جانبه وأجزل له الصلة ، وادخله فى خدمته .

وحدث فى يوم من الأيام ان توجه الامبراطور بالسؤال الى هذا العراف يستفسر منه على أى صورة ستكون خاتمته ، فطلب منه العراف أن يمهله بعض الوقت للاجابة على استفساره ، فأذن له

ان يتمهل ما يشاء ، ثم جاءه العراف اخيراً وقال له : « مولاى ، لقد تبين لى انك ستموت فى الماء » . فوعى الامبراطور كلام المتنبىء ولم ينسه أبدا ، فلما شرع فى حمل الصليب والخروج به تذكر هذا الحديث ، ومن ثم آثر ان يتجنب السفر بحراً ، وآثر عليه السفر بــــرا .

ومن أعجب الأمور أنه لم يلق أحد قط — ممن كانوا فى صحبته وممن عبروا النهر — ما لقيه هو من أن يموت غرقاً ، كما لم تزل قدم أحد سواه فيموت غريقاً .

لقد تجنب خطر الهلاك فى البحر ولكن ترصده الموت فى النهر وكانت نهايته فى مياهه .

★★★

لقد استولى الجزع الشديد على صلاح الدين اذ علم بخبر قدوم الامبراطور فسارع مصدراً أوامره بتدمير جميع أسوار اللاذقية وجبلة وجبيل وبيروت وغيرها من المدن الواقعة على طول الساحل [الشامى] حتى لا تكون ملجأ يفيء اليه المسيحيون ويجدون فيه الحماية .

وخاف الصلاح من الامبراطور فعزم على الا يدع مدينة من المدن ولا قلعة من القلاع سليمة، لأنه ان صادف واحدة سليمة احتلها وشحنها بالمقاتلين فتفشل اذ ذاك ريح المسلمين وينالهم الضر والأذى .

من أجل هذا خرب صلاح الدين القلاع والحصون والمدن الواقعة على الساحل .



ظل جيش الامبراطور الضخم بلا قائد ، وتفرقت كتائبه فى نواح مختلفة ، وأصبحت كالقطيع من غير راع يرعاها ويقودها ، وكان ابن فردريك دوق سوابيا قد اشتدت عليه العلة وأنهكه المرض غاية الانهاك حين بلغ سهل « كيليكا » فعجز عن صعود الجبال .

★★★

وهكذا كان المرض الذى ألم به ضربة قاصمة له . كما أن السهل الكيليكى يتسم فى الصيف بشدة الحرارة وتفشى الأمراض على حين تمتاز المناطق الجبلية بالهواء النقى الصحى ولذلك كان أهالى تلك البلاد يتخذون مساكنهم فى الجبال ، وتدفعهم الحرارة الشديدة للاقامة فى تلك النواحى بدءا من شهر يونيو حتى منتصف سبتمبر ، ثم ينزلون السهول والوديان اذ تكون حينئذ أبرد جوا ، ويقل الخطر على صحتهم .

★★★

ولقد تحامل الدوق « فردريك » دوق سوابيا على نفسه ومضى الى انطاكية رغم العلة التى يعانيها والسقم الذى ينهكه ، وصحبه فى هذه الرحلة طائفة كبيرة من الجيش ، فلما بلغوا انطاكية بعد طول المشقة وما تكبدوه من الصعاب وجدوها وفيرة النعمة فانكبوا على الشراب والأكل والراحة ، لكن ضربهم الطاعون وتفشى فيهم الموت فترتب على ذلك أن أخذ عدد الفرسان فى التضاؤل يوما بعد يـــوم .

فأما الذين نجوا من هذا البلاء وقدرت لهم الحياة فقد صحبوا الدوق الى عكا ، لكن ما لبثت يد الردى أن امتدت اليه هو ذاته(١٤٢)

وذلك بعد الاستيلاء على المدينة] وكانت وفاته يوم العشرين من يناير ١١٩١] قبل سقوط عكا • فدفن في خان الألمان •

لم يكن هناك حتى ذلك الوقت بالذات موضع للجماعة الألمانية تتوفر لهم فيه العناية بمرضاهم، اذ لم يكن لهم دار استشفاء ،ويرجع السبب في ذلك الى ما كان يقوله اسبتارية القديس يوحنا من أنهم اختصوا وحدهم ـ دون سواهم ـ بدار استشفاء في مدينة عكا فيعالجون فيها هم ومن يتبعونهم وجرت العادة أنه اذا مات في عكا عظيم من العظماء لا سيما من كانت وفاته في نزل الألمان ذهبوا الى حيث فارقت روحه جسده وأخذوه ودفنوه في مقبرتهم • ومن أجل هذا السبب نرى أن الدوق ـ حين دنت منيته ـ أمر الألمان الا يحيطوه بمظاهر التكريم والتعظيم ، بل عليهم ان يواروا جثمانه في رمس متواضع بين الفقراء لأنهم كانوا يعرفون ان اسبتارية القديس يوحنا سوف يسعون لأخذ جثمانه قسراً ، على حين انه هو يريد أن يدفن في ذلك المدفن المتواضع الذى يؤثره على كل ما سواه من المدافن •

ما كاد الدوق يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى انطلق الاسبتارية يفتشون عن جثمانه أين يكون ، ولكنهم لم يقفوا له على أثر ، ولم يعرفوا انه مدفون بين الفقراء •



لم يكن لجماعة التنظيمات الحربية الألمانية حتى ذلك الوقت نفوذ كبير بالصورة التى هم عليها الآن ، وكان الشعار الذى يصطنعونه ويضعونه على عباءاتهم عبارة عن عجلة عليها نصف صليب أسود ، على حين كانت عباءات الفرسان الاخوان تصنع من القماش الوارد من « ستامفورد » ، ولم يكونوا يجرؤون على ارتداء العباءات البيضاء خوفا من الداوية ، وان كانوا منذ حملة

دمياط (١٤٣) قد أخذوا يرسمون على عباءاتهم البيضاء الصليب ولكنه من غير دائرة .

وكان فرسان القديس يوحنا الاسبتارية يطالبون بان تكون لهم السلطة العليا والاشراف عليهم . حتى اذا مات كبيرهم قام رئيس فرسان القديس يوحنا واخوانه باختيار الرئيس الجديد ليحل محل الراحل ، وكانت منظمة القديس يوحنا تصر على ان يكون هذا الأمر حقا لها على الألمان ، لكن رفض الألمان طلبهم ولم يسمحوا لاية سلطة غير سلطتهم أو تحت أى ظرف من الظروف أن يشرف هؤلاء على انتخاب رئيسهم والمقدم عليهم .

ولايزال النزاع مستمرا حتى الآن بين الجانبين (١٤٤) .

(٩٨)

دفن الألمان الدوق فى جبانتهم وقد انهالت عليهم الأموال بسبب هذا الدفن ، ذلك لأن الدوق الراحل كان حائزا على أعلى الصفات وأجلها رغم ما كان عليه من صغر السن .

ما كاد الناس فى ألمانيا يأتيهم خبر وفاة الامبراطور « فردريك » حتى اختاروا مكانه أسن ولده وهو « هنرى » الذى كان اذ ذاك ملكا على ألمانيا وقام بتتويجه بالتاج الامبراطورى البابا « سلستين » الثالث الجالس على الكرسى البابوى فى رومة .

ولقد تم تتويج هنرى بعد يوم واحد من مسح « سلستين » بالزيت المقدس (١٤٥) [وكان مسحه هذا يوم ١٤ أبريل ١١٩١ وكان تتويج هنرى امبراطورا يوم ١٥ أبريل] .

وكان هنرى قد تزوج « كونستانس » عمة وليم الثانى ملك صقلية ، وكانت هى الوريثة الشرعية لتلك المملكة بعد موت ابن الملك وليـــم الأول أخيهـــا لأنه مات دون أن يكون له ولـــد من صـــلبه (١٤٦) ٠

وقد ولدت « كونستانس » لهنرى صبيا عرف بفردريك وهو الذى أصبح فيما بعد امبراطورا لصقلية وملكا عليها ٠

★★★

والآن هيا بنا نعود الى موضـــوعنا الذى كنا فيه ، فنحدثك **بأخبار فرنسا وانجلترا ، ذلك أن الحرب بين** العاهلين كانت تدور رحاها حول ريتشارد كونت بواتو ٠ وكان للملك هنرى أربعـــة أولاد وثلاث بنات من الملكة « اليانور » **Eleanor** التى كانت من قبل تحت لويس ملك فرنسا ٠

كان أكبر هؤلاء سنـــا يدعى « هـــنرى » وهـــو الذى تزوج **اخت « فيليب » ملك فرنسا التى كانت أمها (١٤٧)** تعرف بملكة أســبانيا ٠

أما الابن الثانى فيدعى « ريتشــــارد » الذى كانت كونتية « بواتييه » تابعة له ٠

وأما الثالث فاسمه « جوفرى » **Geoffrey** ويعرف بكونت **بريتانى ٠**

وأما الرابع فيدعى « جون » لاكلاند **Lackland**

أما عن بناته الثلاثـــة فقد زوج أحداهن لألفونســـو ملـــك قشتالة ، فولدت له الملكة « بلانش » (١٤٨) **Blanche**

وأما الثانية واسمها « ماتيلدا » (١٤٩) ، Matilda · فقد تزوجت من دوق سكسونيا واسمه « هنرى » ويعرف بالأسد ، وهو المتوفى سنة ١١٩٥ ·

وأما الثالثة واسمها « جوانه أو حنه » (١٥٠) Joana فقد اقترنت بوليم الثانى ملك صقلية . والمعروف أن « جوانة » هذه هى التى صارت فيما بعد ملكة انجلترا وقد أنجبت أطفالها من أخيه « جوفرى » ·

(٩٩)

بعد موت هنرى ابن الملك هنرى الذى دبر أمر اغتيال القديس « توماس » فمات شهيدا (١٥١) أراد الملك تتويج « جون » أصغر أبنائه ليكون هو الملك ، فاغضب هذا الخبر ريتشارد أشد الغضب حين سماعه اياه وذهب الى الملك فيليب وقال له « مولاى : أعلمك أن أبى يريد أن يحرمنى حقى فيرتكب خطأ جسيما اذ يضع التاج على رأس أخى الذى يصغرنى سنا وأنا ــ كما تعلم ــ يامولاى تابع لك وفصلك · Vassal فأستحلفك بالرب أن تكون عونا لى فى الحصول على حقوقى » ·

فوعده الملك فيليب ان يمد له يد المعونة والمساعدة وسرعان ما جمع جيشه واقتحم به البلاد التابعة للملك هنرى وهى البلاد الواقعة على الجانب الآخر من القنال [يقصد بحر المانش] واستولى على « ليمان » Le mans و « تور » و « شينون » Chinon وسلمها كلها الى ريتشارد · فلما سمع الملك هنرى ان الملك فيليب قد استولى على البلاد التابعة له فى فرنسا حشد عسكره وعبر القنال ووصل الى حيث كان الملك فيليب موجودا ، وكاد القتال (١٥٢) أن

ينشب بين الجميع حين قدم رسل من البابا تحمل الى الطرفين خبر ضياع بيت المقدس .

لم تكن القوة التى تحت يد الملك هنرى تعادل القوة التى عند الملك فيليب ، ومن ثم ترك لملك فرنسا « أوفيرن » **Auvergne** وأمر ألا يتوج ابنا جون . ثم زحف الى انجلترا لكنه ما لبث أن مات(١٥٣) حزنا على ضياع أرض مثل « أوفيرن » التى تعتبر من أثرى الممالك .

حينذاك وفد ريتشارد على ملك فرنسا وأعلن تبعيته له فى جميع الأراضى التى يملكها والواقعة فى هذا الجانب من البحر ، ثم أقسم ان يتزوج (١٥٤) أخته بعد أن يتم تتويجه ملكا فى مدينة « لندن » .

(١٠٠)

فارق كل من ريتشارد وفيليب الآخر وهما على وفاق تام ؛ وحددا يوماً معيناً يخرجان فيه لانقاذ مملكة بيت المقدس ، ورأى فيليب أن يكون ذلك يوم عيد القديس « جون » القادم ، [أى الرابع والعشرين من يونيو من عام ١١٩٠ من تجسد عيسى المسيح] ، ومضى ريتشارد الى انجلترا حيث توج (١٥٥) .

حين تم لريتشارد أخذ مملكته وأصبح المتصرف فيها راح يتجهز للخروج للحرب الصليبية ، فلما فرغ من هذه التجهيزات والاستعدادات قدم على ملك فرنسا « فيليب » ورفع اليه التماسا يقول له فيه : « انه حتم علىّ يا مولاى ان أخبرك أننى فتى صغير السن ، وقد توجت منذ قريب ، وانك لتعرف أننى ماض مثلما أنت

ماض الى ما وراء البحار ، وانى التمس منك أن تؤجل زواجى حتى أعود من السفر ، وسأكون ملتزما لك بالعهد الذى عاهدتك عليه الا وهو أن أتزوج أختك بعد أربعين يوما من رجوعى » .

لم يجد الملك « فيليب » بدا من استجابة مطلب « ريتشارد » موافقته على طلبه من غير غضب ، ورضى أن يؤجل الزواج الى ما بعد رجوعه كما قال .

ولما فرغ الملكان مما بأيديهما استعدا للرحيل .

(١٠١)

أعد « فيليب » أسطوله فى جنوة بينما أعد ملك انجلترا سفنه فى مرسيليا .

ولما كان يوم الاحتفال بعيد القديس « يوحنا » مضى الملك الى « سنت دنيس » ليبارك خروجه ، وأقسم كل من فيليب وريتشارد للآخر أن يكون كل واحد منهما لصاحبه صادق النية صافيها ، **لا تشوب نفسه شائبة ضد رفيقه ، ثم انطلق فيليب** الى « جنوة » . ويمم ريتشارد وجهه شطر مرسيليا .

وكان فى صحبة الملك فيليب رعيل كبير من كبار رجال فرنسا من بينهم فيليب كونت فلاندرز ، « وهنرى » كونت شامبين ، « وثيبوت » كونت بلوا ، وستيفن كونت « سانسير » ، وهيج دوق « **برجنديا** » . **كما رافقه فيليب** اسقف بوفيه ووليم اسقف باريس Barres ، الى جانب طائفة من الفرسان وجماعة كبيرة من السادة العظام .

وكان للملك فيليب والملكة «ايزابلا» ـــ ابنة كونت «هيولت» ـــ ولد (١٥٦) اسمه « لويس » [وهو الذى صار ملك فرنسا فيما بعد وعرف بلويس الثامن] وكان أبوه قد تركه فى فرنسا لرعاية شئون مملكته مع خاله وليم أسقف ريمز Reims وكذلك رينالـــد كونت « بونتيو » Ponthiew .

★★★

لما صار الملك فيليب فى جنوة أمر أن توسق سفنه ومراكبه ، أما ريتشارد فقد أوسق سفنه هو الآخر ولكن فى مرسيليا ، وأبحر ملك فرنســـا من جنوة فى جو عاصف منذر بالســـوء واتجه الى « مسينا » ، وقد كابدت تموريناته وسفنه كثيرا من المشقة بسبب العواصف التى صادفته ، فلما سمع الملك « تانكريد » بوصول ملك فرنسا الى بلاده مضى اليه مرحبا به أعظم الترحيب ، واستقبله بما يليق به كملك لفرنسا ، ووضع مملكته صقلية رهن اشارته ، والتمس منه ان يمضى الشتاء فى مملكته .

ولما رآى ملك فرنسا « فيليب » بوار ما معه من الســـفن والتجهيزات . ورآى ما تنطوى عليه نصيحة تانكريد من الحـــكمة والصواب استجاب له وأمضى الشتاء فى صقلية .

أما الملك « ريتشارد » فقد أبحر من مرسيليا وظل مبحرا حتى صار قريبا من جزيرة صقلية فعزم على أن يمضى منها الى أخته الملكة « جوانه » Joan لرؤيتها وكانت زوجة الملك وليم ، وليعلم ماذا كان من أمر ملك فرنسا ، وهل تراه وصل الى هنا ، لكنه ما كاد يصبح قريباً من البر حتى جاءه خبر حمله على أن يعود من حيث اتى ، فقد انبؤوه انه سبقه فى الوصول وانـــه مقيم فى مدينـــة « بالرمو » كبرى مدن مملكة صقلية والتى تعد واحدة من أغنى مدن

الدنيا وأكثر البقاع ازدهارا ورفاهية ، حتى لقد جرت العادة أن يتوج فيها ملك صقلية .

كذلك علم أن ملك فرنسا قد حل ببالرمو ونزلها ضيفا فأخلاها له الملك « تنكريد » توقيرا لعظمته واجلالا له (١٥٧) .

(١٠٢)

تملكت الغبطة نفس « ريتشارد » ملك انجلترا اذ علم أن ملك فرنسا مقيم فى « بالرمو » ، وأصدر أمره الى رجاله ان ينطلقوا بسفنهم فيكون رسوهم على مقربة من حيث يقيم الملك حتى يستطيع قضاء الشتاء معه . واستجاب له من معه فبادروا بانزال الفرسان وخيولهم وما يحتاجونه من المعدات ، فلما علم ملك فرنسا بوصول ملك انجلترا خف للقائه ، وسر كل منهما بالآخر سرورا طاغيا ، فقد كان الصفاء متبادلا بين الملكين طوال الرحلة ، فكان كل منهما لصاحبه نعم الرفيق : وفاء وصدق طوية .

ولست أدرى ما الذى جعل كلا منهما ــ بعد ذلك ــ يحارب الآخر ، ولكن الواقع هو انه وقع بينهما شر مستطير ، ونزاع احتدم لظاه وأنذر بالشر .

لقد كانا قبل وصـــولهما الى أرض المعاد أوفى صديقين . لا يخاطب الواحد منهما الآخر أو يناديه ألا بقوله « مولاى » ، ولو قدر لهذا الحب الكبير والود المتبادل بينهما ان يستمر لكان ذلك خيرا للمسيحية ولعظم شأنها .

وستجد فيما بعد الخبر عن النزاع بين الملكين (١٥٨) .



بعد ان تبادل ملكا فرنسا وانجلترا التحايا جاء تانكريد ملك صقلية الى ريتشارد ورحب به ودعاه للذهاب للاقامة فى القصر الموجود فى بالرمو حيث يقيم ملك فرنسا ٠

كان القصر عظيم الاتساع ، رحبا ، رائعا كل الروعة . يسع العاهلين معا فى يسر ، ولما علم ملك انجلترا بنزول ملك فرنسا فى القصر الملكى قدم جزيل الشكر للملك تنكريد ، وقال انه لا يحب أن يثقل على ملك فرنسا ويتطفل عليه ، ومن ثم فانه سيقيم فى موضع آخر ٠ وكان فيليب مقيما فى القصر كما ذكرنا ٠ وأما ملك انجلترا فقد اتخذ مقامه فى الجانب الآخر . واذ كان « ريتشارد » يعلم ان الفرنسيين شديدو الكبرياء ، وان الانجليز سريعو الغضب فقد اتخذ مسكنه فى ناحية بعيدة عن ملك فرنسا حتى لا يحدث أى نزاع أو يشب عراك بين الجانبين ٠

★★★

وبعد ان نصب كل واحد منهما معسكره سمع الانجليز ما يقوله العامة ويتردد على الألسنة من أن شجاراً حاداً اضطرمت نيرانه بين الطرفين حتى بلغ مبلغ القتال . وكان للملك حصن تم تشييده على عجل وسماه « بميت جريفون Mate Griffon » ، وكان يسعى من وراء اقامته أن يكون ملجأ وملاذا ان دعت الحاجة الى التماس موضع يحتمى به أن ثار عليه الأهالى وحملوا السلاح ضده ٠ فلما رأى الملك « تانكريد » انه قد تم بناء الحصن أقام به تحت رحمة ريتشارد وجيء بالذين أساؤوا الى الملك ليرى رأيه فيهم حتى لا تزداد الأمور سوءا ٠

وتلقاه الملك بالترحاب وتصافى الجانبان وساد الوفاق ، واستتب السلام ورفرف الهدوء ، وظلوا جميعا مقيمين حيث هم حتى دخل شهر مارس ٠

ذهب الملك ريتشارد لرؤية اخته الملكة « جوانه » التى فرحت أشد الفرح برؤية أخيها ·

وكان الحصار المفروض على مدينة عكا مستمرا منذ عام ، وكان كل من كونت هنرى وكونت « ثيبوت » وستيفن كونت « سانسير »، وفيليب وأسقف « بوفيه » قد عبروا البحر الى عكا قبل وصول الملكين [فى صيف ١١٩٠] ، كما كانوا قد جلبوا معهم بعض تجهيزات أعدها ملك فرنسا وبعض ما يخصه من آلات الحصار، وكانت القيادة لكونت هنرى (١٥٩) فأخذ مواد التموين ونصب آلات الحصار الحربية أمام مدينة عكا وراح يرمى أسوارها ، وكان ذلك كله قبل وصول الملك الفرنسى ·

ولقد عمت المجاعة الجيش حتى بلغ المد الواحد من القمح خمسين بيزنتا ، والدجاجة الصغيرة ستين سوسة ، وعدم الناس لحم البقر والضان ، وبيعت البيضة الواحدة باثنتى عشرة دنية ، وصارت لحوم الخيل والبغال والحمير أشهى اللحوم التى يتناولها العسكر · وبلغت الشدة غايتها حتى كان الفقراء اذا وجدوا حيوانا نافقا اقبلوا على تناول لحمه بشهية كبيرة ·

وحدث بعد حضور كونت « شامبين » أن أخذ العسكر والضباط يتهامسون ضد البارونات وضد الرجال الكبار ممن كانوا قائمين بالحصار بسبب النقص البين فى كل شىء ، وراحوا يسلقونهم بألسنة حداد ويقولون فيهم كلاما مهينا فيه الازدراء بهم بسبب عدم تحركهم لمحاربة صلاح الدين وقتاله ، فيحتج أشراف القوم بانهم لن يخرجوا لقتاله طالما ظلت عكا فى يد المسلمين ·

وبلغت الأمور داخل الجيش حتى انه ما من فارس كان يجرؤ على النزول الى ساحة القتال ألا ويسمع قارص الكلام والسخرية به لقعوده عن الحرب ويتهم بالجبن .

أما العسكر فقد سلكوا مسلكا كله العنجهية والتعالى على الفرسان اذ عدوا أنفسهم أعلى من هؤلاء مكانة ، وتخيلوا أنهم هم وحدهم القادرون على الخروج لمحاربة صلاح الدين من غير الاستعانة بالفرسان ، وكثيرا ما طالب كبارهم من الملك ومن البارونات ان يسعفوهم بالدواب للهجوم على العدو ، فلما أدرك البارونات أنهم لن يستطيعوا أن يثنوهم عما يلحون بالمطالبة به قالوا لهم : ان لهم الحرية فى المضى الى حيث يريدون على ان يتحملوا مغبة ما يقولون ، فان هم نجحوا كان ذلك مدعاة فرح وسرور عظيمين ، اما أن هم فشلوا فلن يجدوا أحدا قط يقف الى جانبهم .

حين رآهم صلاح الدين قادمين لقتاله ترك معسكره ، فلما رأوا المعسكر خاليا وليس به من أحد يصدهم عنه تدافعوا سراعا . فتركهم صلاح الدين يفعلون ما يشاؤون بكل ما وصلت اليه أيديهم . فالتهموا كل ما صادفوه وكل الذى يريدون ، ولما كان يعلم أنهم يقاتلونه من غير مساندة من جانب الفرسان فقد كر عليهم كرة عنيفة وهم فى داخل المعسكر وفتك بالكثيرين منهم حتى بلغ عدد القتلى منهم ستة عشر ألف قتيل . وقال البعض بل هلكوا على بكرة أبيهم تقريبا ولم يبق منهم سوى مائة مقاتل فقط .

هكذا عاقب الرب عامة المقاتلين جزاء ما أظهروه من غطرسة نحو الفرسان وانتقاما منهم ، واذ ذاك أمر صلاح الدين رجاله أن يسحبوا جثث القتلى ويلقوا بها بعيدا . وقد استغرق منهم هذا العمل أكثر من ثمانية أيام ظل العسكر خلالها لا يقدرون على الخروج لشرب الماء .

وتفشى المرض بين المسيحيين والمسلمين على السواء فى تلك السنة بسبب جيف القتلى والهلكى ، حتى لم يعد أحد من أهل المعسكرين قادرا على احتماله .

لقد حدث هذا يوم عيد القديس جيمس وهو الخامس والعشرون من يوليو (١٦٠) .

★★★

وماتت (١٦١) فى هذه الأثناء الملكة « سيبيلا » وابنتاها : أليس « Alice » وماريا « Maria » وورثت الملكة ايزابيلا زوجة همفرى صاحب تورون ابنة الملك عمورى والملكة « ماريا » .

(١٠٤)

أدرك المركيز كونراد الذى كان قد تملك مدينة « صور » أنه لم يعد — بعد موت الملكة « سيبيلا » — ثم وريث للعرش سوى « ايزابيلا » . ولما كان هو يطمع فى الاستحواذ على مملكة بيت المقدس فانه كان يلح على الملكة ماريا — أم ايزابلا — ان تعلن شجبها للزواج القائم بين ابنتها وبين همفرى وان تحملها على الانفصال عنه ، فما كان من الملكة الا أن أمرت ابنتها بذلك وحببت اليها الانفصال عن همفرى ، كما راحت تحبب اليها الزواج من المركيز كونراد بدلا من همفرى ، فاصمت ابنتها أذنيها عما تدعوها اليه أمها ماريا ، فعاودت الملكة الأم مسعاها وظلت ابنتها مصرة على الا تستمع اليها كأن فى أذنيها وقرا عما تقوله أمها ، فلما ضاقت الأم ذرعا قالت لها أنها لن تكون الملكة ولن تصير صاحبة المملكة ما لم تنفصل عن همفرى .

كما راحت تذكرها بجرمه يوم آراد كونت طرابلس وسواء من البارونات الذين كانوا فى نابلس ان يتوجوه ملكا ويتوجوها هى الأخرى ملكة فهرب الى بيت المقدس وأعلن تبعيته وولاءه للملكة « سيبيلا » التماسا للصفح عنه قائلا لسيبيلا ان القوم أرادوا ان يتوجوه رغم مشيئته ، وأفهمتها أنها طالما ظلت زوجة لهمفرى فلن تنال الشرف العظيم بالجلوس على العرش وتحل محل أبيها (١٦٢) .

زد على ذلك أنهم أخبروها أنها حين تزوجت من همفرى كانت قاصرة غريرة لا تدرك شيئا من أمور الزواج ، ومن ثم فان هذا الزواج باطل وليس بذى موضوع ، وانه يمكن فسخه .

★★★

كانت ماريا تريد أن يصبح المركيز زوجاً لايزابيلا ، هذا الى جانب ما كان ينطوى عليه صدر ماريا من المقت والكراهية الشديدين لهمفرى ، كما أن هناك سبباً آخر كان يزيد فى بغضها لهمفرى ذلك انه حين تزوج من ايزابيلا أصبح شديد الكراهية لحماته بل انه سعى لحرمانها من رؤية ابنتها ، وكان هو صادرا فى ذلك عن نصيحة اسدتها اليه أمه «ستيفانى دى ميللى» (١٦٣) Stephany of Milly صاحبة الكرك .



ثم جاء المركيز بعد ذلك من « صور » الى عكا لحصارها . ولم يكل فى هذه الأثناء عن ملاحقة كل من « فيليب أسقف بوفيه » Beauvais وهوبيرت Hubert رئيس أساقفة بيزا الذى كان يمثل كنيسة روما (١٦٤) الذى جاء لمساعدته حتى يتم هذا الزواج . ويقال انه أفسد كثيرا من رجال الجيش بهداياه ووعوده السخية لهم ، لا سيما من كانوا فى حاشية المندوب البابوى والأسقف ،

ومن ثم فانه لما أنكرت الملكة الزواج كان من اليسير نقضه وحينذاك قامت الملكة ماريا وأخبرت المندوب البابوى ببطلان هذا الزواج لأن ابنتها حين تزوجت كانت طفلة غريرة فى الثامنة من عمرها أى أنها كانت دون السن التى يصح لها فيه الزواج (١٦٥) .

وجىء بهمفرى ليسمع هذا الاتهام وسألوه عما يحمله على الاصرار على ابقاء هذه السيدة فى عصمته ان كان يستطيع الانفصال عنها ، فتمسك بأن هذه السيدة انما قبلت هذا الزواج عن فهم وادراك وعن طيب خاطر ورضاء تام من ناحيتها .

وكان من الشهود الآخرين « سنليس » Senlis كبير الخدم الذى وقف وقال – كذباً وفى تحد لهمفرى – أما السيدة لم يؤخذ رأيها أبدا ولم يستشرها أحد ما بشأن هذا الزواج الذى أصبحت بمقتضاه زوجة لهمفرى ، وقال « سنليس » ان كل ما تم انما تم بأمر الملك بلدوين وضد مشيئة « السيدة » وارادتها . وضد أمها .

أما همفرى الذى كان يتسم بالجبن والخنوع فقد تراجع ولم يجرؤ على التقاط القفاز الذى ألقاه معاً رضوه فى وجهه .

أما الذين أفسدتهم هدايا المركيز فقد راحوا ينصحون همفرى بالتخلص من هذا الزواج على الرغم من انه لم يطلب منهم النصيحة ولم يسألهم رأيهم بل قالوا انه ان ظل محتفظا بزواجه هذا فلن يكون قادرا على ادارة دفة شئون المملكة مما يجر عليه التعب ويسبب له الحزن ، فنزل عند رأيهم وفصم عقد الزواج (١٦٦) .

(١٠٥)

أسرع النائب البابوى حينذاك – وكان من أهل بيزا – باعلان الفصل بين الزوجين ، على الرغم من أنه لو ترك له الأمر

ليحكم فيه بما يشاء وبما يرى ــ لأبقى عقد الزواج قائما ولم يسمح بالطلاق ، اذ لم يكن عنده سبب قوى يبرر الفصل بين الزوجين . لكن كان السبب الذى حمل مندوب كنيسة روما على الوقوف الى جانب الماركيز هو أن البيازنة كانوا قد أحضروه من القسطنطينية الى مدينة « صور » (١٦٧) وهم الذين وقفوا الى جانبه ، وربما لو كان الأجل مد له أكثر مما عاش لحصلت مملكة بيت المقدس من الحقوق والممتلكات أكثر مما لها .

(١٠٦)

ليس من الممكن أن يبدأ عمل جليل بالزور والبهتان ثم ينتهى الى خاتمة طيبة ، ذلك انه بعد أن عرضت القضية أمام النائب البابوى جاءت الملكة ماريا بابنتها لتسمع بأذنيها القول الفصل فى قضيتها حيث قضى بأن تتزوج المركيز ، ويعلم الله ما اذا كان هذا الحكم يتفق مع الشريعة والحق ، وذلك لأن السيدة لم تكن فى ذمة زوجها ، بل كانت فى قبضة المركيز الذى سرعان ما تزوجها حالما صدر الحكم .

ما كادت القضية تصل الى هذه النهاية حتى بادرت « ايزابيلا » فأخذت فى الحال مقاليد أمور المملكة فى يدها واستدعت البارونات الذين كانوا موجودين هناك فى هذه اللحظة ، وطلبت اليهم أن يقطعوا على أنفسهم يمين الولاء لها فراحوا يعاملونها كما لو كانت الوريث الشرعى ، ولما أحكمت قبضتها على دفة الأمور فقد أعلنت فى حضرة بارونات المملكة انها ــ وقد انفصلت عن زوجها الأول ــ أنها راغبة فى أن يكون لهذا الزوج أو ذريته الحق فى أن يرثوها ، وقالت اننى أرد اليه جميع الأراضى التى أعطاها لأخى حين تزوجنى ، وأعنى بذلك « تورون » و « شاتو »

نيف Chat aux neuf ، وكل ما يتعلق بهما من امتيازات وكذلك جميع الممتلكات الخاصة بأبيه وجده .

بعد أن فرغت من كلماتها هذه اخذ المركيز يرتب حفل عقد زواجه من « ايزابيلا » ،ويقال انه تزوجها مرتين ، أما الأولى فكانت زيجة سرية ، وأما الثانية فكانت بالكنيسة .

ولو كانت هذه السيدة فى عصمة زوجها همفرى فلربما كان من المحتمل كل الاحتمال ألا تقبل انفصالهما بعضهما عن بعض ، ومع ذلك فان المركيز لم يظهر الفرحة ، وقد يكون هناك سؤال عما اذا كانت مملكة بيت المقدس لم تصبح على شفا مرحلة خطيرة حرجة بسبب هذا العمل .

(١٠٧)

أمضى ملكا فرنسا وانجلترا الشتاء فى صقلية ، فأما ثانيهما وهو ريتشارد فقد كان رجلا شديد المراوغة ، بالغ الجشع ، اذ لم يكف منذ لحظة وصوله عن الالحاح على اخته فى أن تبيع بائنتها التى آلت اليها من زوجها ، وان تصحبه فى خروجه الحج ، ووعدها بأن يرد اليها — اثر عودته مباشرة الى انجلترا — كل ما تسلمه من هذه البائنة ، وان يزوجها الى الرجل الكفؤ المناسب الثرى (١٦٨) ، فلما سمعت هذا الوعد منه أخذت فى التشاور ، ثم استجابت لرغبته فى بيع دوطتها واعطائه ما حصلت عليه من ثمنها .

وفرح الملك ريتشارد باستجابة شقيقته لطلبه ، اذ كان قد اتفق على البيع مع الملك « تانكريد » الذى نزل على نصيحة رجاله

معقد صفقة مع ريتشارد بأن يدفع له فى هذه العملية مائة ألف مارك (١٦٩) .

وتسلم ريتشارد من تانكريد المبلغ المتفق عليه وكان وقت الابحار قد دنا ، ومن ثم جهز الملك أسطوله واستعد للابحار ، وأمده كل من تانكريد وملك فرنسا بكميات ضخمة وفيرة من المئونة والذخيرة ، ثم خرج الملكان لحصار عكا ، لكن « جوانة » ملكة صقلية لم تستطع الرحيل مع أخيها ريتشارد لوجود بعض الأعمال التى كان من الواجب أن تنجزها قبل رحيلها على أن تواصل السفر بعد ذلك حين يسنح لها الوقت .

★★★

بعد آن غادر الملكان مسينا [وذلك يوم ٣٠ مارس ١١٩١] اتجه ملك فرنسا فيليب الى فلسطين مباشرة ، مصطحبا جميع رجاله ، وبلغ ميناء عكا التى كانت لا تزال تحت الحصار (١٧٠) وكان وصوله اليها يوم العشرين من ابريل من نفس السنة .

أما من كان بعكا من كبار النبلاء فكانوا يترقبون وصوله فى لهفة ، لذلك ما كادت قدماه تمسان ترابها حتى استقبلوه استقبالا حافلا تجلت فيه مظاهر التعظيم التى تليق برجل جليل القدر كملك فرنسا الذى بث قدومه الشجاعة فى نفوس الناس وشد من عزائمهم ، وكان معه أسطول ضخم بما فيه من الميرة والمئونة ،كما كان يرافقه عدد جم من البارونات الجديرين بأن يكونوا فى صحبة التاج الفرنسى ، وكان من بينهم « فيليب كونت فلاندرز » وهيج دوق برجنديا ، ووليم دوق باريس التى هى مقاطعة « بواتييه » التى ظلت موضع نزاع بين الملكين فترة من الوقت .

ما كاد الملك فيليب يصل الى عكا حتى امتطى صهــوة أحــد الجياد وراح يدور فى شتى أرجاء البلد ليرى أيسر مكان يستطيع منه احتلالها ، فلما وصل الى المكان المنشود ورآه رأى العين صاح قائلا : « يا لله !! · انظروا كم من الرجال العظام حاصروا هذا البلد ، لكنهم عجزوا جميعا عن الاستيلاء عليه !! » ·

ثم أمر أن يقام حول المدينة حواجز وستائر حديدية ، وان تطلى بطلاء له بريق الفضة ، كما أمر رماة الأقواس من الرجـــال الذين فى جيشـه بالاستمرار فى ما هم فيه من الرمى ففعلوا حتى لم يعد أحد قادراً على رفع أصبعه فوق أسوار المدينة التى وجد أهلوها أنفسهم وقد أحيط بهم وهوجموا مهاجمة عنيفـة شرسة ، فرفعوا شعارهم على كنيسة سنت لورنس التى كانت قد تحولت الى مسجد ، فوضعوا سلة فى مكان عال ودلوهـــا لتكون علامة تحذير ، كما أبرزوا راياتهم لاستدعاء الجيش الاسلامى للحضور لنجدتهم · فلما طال رفعهم لهذه السلة وتلك الرايات أنزلوها دليلا على انهم لم يعودوا قادرين على الصمود أكثر مما صمدوا ·

★★★

كذلك ظل ملك فرنسا يحاصر من كانوا داخل مدينة عكا حتى وصل ملك انجلترا فجاء بالنقابين والحفارين لنقب السور المتاخم لبرج موديت « Maudite

وصنع البيازنة آلة سموها بالقطة نقلوها الى ناحية السور الذى كان النقابون يعملون فى نقبه ، لكن المسلمين أضرموا النار فيها وراحوا يقذفونها بشحم الخنزير وبالزيت وغير ذلك مما يجــدونه فى المدينة فاحترقت « القطة » والذين بداخلها ، واذ ذاك شرع

النقابون يعملون ويحفرون تحت السور حتى وصلوا الى اسه ، ثم أضرموا النار فأتت عليه فانهار وحينذاك وصل الى المدينة مارشال فرنسا ومعه زمرة كبيرة من الفرسان ، وكان دخولهم اياها من هذه الثغرة التى بالسور ، الا ان المسلمين حالوا بينهم وبين اقتحام البلد وردوهم على أعقابهم ٠

وهلك فى هذا الحادث المارشال وكثير من الفرسان الذين معه، فحزن ملك فرنسا والبارونات الذين كانوا معه ومَن كانوا موجودين هناك ٠

(١٠٩)

لقد كان فى قدرة ملك فرنسا الاستيلاء فى يسر وسهولة على المدينة لو أنه بادر الى ذلك ، ولكنه ظل يترقب وصول « ريتشارد » ملك انجلترا لان سفرهما كان معا ، وكان بينهما عهد اتفقا عليه حين خروجهما من بلديهما ، ألا وهو ان يكونا شريكين فى جميع الفتوحات التى يتحتم عليهما القيام بها ، هذا الى جانب أن فيليب كان يريد أن يشاركه ريتشارد فرحة الاستيلاء على المدينة ٠

(١١٠)

كان الملك ريتشارد ـ قبل مغادرته انجلترا لاسترجاع مملكة بيت المقدس ـ قد وعد ملك فرنسا وعدا صادقا ، أكده بالقسم الغليظ أن يتزوج أخته بعد أربعين يوما بالتمام بعد عودته من مملكة القدس ، لكن أمه « اليانور » Eleanor التى كانت من قبل ملكة لفرنسا وانجلترا حين سمعت بأن ابنها عاهد الملك الفرنسى (الذى كان زوجها من قبل) بما عاهده عليه من زواجه

بأخته غضبت اذ كانت تكره أن يكون أحد من ذريتهـــا من نســـل فيليب وآلت على نفسها الا ان تفسد هذه الخطبة التى ارتبط بها ولدها ، ومن ثم لم تأل جهداً فى البحث له عن زوجة تكون من غير بيت الملك فيليب ، فاخبروها ان لملك(١٧١) نفارة (سانكو السادس ١١٥٠ ـ ١١٩٤) أختين فرأت أن تسعى ليتزوج ابنها بواحدة منهما ، فأرسلت فى الحال الى ملك نفارة تسأله أن يرسل احداهما ليتزوجها ابنها ريتشارد فتصبح هذه الابنة ملكة على انجلترا ، ففرح سانكو [شانجة] السادس وغمره السرور حين علم بهذا الاقتراح وجهز أخته«برينجاريا» Berengaria جهازا عظيما يليق بمن ستكون ملـكة وأرسلها الى بواتييــه حيث كانت فى انتظارهــا « اليانور » التى سرها حضور الفتاة .

بادرت اليــانور فأعــدت فى توهــا كل ما يلزم لرحلة « برينجاريا » وسعت لتدرك ابنها قبل أن يغادر صقلية حتى تضمن اتمام هذا الزواج ، ثم أقلعت من « بواتييه » فلما بلغت صقلية راحت تتلمس الخبر عن ابنها الملك ريتشارد فعلمت برحيله هو وملك فرنسا ، كما علمت ان ابنتها «جوانه » ملكة صقلية قد باعت دوطتها وذهبت الى مسينا لتلحق بأخيها ريتشارد فى مضيــه الى فلسطين ، فسرها هذا الخبر غاية السرور ، وأسرعت فى أثر ابنتها لترسل العروس فى صحبتها فتحقق رغبتها وتزداد شرفا ، ورأت أن يعجل ابنها بالزواج وبذلك تحقق تطلعاتها ورغبتها (١٧٢) .

(١١١)

أسرعت الملكة « اليانور » غاية الاسراع فى الوصول الى مدينة « مسينا » ، فلما بلغتها وجدت ابنتها التى تلقتها باجلال عظيم ، كما رحب بها أهل البلد .

ما كادت « اليانور » تنزل فى الموقع الذى خصص لها حتى تبين لها أن ابنتها على وشك المغادرة والقيام برحلتها التى وعدت بها أخاها ، فعهدت « اليانور » اليها بالعروس العذراء لتكون فى صحبتها حتى يتم زواج أخيها ريتشارد بها ، وطلبت اليها أن تخبر أخاها أن يتزوجها وألا يتريث أو يتمهل باى حال من الأحوال فى اتمام هذا القران .

ثم ودعت « اليانور » ابنتها جوانه وسارت كل واحدة منهما فى طريقها .

وعادت الملكة « اليانور » الى « بواتو » .

أما الملكة « جوانة » فقد ابحرت ميممة شطر فلسطين .

وانطلقت السفينة بها وبمن فى صحبتها ، ثم تبين لها فى أثناء ابحارها أنها أصبحت هى ومن معها فى مياه جزيرة قبرص التى لم تكد تطالع أرضها وتراها رؤيا العين حتى التفتت الى بحارتها وقالت لهم انها راغبة فى أن تعرف عما اذا كان الملك « ريتشارد » قد مر من هنا ، فأجابوها انهم سعداء بأن يلبوا طلبها ، ومن ثم أمرتهم الملكة أن يقتربوا من الساحل ، ففردوا الأشرعة وانطلقوا حتى صاروا أقرب ما يكونون الى ساحل الجزيرة التى كان صاحبها اسحق [دوكاس كومنينوس] (١٧٣) قد جمع رجاله ووضع حراسة قوية على الشاطىء مخافة أن يستولى ملكا فرنسا وانجلترا على جزيرته عند وصولهما اليها .

حين رآى اسحق سفن الملكة « جوانة » متجهة نحو شواطئه ارسل طائفة من رجاله على ظهر سفينة صغيرة يتقصون خبر القادمين وما هى ماهيتهم؟ وما وجهتهم؟ فخرج رجاله الى عرض البحر فعلموا

ان على ظهر السفن القادمة ملكة صقلية أخت الملك ريتشارد ، وانها فى طريقها الى فلسطين فى أثر شقيقها فى حجه الصليبى ، فلما اقترب الجانبان الانجليزى والقبرصى بعضهما من بعض سأل الذين كانوا على ظهر مركب جوانا من كانوا فى السفينة القبرصية ان كان لديهم خبر عما اذا كان الملكان قد مرا من هنا فكان الرد أن لا علم لهم بشىء من هذا القبيل ٠

(١١٢)

عاد الرجال الذين كانوا فى القارب الى مولاهم اسحق صاحب قبرص وأخبروه ان أهل السفن هم ملكة صقلية أخت الملك ريتشارد وحاشيتها ، وانهم فى طريقهم الى فلسطين ٠

كان اسحق صاحب قبرص رجلا شريرا تنطوى جوانحه على الكراهية والبغضاء للاتين ومن ثم راح يدبر المكيدة لهم وأعمال الخديعة،فأرسل الى السيدة رسالة يلتمس فيها منها — ان شاءت — أن تحضر وتستجم فى بلده حتى تأتيها الأخبار عن أخيها ٠

وأرسل لها سفينة صغيرة وبعث رجالا من لدنه يدعونها نيابة عنه أن تنزل وترسو أنى شاءت حتى تأخذ قسطا من الراحة وتتزود بالماء والطعام ، وأخبروها انها تستطيع البقاء فى طمأنينة حتى يأتيها الخبر عن أخيها ، فتدبرت الأمر مع رجالها فنصحوها الا تستجيب له والا تلبى هذه الدعوة ، فأخبرت رسل اسحق أن يرفعوا الشكر الجزيل الى مولاهم ، وأن يقولوا له على لسانها انها لا تملك أن تغادر السفينة من غير أذن شقيقها الملك ، فعاد الرسل الى مولاهم ونقلوا اليه ما قالته « جوانة » لهم ، وانها شاكرة له ما يعرضه عليها ، ولكنها لا تستطيع النزول الى البر من غير أذن

الملك ، هذا على الرغم من انها سوف تأذن لمن فى مغيتها بالنزول للتزود بالماء ·

حين سمع اسحق ما ذكره له رسله أمر جميع رجاله الا يسمحوا لمن على ظهر السفن بالتزود بالماء ، وكان الدافع له على هذا المنع هو انه لا يحب أن ينزل أحد فيعرف أرض قبرص ، ثم أمر فى الحال جميع مراكبه أن تتصدى لسفن الملكة وتستولى عليها بالقوة ·

ما كاد من على سفن « جوانه » يدركون خيانة اسحق وغدره ويعرفون أن مراكبه خارجة لمهاجمتهم حتى فردوا قلاعهم وأبحروا حتى صاروا فى عرض البحر ، فانطلقت سفنهم مجريها ومرساها فلما كان اليوم التالى التقوا بأسطول الملك ريتشارد فكانت الفرحة عظيمة به ·

(١١٣)

فى هذا الوقت الذى نتكلم عنه كانت هناك ثلاث سفن غاصة بالحجاج فى طريقها لمساعدة بيت المقدس ، وبينما هى فى طريقها اذا بعاصفة هوجاء تهب عليها فتعطبها وهى فى عرض البحر فتجنح السفن وتتحطم عند جزيرة قبرص ويهلك من يهلك ولكن ينجو بعض الحجاج وتقدر لهم الحياة ويبلغون أرض الجزيرة ويتوقعون أن يجدوا السلامة فيها ، لكن ما كان أعظم خيبة ظنهم فقد وجدوا خطرا أشد وأدهى مما نجوا منه حين أمسكهم الاغريق وعاملوهم بوحشية دونها أية وحشية أخرى ، ثم جاؤوا بهم الى اسحق الذى كان الحقد الأسود يعشش فى صدره ويملؤ جوانحه ويجعله يتطلع الى فرصة تتاح له فينزل بهم الشر ، وكانت تربطه بتوروس الثانى صاحب

الجبل (١٧٤) وارمينية رابطة القربى ، فقد كانت ابنة « توروس » زوجة لاسحق وكانت قد أنجبت له ابنة هى التى أمسكها ريتشارد ونقلها الى ما وراء البحار بعد أن فتح قبرص ، كما سنروى لك هذا الخبر فى موضعه من هذا الكتاب (١٧٥) .

★★★

ما ان جاء الاغريق الى اسحق بالحجاج [المسيحيين] وأصبحوا فى حضرته حتى أمر بقطع رقابهم جميعا عن بكرة أبيهم ، لم يستثن منهم احداً ، وهكذا بلغت خسته هذا الحد الوضيع حتى أمر بقتلهم على هذه الصورة رغم انهم لم يأتوا جرما ولم يقترفوا اثما ، ولم يقاتلوه ، بل قدموا من بلادهم فى سبيل الرب ليكونوا عوناً على محو العار الذى أنزله المسلمون بعيسى المسيح .

وكابد هؤلاء الحجاج قسوة دونها كل قسوة على أيدى هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالمسيحيين فارتكبوا معهم من الفظائع ما لم يرتكبه المسلمون الكفار .

★★★

أصدر اسحق هذا الأمر الدنىء الى الاغريق الأشرار الذين رحبوا به فاستصحبوا الحجاج الى ناحية للفتك فيها بهم ولقتلهم . غير انه كان هناك فارس نرمندى المولد يعمل مرتزقا فى خدمة اسحق أخذته الشفقة والرحمة بهؤلاء التعساء وأحس بالمرارة الشديدة تعصر قلبه اذ يأخذ اليونان هؤلاء الحجاج الأغراب ليقتلوهم شر قتلة ، ولينزلوا بهم الهلاك الوحشى بلا ذنب جنوه ، أو اثم ارتكبوه . ولم يكن هناك أى مبرر حتى ينزلوا بهم هذا العذاب ويلحقوا بهم هذا المصير البشع .

أسلم هذا النرمندى روحه للرب ، كما أسلم جسده للقتل وآثر ان يموت وحده فردا بدلا من أن يترك هؤلاء الناس جميعا يهلكون بلا جرم ارتكبوه أو جريرة يؤاخذون عليها .

انطلق هذا النرمندى على جواده يخب به سريعا الى حيث كان الحجاج موجودين فى انتظار مصيرهم ذبحا كالنعاج ثم نادى الذين كان معهودا اليهم أن يقوموا بقتلهم أن يكفوا عما هم مقدمون عليه وألا يقتلوهم وذلك بأمر الامبراطور اسحق ، فظن هؤلاء الذين سمعوه ان ما يقوله هذا الفارس النرمندى حق لأنهم كانوا يعرفون انه من حاشية اسحق ، وعتقدوا أن ما جاءهم به ان هو الا صدق ، فأمسكوا عما كانوا مقدمين عليه من ذبح هؤلاء الحجاج .

أما الفارس [النرمندى] الذى كان حريصا ومتلهفا على عمل ما فيه انقاذ الحجاج فقد خاطب الحجاج بالفرنسية ونصحهم أن يفروا الى داخل الجزيرة عساهم يجدون ملجأ يختبئون به حتى تأتيهم الرحمة من ربهم ، ودعاهم أن يصلوا من أجله راجين له الرحمة لانه كان يعرف انه لا محالة مقتول اذا أنقذهم .

واستجاب الرب لتضرعهم حين جاء ريتشارد كما ساقص الخبر هذا حالا .

(١١٥)

حين علم اسحق أن الفارس النرمندى قد سلك سلوكاً مخالفاً لأوامره بادر فأمر بقطع رقبته فنفذ الاغريق أمره فى لحظتهم وأسرعوا الى قتله مهللين فرحين لانهم كانوا يعتبرون الفرنجة هراطقة ويعدون مقتل أى لاتينى عملا يرضى الرب .

استولى الخوف الشديد بعد ذلك على اسحق ، وكان خوفه مما عمل كبيراً ، فقد خشى قدوم الملك « ريتشارد » ، كما أحس بفظاظه الجرم الذى ارتكبه تجاه المسيحيين فى قبرص وهول فظاعته، وسرعان ما جاء الى « ليماسول » وشحنها بالمقاتلة : فرسانا ومشاة، وأمر الحرس ان يقفوا على امتداد الساحل لا تغفل لهم عين ، وألقى بتعاليمه الى عسكره أن يكونوا على أتم أهبة وعلى غاية الاستعداد للقتال ان هم رأوا سفن عدوه ، وكان اتخاذه كل هذه الاجراءات حذرا وخوفا من قدوم الملك ريتشارد بقواته وأسطوله ووصولهم الى ميناء « ليماسول » (١٧٦) التى جاءها [يوم السادس من مايو ١١٩١] وسمع بما كان من اسحق ، فأنزل (١٧٧) فى الحال الى البر طائفة من رجاله ليجلبوا الماء العذب يشربه من جاؤوا فى صحبته .

الا ان الاغريق الذين كانوا قائمين بحراسة الشاطىء رفضوا الأذن لهم بالرسو والنزول الى الساحل وأخبروهم انهم مانعوهم من التزود بالماء والطعام من الجزيرة ، فلما علم الملك ريتشارد بما قاله رجال اسحق غضب أشد الغضب وأمر فى الحال جنده أن يستعدوا لشق طريقهم بالقوة للنزول الى الشاطىء ، فأطاعوه ونزل الفرسان والعسكر ورماة السهام وصاحبهم هو ذاته فى النزول فما كاد اسحق يبصر قوات الملك [الانجليزى] قادمة الى جزيرته حتى تقهقر برجاله ، فلما شاهد ريتشارد تقهقرهم وانسحابهم أمر كتائبه بالرسو وبالقتال فأطاعوه وزحفوا مشاة ضد القوات الاغريقية .

وعاون الرب الملك ريتشارد فهزم القبارصة ودارت عليهم الدائرة وذاقوا مرارة الانكسار فى « ليماسول » .

(١١٧)

بعد الفراغ من هذه الوقعة فر اسحق على وجهه تاركا بلده ، أما ريتشارد فقد أمر جنده بالتوغل داخل البلاد ، والجد في أثر اليونان فاستجابوا لأمره فجدوا فى طلب العدو وقاتلوه فى السهل قبل أن يتمكن من الفرار الى الجبال ويعتصم بها ·

هكذا أنزل ريتشارد وعسكره الهزيمة مرة ثانية بالعدو ، وكانت الهزيمة هذه المرة على مقربة من قرية يسمونها « كولوسى » Kolossi فانطلق اسحق معتصما بالتلال اذ لم يجد له ملاذا سواها يحتمى به ، وطارده الفزع من لقاء ريتشارد رغم أنه جمع كل من كان تحت يده ومن استطاع حشده من اليونان والأرمن وغيرهم فى محاولة منه لقتال الملك ريتشارد عساه يلحق به الأذى ويصيبه بالمضرة ويخرجه من الجزيرة ، ولكن رب المجد الذى جاء بريتشارد والذى أراد أن يبذر البذرة الطيبة فى هذه الجزيرة باقامة الكنيسة الطاهرة المسيحية الرومانية لاقتلاع الجذور الفاسدة للاغريق الخبثاء أقول ان رب المجد ومن له العزة ألهم ريتشارد الحكمة فى أن يسرع بالذهاب الى قلعة « كيرينيا » Kyrenia فاستولى عليها وعثر فيها على ابنة اسحق ، كما وجد أموالا طائلة ومتاعا كثيرا ، فأخذ كل ما صادفه ·

ورضى ريتشارد بما أصابه اذ وجد قاعدة لبحريته وأموالا جمة فعمد الى المال ففرقه بين رجاله ·

(١١٨)

قام اسحق بعد ذلك فجمع كل من استطاع جمعه من رجال بلده وضرب معسكره فيما بين «نيقوسيا » و « فاماجوستا » ، ووقف فى انتظار الملك ريتشارد عساه يلحق به الأذى وينزل به الهزيمة ،

ولكن سماحة من له المجد الذى لا يتخلى عن رجاله أمّد الملك ريتشارد بالقوة والباس وكتب له النصر فأنزل الهزيمة مرة أخرى باسحق وجميع من معه فوق أرض قبرص .

حين رآى اسحق فداحة ما أصابه من دمار وما الم به من الخسران المبير وهزيمة جيشه وضياع ما تحت يده من القوة اللازمة له والتى هو فى مسيس الحاجة اليها لمقاومة ملك انجلترا ... أقول حين رآى اسحق كل ذلك الذى أصابه فر الى حصن من أمنع حصونه يسمونه حصن « بوفافينتو » Buffavento ، فانطلق ريتشارد فى أثره وآلى الا أن يتعقبه،فحاصر الحصن والعدو فيه فاستولى عليه وواتاه النصر اذ وقع اسحق أسيراً فى يده ، وبذلك تمكن ريتشارد بعون الرب أن تكون له السيادة التامة على قبرص وان يضمها اليه ويدخلها فى نطاق المسيحية اللاتينية .

ثم استدعى ريتشارد اليه كبير شمامسة كنيسة سنت جورج بالرملة واسمه « الان »Alan جعله رئيسا لأساقفة « نيقوسيا » (١٧٨) .

(١١٩)

بعد أن تمت الغلبة لريتشارد على اسحق وهزمه وفتح جميع جزيرة قبرص وخلصها من سطوة الاغريق أصدر تعليماته الى سفنه - كبيرها وصغيرها - بأن تتجمع فى « ليماسول » استعدادا للسفر الى عكا لحصارها ، وكان ريتشارد شديد الحرص عظيم اللهفة على الذهاب الى عكا لحاجته الملحة اليها ، ثم أعقب أمره هذا بالمجىء الى « ليماسول » حيث كانت أخته فى انتظاره ومعها العذراء [برينجاريا] التى بعثت بها أمه اليه صحبة أخته لتكون عروسه .

وسرعان ما عقد قرانه عليها فى الكنيسة المكرمة كنيسة القديس جورج (١٧٩) [وصادف زواجه الثانى عشر من مايو] ·

ثم اصطحب اسحق وابنته وأبحر وهما فى صحبته وانضم الى الجيش الموجود خارج عكا (١٨٠) .
الثامن من يونيو) ·

★★★

حين بلغ زيتشارد عكا اغتبط ملك فرنسا وجميع من كانوا أمام المدينة لقدمه سوى المسلمين فقد جزعوا وحزنوا .

ورحب بريتشارد كبار الرجال الذين كانوا موجودين أمام عكا وكان ترحيبهم به متسما بحماسة منقطعة النظير ، ولم يحزن سوى المسلمين الذين كان أساهم عظيماً ، وقوبـــل ريتشارد بفرحه عارمة ·

أما « برنجاريا » فقد لاقاها ملك فرنسا منذ أن وطأت قدماها الأرض بترحاب عظيم وكان قد ذهب هو بنفسه الى حيث كانت هى وريتشارد وأخذ بيدها الى البر واستندت الى ذراعه فى نزولها الى البر · وكان قد ذهب هو وريتشارد ، وأراد فيليب أن يكون فى شرف استقبالها ، ولقد عانق « فيليب » الملكة « بيرينجاريا » حين أرست السفينة ·

لم يكن فيليب فيما أبداه منافقا ، كما أنه لم يبد أى مظهر من مظاهر الغضب لما فعله ريتشارد معه اذ نكث بعهده الذى قطعه على نفسه حين وعده أن يتزوج أخته ، ثم اقترن ببرينجاريا أخت ملك نفارة ·

لكنه أظهر غضبه واضحا جليا حين عاد الى فرنسا ·

(١٢٠)

ما كاد صلاح الدين يصل الى عكا حتى جاءته من مصر سفينة كبيرة من سفنه المعروفة بالدروموند [البطسة] وكانت غاصة بالرجال والسلاح والنار الاغريقية والامدادات لمساعدة المسلمين والحاق الهلاك والضرر بالمسيحيين ، وكان على ظهر هذه السفينة اعداد كبيرة من الثعابين والحيات الضخمة السامة كان القصود من احضارها أن يطلقوها فى صفوف الجيش المسيحى • فلما علم الملك ريتشارد باقتراب هذه السفينة من مدينة عكا وأنها جاءت نجدة للثغر الاسلامى أصدر أوامره الى سفنه بالتأهب لمواجهتها وبالاستعداد بالسلاح للاشتباك فى معركة معهما ، فتم تجهيز هذه المراكب على وجه السرعة وعهد بقيادتها الى «ريموند دى بون دون» Raymond Bone Done واستعد الرجال للقتال ، وقام مَن على ظهر السفينة بالدفاع عن أنفسهم دفاعا بطوليا وعنيفا ، باذلين فى ذلك أقصى ما يستطيعون بذله من جهد •

أما الرب الذى لا ينسى اتباعه فقد كتب النصر لملك انجلترا ومن معه فتعرضوا للسفينة [الاسلامية] واغرقوها فى عرض البحر، فضاع كل ما كان عليها ، وداخل الخوف قلوب المسلمين الذين كانوا فى مدينة عكا وتخاذلت عزائمهم .

(١٢١)

حين كان الملك ريتشارد قائماً على حصار عكا نصب معسكره فى جانب المدينة المواجه لكزال « ايمبيرت » (١٨١) Casal Imbert بينما أقام ملك فرنسا معسكره على الجانب الآخر » [وكان كازال

أمبيرت قريبا من شمال عكا] ، ولم يكف ملك فرنسا العظيم عن مواصلة رمى قذائفه على سكان المدينة فأقض مضاجعهم .

كذلك قام ملك انجلترا من ناحيته بشن الهجمات العنيفة على أسوار المدينة حتى تهاوتتحتالوابل الهتان من الأحجار التى راحت ترميها بها بطارياته ، فلما رآى أهل البلد عنف الهجوم عليهم وقسوته الضارية ، وأدركوا عجز صلاح الدين عن اسعافهم ومد يد المساعدة اليهم تشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون فقر الرأى على تسليم المدينة الى المسيحيين ادراكاً منهم أنه لم يعد فى استطاعتهم الحفاظ عليها .

★★★

لقد استمرت آلات الحرب التى مع الملك فيليب ترمى أسوار المدينة فهدمت الكثير منها مما أدى الى فتح ثغرة يستطيع الجند المرور منها ومقاتلة من فى البلد وجها لوجه فى الوقت الذى أنزلت فيه شهرة ملك انجلترا وأعماله الخوف والفزع فى قلوب المواطنين الذين داخلهم الاضطراب واليأس من الحفاظ على أرواحهم ، ويئس القائمون على حراسة المدينة من وصول أية نجدة اليهم من جانب صلاح الدين وزاد من يأسهم احداق المسيحيين بالبلد احداقاً تاماً ، وأحاطتهم بها احاطة السوار بالمعصم ، ومن ثم أرسلوا الى ملك فرنسا يرجونه ويتوسلون اليه أن يكف عن مواصلة الهجوم عليهم ، ويستعطفونه أن يعطيهم عهد أمان من ناحيته حتى يأتوا اليه للتحدث معه ، فتشاور الملك مع حاشيته فى هذا الموضوع ونزل على نصيحتهم واعطى أهل البلد الأمان الذى ينشدونه ،ومن ثم جاء الرسل المسلمون ليفاوضوا الملك فى خيمته واخبروه أنهم مستعدون لتسليمه البلد شريطة أن يأذن لهم بالخروج منها سالمين آمنين هم ونساؤهم وأولادهم وما ملكته أيديهم ، لكن الملك رفض الاستجابة لهذا الطلب لان المدينة قد أصبحت هى وكل ما فيها فى قبضته وملك يمينه ،

وقال لهم ان استسلامهم له لا يعنى سوى انه قد اظلّهم رحمته وفى ذلك حفظ لأرواحهم .

(١٢٢)

بينما كان أهل البلد يتفاوضون مع ملك فرنسا اذ بريتشارد ملك انجلترا يهاجم المدينة وكان يريد من وراء ذلك العمل أن يظهر غضبته من ان ملك فرنسا لم يستشره فيما يفعل ، فلما رآى المسلمون الذين بحضرة فيليب ما يجرى من الهجوم على بلدهم حنقوا اشد الحنق وقالوا لفيليب : « لقد جئناك يا مولانا معتمدين على عهد أمانك الذى زودتنا به ، ونحن مطمئنون اليه متمسكون به لنا ولمواطنينا ممن هم فى المدينة حتى نعود اليها ، ولكن ها أنت ذا ترى ملك انجلترا يؤذى أهل البلد ايذاء بليغاً ، والآن فانا نسألك ان تأذن لنا بالرحيل ما دمت لا تملك من السلطة ما يمنع هذا الهجوم » .

اشتد غضب ملك فرنسا حين تبين له ان ملك انجلترا يهاجم المدينة رغم عهد الأمان الذى سبق أن أعطاه لأهلها .

ثم اذن بحراسة المسلمين فى رجوعهم حتى يبلغوا مأمنهم سالمين ، كما خوّلهم الحق فى الدفاع عن أنفسهم ، وبلغ غضبه من ملك انجلترا حدا أمر رجاله أن يحملوا سلاحهم وان يستعدوا للذهاب لمهاجمة ريتشارد الذى كان قد تسلح هو الآخر ، لكن تقدم منه عقلاء الجيش واستطاعوا أن يسكنوا ثائرته ويخمدوا غضبته .

كان الذى أصاب المسيحيين فى ذلك اليوم بالغ الخطورة، فقد رجع المسلمون الى المدينة وتولوا الدفاع عن أنفسهم ضد الملك

ريتشارد دفاعا بطوليا أضر بسمعته هو نفسه فى ذلك اليوم الذى هلك فيه الكثيرون من رجاله ٠

(١٢٣)

حدث بعد ذلك أن تم الوفاق بين ملكى فرنسا وانجلترا واتمام الصلح بينهما أن أصدرا أمرهما بمهاجمة المدينة فى عنف ومن غير توقف ، فلما رأى المسلمون أن لم يعد فى قدرتهم عمل شىء فوق ما غعلوه بعثوا الى صلاح الدين يطلبون منه أن يغيثهم بنجدة ترفع الحصار المضروب على البلد فقد سبق (١٨٢) ان وعدهم بهذه النجدة ، ولكنه رد عليهم بأنه لا يستطيع انجادهم ، وانه تارك لهم عمل ما يستطيعون عمله ، فلما تسلموا رده قام « قراقوش » الذى كان المشرف على تصريف أمور المدينة وتدبير شئونها وأرسل الى الملكين يسالهما ان يبعثا اليه بكتاب أمان حتى يحضر هو ذاته اليهما ويتحدث معهما ، فلم يضنا عليه بما طلب وأجاباه الى سؤاله وان كان ذلك الجواب على مضض منهما، فلما جاء«قراقوش»الى خيمة ملك فرنسا الذى كان قد اجتمع اذ ذاك بملك انجلترا وبسواه من البارونات ، واخبرهم انه مسلمهم المدينة طوعا شرط الحفاظ على أرواح أهلها ، وان يكون مفهوما أن يعيد صلاح الدين الصليب المقدس الذى أضاعه المسيحيون فى قرون حطين يوم دارت الدائرة على الملك « جى » ووقع فى أسر السلطان ٠

كذلك تم الاتفاق على أن يطلق المسلمون سراح من عندهم من السجناء ٠

ثم زاد قراقوش على ذلك بأن قال : « لئن لم يوف صلاح الدين بما ذكرته لكم بقينا نحن فى قبضتكم وتحت رحمتكم تعاملوننا كما لو كنا أرقاء لديكم »٠



قبل الملكان هذه الاقتراحات التى قدمها قراقوش ، ومن ثم أسلم المسلمون المدينة الى المسيحيين ، وكان ذلك يوم الثانى عشر من يونيو ١١٩١ من تجسد السيد عيسى المسيح (١٨٣) .

(١٢٤)

دخل النصارى المدينة وسط فرحة عارمة شاكرين للرب رحمته التى خصهم بها ، وحامدين له عطفه عليهم اذ خلص لهم البلدة من أيدي المسلمين ، فلما استسلمت خاطب الملكان عسكرهما آمرين اياهم بالاقامة فيها ، ثم دخلها ملك فرنسا ونزل فى قلعتها . أما ملك إنجلترا فقد ذهب للاقامة في بيت الداوية .

إما الفرسان فقد نزلوا فى بيوت تراة المدينة وأعيانها الذين كانوا يتوقعون أن يعودوا هم أنفسهم اليها والاقامة بها كما الأمر من قبل ، لكن طردهم منها غاصبوها وقالوا لهم ان لا حق لهم فيها لأنهم [اى الصليبيون] انما نزلوها بحق الفتح ، فلم يجد هؤلاء الأعيان بدا من الذهاب الى ملك فرنسا يسألونه ألا يحرموا من أملاكهم والا تنتزع منهم بيوتهم ، وقال كبار الملاك وأعيان البلد لفيليب : « أيها الملك ... هذه دورنا وان المسلمين انتزعوها منا قسرا ، واذا كنتم قد جئتم لتحرير بيت المقدس فليس من الحق ولا مما يجيزه العدل أن نحرم نحن من حقنا . ان الفرسان الذين نزلوا دورنا يقولون انهم قدموا واحتلوها من المسلمين لذلك نلتمس منك الا ترضى بأن يخرجونا منها » .

حينذاك أرسل ملك فرنسا الى ريتشارد ملك انجلترا والى غيره من البارونات يدعوهم للحضور للتشاور فى طريقة حكم المدينة ، فلما اجتمعوا بحصن عكا الذى كان نازلا به ملك فرنسا

افتتح فيليب الاجتماع والنقاش ، فعرض أمام الجميع وجهات نظر أعيان أهل عكا ، وذكر أنهم جاؤوا اليه يلتمسون ألا يحرموا من دورهم ، والا تغتصب ممتلكاتهم وتسلب من أيديهم ، لانهم لم يتصرفوا فيها بالبيع ولا الرهن ولكنها أخذت منهم قسرا » وقال لهم الملك : « وانى أقول لكم اننا ما قدمنا الى هذه البلاد سعيا وراء الثروة ولا الممتلكات ، ولا جئنا لنسبب لآخرين دورهم وانما كان مجيؤنا من أجل الرب ومن أجل العمل على ما فيه خلاص أرواحنا وذلك بفتح القدس التي سلبها المسلمون من النصارى .

« والرأى عندى انه ما دام الرب قد مكننا من فتح هذا البلد فليس من الحق حرمان أصحاب الأملاك من أملاكهم وسلبها من أيديهم ، هذا رأيي وارجو أن توافقوني عليه » . فوافق ملك انجلترا والبارونات على ما قاله ملك فرنسا وقالوا انه ينبغي رد الممتلكات على اصحابها وارجاع كل دار الى ربها ان ظهر أنه مالكها بناء على ما يقدمه من الاثباتات التي تؤكد انه صاحبها .

ثم تقرر أن يرد الفرسان الدور التي نزلوها الى أصحابها الذين هم أعيان البلد ، لكن واجب هؤلاء الأعيان أصحاب هذه الدور أن يتركوا الفرسان والبارونات النازلين بهذه الدور مقيمين بها طول مدة مكثهم فى البلد .

(١٢٥)

حين استسلمت عكا قام صلاح الدين بالتعهد لملكي انجلترا وفرنسا برد الصليب الطاهر الى المسيحيين ، واعادة كل مسيحي ازاء كل مسلم أسره الملكان حين استوليا على المدينة ، وتم الاتفاق بين الطرفين على هذا الشرط والموافقة عليه ،

وكان الباعث للملكين على هذا الاتفاق بهذه الصورة هو حرص كل منهما على تحرير المسيحيين من ربقة بقائهم فى أسر المسلمين .

وحدد صلاح الدين يوماً للوفاء بوعده بـرد أغلب الأسرى الذين فى أراضيه ممن جرى عليهم الرق ، وان يرد معهم الصلبان التى أخذها من كنائس المملكة ، وان يتم تبادل الأسرى المسلمين والمسيحيين على السواء ، لكنه لم يأت فى اليوم المحـدد لتبادل الفداء بين الجانبين بل ارسل رسالة يرجو فيها ارجاء الفداء الى يوم آخر قائلا ان لديه أسباباً تحول بينه وبين الوفـاء فى هـذا التاريخ الذى كان قد حدده هو بنفسه .

ولما كانت عند الملكين رغبة عنيفة فى استـرداد الصليب الطاهر فقد وافقا — بعد التشاور فيما بينهما — على ارجاء الفداء الى يوم آخر .

وحل هذا اليوم الآخر ووقف الملكان وفرسان النصرانيـة وكل ذى سلاح ، وكانوا كثيرين ، وكذلك القساوسة والكهنة ورجال الدين الذين جاءوا من كافة نواحى عكا حفاة ، وتوافدوا الى الموضع الذى حدده صلاح الدين ، تعلوهم الخشية ويجللهم الوقار ، واصطفوا فى انتظار الصليب الطاهر يجيؤهم به صلاح الدين وفاء بعهده الذى قطعه على نفسه ، لكن سرعان ما تبين الملكان انه غرر بهما وبالجميع ، وانه خدعهم جميعاً ، فعم الحزن المسيحيين قاطبة وتملكهم الأسى ، وسفكت المحاجر الدموع سخينة فى ذلك اليوم ، وغشى الهم الجميع لما هم فيه .

(١٢٦)

حين رأى الملك ريتشارد الكل باكين وقد تعالى نحيبهم اذ خدعهم صلاح الدين أخذته الشفقة بهؤلاء المسيحيين وأراد مواساتهم فأمر أن يجيئوا اليه بجميع المسلمين الذين كان قد أسرهم وأوقفهم كلهم فى موضع بين الجيشين المسيحى والاسلامى وان كانوا أقرب ما يكونون الى أبناء ملتهم حتى يروهم بوضوح ، ثم أمر بقطع رقابهم فأخذوهم فى الحال الى حيث أشار ، وكانوا ستة عشر الف محارب (١٨٤) ، وقتلوهم على مرآى من أنظار المسلمين، فلما رآى صلاح الدين بعينى رأسه أن المسيحيين قد حكموا السيف فى رقاب كل من وقع فى أيديهم من ابناء ملته من مسلمى عكا خاف أن ينجح النصارى فى اغتصاب مملكة القدس بعد ذلك ، غمضى الى عسقلان وخربها اذ كانت من البلدان الساحلية المنيعة، وكان الذى حمله على ذلك خوفه من أن يمضى اليها الملكان ويفتحاها فتقع فى أيديهما ومن ثم يتابعان عملها فى الزحف بعد ذلك على مصر سالكين اليها طريقاً غير طريق غزة الذى هو أيسر الطرق واقصرها من فلسطين الى مصر .

(١٢٧)

داهم المرض بعد ذلك كونت فلاندرز وكانت علته خطيرة أفضت الى وفاته(١٨٥)، وكان خلال مرضه يلح على ملك فرنسا أن يحضر اليه ليتحدث معه فى شأن لا يهم أحداً سواه ، وأبدى رغبته الشديدة فى أن تتم هذه المحادثة قبل أن تمتد اليه يد المنون فتخطف روحه .

واستجاب الملك الى الكونت فجاءه وكان راقداً فى فراشه ، فنصحه الكونت أن يأخذ حذره ويحترس لوجود رجال فى الجيش تعاهدوا فيما بينهم تعاهداً أكدوه بالقسم على أن يفتكوا بالملك فيليب ، ولكنه قال انه لن يخبره من يكون هؤلاء المتآمرون .

وعى الملك ما حذره منه كونت فلاندرز وعيا تاماً ولكن تبلبل خاطره وتملكه الغضب الشديد حتى سقط فريسة للحمى الثلاثية التى اشتدت وطأتها عليه شدة كاد معها أن يلفظ أنفاسه ويصبح هو فى عداد الموتى .

★★★

ولقد حدث فى مرضه هذا أن فكر الملك ريتشارد فى تدبير جريمة كبرى يقتل بها ملك فرنسا دون أن تمسه يد ، وكان ريتشارد يتهم بتدبير أعمال شريرة ضد ملك فرنسا ، من ذلك أنه كان قد خطب الى الملك أخته ثم بدى له أن ينكث فى وعده معه فنكثه وتزوج بدلا منها « برنجاريا » أخت ملك نفارة .

ومن أعماله الشريرة أيضاً التى ارتكبها ضده انه استغوى فى أثناء حصاره عكا بعض رجالات فيليب واستمالهم اليه وأدخلهم فى خدمته عن طريق رشوتهم بالمال والهدايا والوعود .

(١٢٨)

وحدث فى الوقت الذى كان فيليب ملك فرنسا فيه مريضاً وطريح الفراش ان عاده الملك ريتشارد الذى ما كاد يدخل عليه وهو مسجى فى سرير مرضه حتى سأله عن علته وكيف صار

الآن ، فرد عليه فيليب انه يرجو رحمة الرب ، وان كان يشعر باشتداد العلة عليه ، فقال له ريتشارد « أتراك مستريح البال مطمئن الخاطر على ولدك لويس ؟ » فسأله الملك « وماذا عن ولدى لويس حتى تسألنى أن كنت مطمئن البال عليه ؟ » ، فقال له « لقد جئتك معزيا فقد مات » !

(١٢٩)

فقال له الملك فيليب « اننى الآن احوج ما أكون الى العزاء ، اذ لو وافانى أجلى فى هذه البلاد فسوف تصبح فرنسا بلا وريث » .

ثم قدر لفيليب أن تخف حدة مرضه بعد ذلك مباشرة وغادرته الحمى .

بعد أن قال ريتشارد للملك ما قاله عن ولده استأذنه فى الانصراف فأذن له فانصرف وهو يظن أنه قد أصاب اربته وحقق رغبته ، اذ قال للملك ما قال ، ولكن هيهات للشر أن يصمد ويقوى أمام الرحمة الالاهية ، فلقد كان ما حاوله الملك ريتشارد واستهدفه تجاه ملك فرنسا جرماً شنيعاً ، لكنه لم يسعد طويلا بما دبره فقد لاحقه العار حياً فى حياته وفى أولاده .

★★★

لما انصرف ريتشارد استدعى الملك اليه كلا من دوق برجنديا ووليم دى بارس Barres وغيرهما من خاصة مستشاريه ودعاهم لأن يقسموا اليمين أمامه وفى حضرته واكد عليهم بكل ما فى أعناقهم من التزامات نحوه تستلزم منهم أن يقولوا له الصدق وان

يصدقوه القول عما وصله من الاخبار التى تكون قد بلغتهم عن موت ابنه لويس ، فقال له دوق برجنديا « انه لم تصل منذ وقت وصولك لحصار عكا اية سفينة من وراء البحار حتى تحمل مثل هذا الخبر ، وما أرى أن ملك انجلترا قد قص عليك ما قص الا بدافع مما انطوت عليه نفسه من الشر لك والحقد عليك ، لأنه ظن ان فى مثل هذا الافتراء الذى القاه على مسامعك ما يزيد فى علتك ويضاعف سقمك الذى تكابده ، راجيا من وراء ذلك الا تشفى وتكون خاتمتك فى ما قال » .

(١٣٠)

الا ان ملك فرنسا — وهو المدرك لأهداف الملك ريتشارد والعالم بها — لم يفعل شيئاً بل راح يسعى فى طلب الأطباء وأجزل لهم العطاء ، ونفحهم بالجواهر الثمينة وسألهم أن يدخلوا الطمأنينة على نفسه وان يبذلوا له النصح عما يفعل حتى يبرأ من علته التى يعانيها ، فاستجابوا له وساعده الرب فبرأ من سقمه ، فلما أحس العافية فى بدنه أمر أن تجهز سفنه ومراكبه وشوانيه وأن تكون على استعداد للابحار الى وطنه ، ثم استدعى اليه بعد ذلك دوق برجنديا وجميع الفرسان الفرنسيين وجعلهم تحت امرة الدوق ، ووصله بالمال الوفير وعهد اليه أن يحل محله فى تصريف الأمور .

ثم اعتلى الملك فيليب ورجاله بعد ذلك مراكبهم وأبحروا (١٨٦)، فلما أصبحوا فى خليج « ساتاليا » Satalia هبت عليهم عاصفة هوجاء عاقتهم عن متابعة الابحار مدة يوم وليلة .

وبينما هم فى تلك العاصفة اذا بالملك يسألهم كم تكون الساعة الآن فقالوا انها توشك أن تكون منتصف الليل فرد عليهم قائلا : « أما والأمر كذلك فاطمئنوا نفسا لأن رجال الدين فى فرنسا يقظون فى هذه الساعة ولا تغمض لهم عين ، وانهم الآن يدعون الرب من أجلنا ويتوسلون اليه أن يكلأنا برعايته ويحفظنا سالمين ، فلا يجوز لنا أن نخشى بعدئذ خطراً » .

ما كاد الملك يفرغ من كلامه هذا حتى هدأ البحر وتابعت السفن رحلتها فوصلوا الى « برنديزى » التى مضى الملك منها الى روما وتكلم مع البابا . وشرح له ظروف الجيش الموجود فى بيت المقدس .

ويقال انه أسرع فى الرحيل ليحول بين الطامعين فى الاستيلاء على كونتية « فلاندرز » وبين تحقيق أطماعهم ، اذ كان كونتها فيليب قد مات وآلت الكونتية اليه هو ذاته .

(١٣١)

والآن فلنمسك عن الكلام عن ملك فرنسا ونخبرك بما كان من أمر ملك انجلترا والبارونات الذين تخلفوا فى البلاد فنقول انه ترامى الى سمع ريتشارد ان المسلمين رحلوا عن مدينة القدس ، وان فى استطاعته هو نفسه احتلالها دون حاجة الى القتال ، ومن ثم افضى الى دوق برجنديا والى بارونات الجيش بما سمعه . فتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يخرجوا ويتركوا عكا فى حراسة شديدة ، وأوسقوا سفنهم بالازودة وبعثوا بها الى يافا ، وأخذوا يرتبون أمر زحفهم ومن ذا يكون على الطليعة ، ومن ذا الذى يتولى أمر المؤخرة . فعهد بالطليعة الى كل من الملك ريتشارد

والكونت « ايمرى » (١٨٧) Aimery . أمـا المؤخـرة فتكـون تحت قيادة دوق برجنديا وجيمس أفسين Avesne .

حين ترامى الى سمع صلاح الدين أن المسيحيين سائرون فى هذا الاتجاه حشد كل عسكره فى محاولة منه للحيلولة دون وصولهم الى يافا ، وانطلق فى أثرهم يتعقبهم يمنة ويسرة ، وأطلق رجاله وراح هؤلاء الرجال يناوشونهم تارة ،ويهاجمونهم تارة أخرى مهاجمة عنيفة ، فكانوا يرهقون ذلك الجانب آونة وذلك الجانب آونـة أخرى .

وعلى الرغم من شدة الضغط عليهم الا انهم تمكنوا مـن عبور نهر «ديستريت» Destreit ،فلما أخذوا فى عبوره أغار المسلمون على المؤخرة غارة شعواء ، ثم أمر الملك فيالقه وكتائبه بنشر علمه الخاص وابرازه للعيان ، وكانوا على مقربة من مدينة يدعونها « دى بفل » des Buffles واعانهم الرب فنصرهم على صلاح الدين ، ولاقى الكثيرون من المسلمين والمسيحيين مصارعهم،وكان من بين القتلى « جيمس افسين » الذى كان موته نكبة فادحة ارفضت لها قلوب العسكر المسيحى، كما لاقى كثيرون غيره حتفهم فى المعركة يومذاك، لكن الشكر لعيسى المسيح على ما أتاحه للمسيحية من النصر (١٨٨) وكان نصرا عظيما .

ولقـد جرت هذه المعركة يوم السابع من سبتمبر قـرب أرسوف .

(١٣٢)

انسحب صلاح الدين الى بيت المقدس هو ومن قدر لهـم الخروج أحياء من هذه المعركة التى جرت فى ذلك اليوم ، لكن أخذ رجالنا فى مطاردتهم وعسكروا على مقربة من بلدة يسمونها « بيت نوبة » وتقع بين يافا وبيت المقدس (١٨٩) .

لقد كان فى قدرة رجالنا الاستيلاء فى هذا اليوم على أورشليم وبقية النواحى التى سبق لصلاح الدين فتحها لولا ما نشب بينهم من نزاع فرّق شملهم ومزق وحدتهم وبدد كلمتهم ، وذلك حين أخذوا فى الكلام فيما بينهم عمن يكون فى المقدمة وعمن يكون فى المؤخرة وهم فى طريقهم للاستيلاء على القدس الطاهرة ، ثم رأوا أن يكون الملك على الطليعة ، وأن يكون الدوق على المؤخرة ، ثم اتفقوا على هذا القرار وذهب كل الى معسكره .

الا أن ذلك حمل دوق برجنديا على أن يتأمل الأمر ويتدبره ويفكر فيه تفكيراً عميقاً ، ويبدو أن قد هداه التفكير هو وأولى الأمر من رجال فرنسا البارزين الى الحضور فأخبرهم بما يدور فى ذهنه ، وقال لهم : « ايها السادة الامجاد : انكم تعرفون معرفة صادقة ان مولانا ملك فرنسا قد رحل عائداً الى الوطن وخلف زهرة فرسانه ، واذا قارنا بينه وبين ملك الانجليز تبين لنا أن ليس عند ريتشارد رجال كثيرون ، فان نحن مضينا الى القدس واستولينا عليها فلن يقال حينذاك ان الفرنسيين هم الذين استردوها بل سوف ينسب الفضل فى ذلك الى ملك انجلترا ، وسيقال انه هو الذى استولى عليها فتلحق المعرة الكبرى بملك فرنسا ، وتنالها الالسن بكل قول جارح ولا تسلم فرنسا من الشانئين القادحين ... فبماذا تشيرون على ؟ » .

وانقسموا الى شعبتين واحدة تضم أشخاصاً يرون البقاء ، وشعبة ترفضه . ومن ثم قال الدوق انه سيظل حيث هو وليتابع الزحف من شاء الزحف .

حين طلع النهار جاء الملك وهو لا يدرى شيئا مما جرى بالأمس من جدل ونقاش ، ومن ثم حمل السلاح هو ورجاله وانطلق بهم شطر بيت المقدس التى كان من اليسير عليه أخذها والاستيلاء على بقية المملكة لولا شجار الأمس الذى أذكاه دوق برجنديا .

وتقدم الملك في زحفه حتى بلغ « سنت صمويل » المعروفة أيضـا باسم مونتجوى Montjoie وأصبح على مسيرة مرحلتين من القدس ، واذ ذاك ترجل عن جواده ليصلى شكرا لله أن أراه المدينة المقدسة ، وكان من عادة جميع الحجاج الماضين الى القدس ان يتريثوا فى هذه البقعة ويصلوا مادامت قبة كنيسـة القيامـة والقبر المقدس قد أصبحا على قرب بحيث تراهما العين ، وبعد أن فرغ الملك من صلاته أبصر ساعيا يجىء اليه من ناحية صديق له فى الجيش يخبره أن دوق برجنديا والجزء الأكبر من الفرنسيين عائدون الى عكـا ، فلما علم الملك برجوع الدوق بلغ الغضب به غايته وعظم أساه واشتد انزعاجه فعاد هو الآخـر من لحظته الى يافا ، ولم يمد الأجل لدوق برجنديا فقد مات ودفن فى مقبرة « سنت نيكولا » فأصيبت المسيحية بخسارة فادحة بسبب رأيه ، ولولا توقفه عن متابعة الزحف الى بيت المقدس ولولا فراقه لملك انجلترا لاستولى المسيحيون على المملكة كلها .

أما ريتشارد فقد ذهب الى يافا فلما رآها غاصة بالمحاربين والسلاح والذخيرة والزاد غادرها راجعا الى عكا (١٩٠) .

(١٣٣)

والآن فانى تارك الكلام عن بيت المقدس ومحدثك عن جزيرة قبرس فأقول ان ريتشارد باعها للداوية بمائة ألف دينار اسلامى ، فلما صارت ملك يمينهم ذهب بهم الظن الى انهم قادرون على التصرف فى حكمهم لها كما لو كان أهلها أشبه ما يكونون بالقرويين العامة من أهل القدس : يسيئون اليهم ما أرادوا اساءتهم ، ويوسعونهم ضربـاً ، ويؤذونهم كيفما شاؤوا فلا يحركـون ساكنـا . وخيل للداوية انهم قـادرون على ان يحكموها بعشرين واحد فقط من

الاخوان الفرسان ، ولكن أهلها اليونان كرهوا حكم الاخوان ونفروا منه ، وراحوا يتذكرون ما كانوا عليه من قبل من رفاهيه ونعمة . وذلك قبل دخول الداوية الجزيرة فكرهوهم ولم يعودوا يحتملون ما يلاقونه من الاهانات التى راح الداوية يصبونهـــا عليهم فثاروا عليهم وحاصروهم في قلعة « نيقوسيا » ولما أبصر الاخوان الفرسان جموعا زاخرة من الناس قادمة لحصارهم ارتدوا على أعقابهم واستولى عليهم الفزع وتسرب اليهم الخوف وقالوا لهم انهم مسيحيون مثلهم تماما ، وانهم لم يأتوا الى الجزيرة بعسكرهم لاحتلالها ، وانهم لو تركوهم يغادرون قبرص لغادروها غير غاضبين ولا ناقمين عليهم . فلما رآى الاغريق تذلل الداوية ومذلتهم أمامهم ازدادوا سفاهة ، وملأهـم الزهو واستبد بهم الغرور وقالوا لهم انهم لن يدعوهـم يرحلون آمنين بل لا بد من معاقبتهم ثارا منهم لأقاربهم وأصدقائهم الذين سبق أن لاقوا العذاب المر والقتل على أيدى اللاتين .

فلما أدرك الأخ « رينالد بوشارت » Bochart كبير الداوية وغيره من الاخوان الفرسان ان لن تأخذ اليونان بهم شفقة ولا رحمة أسلم هو ومن معه امرهم للرب ، وقاموا بالاعتراف وتناول القربان طلبا للغفران ، ثم حملوا أسلحتهم وخرجوا لقتال اليونان .

وتقاتل الجانبان وقيض الرب النصر للداوية ففتكوا بالكثيرين مـــن اليونـــان وأسروا بعضـــهم (١٩١) ، ثم عـــادوا لتوهـــم الى عكـــا ، وشرحـــوا لكبيرهـــم وللرهبـــان مـــا صـــادفوه مـــن يونـــان أهـــل الجـــزيرة ، ثم تشـــاوروا فيمـــا بينهـــم وانتهى قرارهم بالاجماع على ألا يظلوا يعتبرون الجزيرة ملكا لهم ، وقالوا ان ليست بهم حاجة اليها ، واتفقوا على اعادتها للملك رينشارد واسترداد الأمان الذى أعطاه لهم .

وجاء مقـدم الداوية الآخ « روبرت دى سـابليه » Sablé والرهبان الى الملك ريتشارد وسألوه أن يرد عليهم ما أخذه منهم ثمنا للجزيرة ، وأن يعيدوها هم اليه لانهم لن يستطيعوا الاستمرار فى الاحتفاظ بها .

أصبح واضحا للعيان انهم عازمون عزما أكيدا على ألا يستبقوها بعد الآن فى أيديهم ،فلما سمع الملك ما قالوه استرد الجزيرة . ولكنهم لما سألوه الأمان الذى أعطاه لهم اجابهم انه غير راده اليهم لأنهم أخذوا ثلاثة أو أربعة أمثال القيمة التى دفعوها فيه ..

بعد أن استرد الملك ريتشارد جزيرة قبرس من الأخوان الداوية وعادت ملكيتها اليه جاءه الملك « جى » الذى أصبح لا يملك أرضا وصار من غير مملكة وقال له : « انك تعلم يا مولاى انى جردت من كل ما أملك وصرت بلا مملكة ، وانى لأتقدم اليك سائلا إياك أن تبيعنى جزيرة قبرس بنفس الشروط التى بعتها بها للداوية » . فوافق الملك على ما طـلبه الملك جى وقـال له انه يرضيه أن يبيعه الجزيرة بنفس الشروط التى باعها بها للداوية ، فقرت عينا الملك « جى » واغتبط بما تم ، ثم تحدث فى الحال الى مستشاره «بطرس انجوليم» Angouleme الذى كان أسقف طرابلس وأخبره كيف اشترى جزيرة قبرس وكيف انه قد أصبح بذلك فى مسيس الحاجة الى أصدقاء يقفون الى جانبه ويعينونه فيما هو يحاوله الآن من التماس الطرق للاستـدانة ، فسأله الأسـقف وكم من المال يحتاجه ؟ وكم من الوقت يلزمك ليكون عندك هذا المال ؟ » فقال : « شهران ! » فقال له الأسقف انه فاعل ذلك وعسى الرب أن يهديه خلال هذين الشهرين الى ما فيه الخير وسرعان ما ركب احدى السفن واقلع الى طرابلس واستدان ستين ألف بيزنتى من أحد أثريائهـا

واسمه سايس » (١٩٢) Sais كما استدان مبالغ أخرى من « جون دى مــونى de la Moneie وغيرهما من كبار وجوه مواطنيها .

وتمكن بطرس انجوليم ـ قبل انقضــاء شهرين ـ أن يعود بالمال الى الملك « جى » الذى دفع الى الملك ريتشارد ما كان قد اتفق مع الملك جى أن يجمعه له ثمنا للجزيرة ، فأخذ جى المال وذهب فتسلم الجزيرة وأصبح المالك الحقيقى لها .

★★★

ولما طالب الملك ريتشارد الملك جى بالمبلغ المتبقى له وقدره أربعون ألف بيزنتى التمس منه « جى » أن يمهله حتى تصــبح الجزيرة خالصة له ، فلما تم له ذلك عاوده ريتشــارد بالسؤال أن يعطيه المال الذى لازال مدينــا له به وهو الأربعون ألف بيزنتى فكتب اليه جى يسأله اسقاط هذا الدين نظرا لما هو فيه من عسر ذات اليد ومن شدة الفاقة وانه فى حاضره لا يملك شيئا وذكره بأنه فصله وانه تابعه . قبل أن يكون الملك ، وأن الواجب يقتضى من ريتشارد ان يعفيه من سداد ما تبقى من المال اليــه . وكان ريتشارد كريماً فى التنازل عن هذا المبلغ وأمسك — من ثم — عن مطالبته بشىء .

(١٣٥)

مضى الملك جى الى قبرص بعد أن دفع الى ملك انجلترا ستين ألفا بيزنتى واستصحب معه فى ذهابه الى هناك بعض الفرسان الذين جردوا من أملاكهم فى المملكة . ولما أصبحت قبرص ملكا

خالصة له لا يشاركه فيها أحد أرسل الى صلاح الدين يسأله أن ينصحه كيف يستقيم له الحكم فيها ، فأجابه الصلاح انه على الرغم من ان نفسه لا تنطوى على الحب له الا انه ما دام قد توجه اليه بهذا الالتماس ويرجوه أن يمحضه النصيحة الصادقة فانه يقول له أن أحسن السبل لتحقيق ما يسعى اليه من تحقيق غرضه هو انه ينصح الملك جى – أن يتخلى عنها ان أراد أن تسير الأمور في الجزيرة على خير وجه .

حينذاك عاد الرسل الى تبرص وحملوا رده الى الملك الذى فهم النصيحة تمام الفهم .

(١٣٦)

والآن فاني محدثك عما فعله الملك « جى » حين أصبح مالك الجزيرة الذى لا ينازعه في امتلاكها أحد ، ذلك انه أرسل الى أرمينية وانطاكية وعكا والى شتى النواحي رسلا من قبله سائلا كل من يريد المجىء للسكن والاقامة بقبرص أن يبادر بالمجىء ، وسيجد القادمون العطاء الجزيل حتي يطمئن كل على حياته الجديدة فيها .

وسمع الفرسان والسرجندية والأعيان والكبار الذين أخرجهم المسلمون ما قاله الملك « جى » فتوالت وفودهم الى بابه ، بعضها فى أثر بعض ، حتى النساء الشابات ممن ترملن ، وكذلك اليتامى الذين مات عنهم آباؤهم فى فلسطين ، وراح هو يقطع الاقطاعات الواسعة للاغريق وللفرسان الذين أحضرهم معه ، بل وكذلك الاسكافية والبنائين والكتاب العرب عساهم يصبحون فرسانا ومن كبار الاقطاعيين ، وزوج الكل حين وصولهم حسب مكانته : ذكرا كان أو أنثى ، واعان الجميع من جيبه اعانة ترضى من تزوجوا وتكفيهم .

كما أقطع الاقطاعيات الكثيرة لمن سلبت منهم أراضيهم حتى لقد بلغ مجموع من اقطعهم ثلاثمائة فارس ، ومائتى راكب ، هذا بخلاف الآعيان وكبار الملاك الذين آثروا الحياة فى المدن فأجزل لهم العطاء فى شكل أرض يقطعهم اياها ، أو مال يجريه عليهم ، فلما فرغ من توزيع كل شيء رآى ان لم يبق لديه ولنفسه ما فيه الكفاية لمساعدته على اعالة الناس ولو كانوا عشرين فارساً .

★★★

بهذه الصورة استكثر الملك « جى » من سكان الجزيرة ، وانى لمخبرك انه لو اسكن الامبراطور بلدوين [دى فلا ندرز] (١٩٣) القسطنطينية وفعل بها ما فعله « جى » فأكثر من سكانها ونازليها لما ضاعت أبدا من يده لكن بلدوين عاش ومات وهو يريد الاستحواذ على أكثر ما يمكنه الإستحواذ عليه فكانت سياسته هذه سبباً فى ضياع كل شيء من يده ، وصدق فيه قول القائل « الطمع يزيل ما جمع » .

(١٣٧)

والآن فانى سأتوقف عن الحديث عن جزيرة قبرص وسوف أتابع الكلام عنها فى الوقت المناسب ، أما الآن فانى محدثك عن أرض ما وراء البحر فأقول انه حدث فى أحد الأيام ان وصلت احدى السفن التجارية من بعض بلاد المسلمين التى كانت تابعة لشيخ الحشاشين المعروف بشيخ الجبل ، ولما كان الماركيز فى حاجة ماسة الى المال فقد بعث رجاله فاستولوا على هذا المركب ، فلما تناهى الى سمع شيخ الجبل ما فعله الماركيز من الإستيلاء على شيء يخصه هو شخصيا بعث إليه يطلب منه أن يرد عليه كل

ما نهبه ، فرفض الماركيز طلبه ، فعاد شيخ الجبل يحذره أن القتل سيكون خاتمته ان لم يرد عليه ما نهبه ، فأصر الماركيز على موقفه وأعلن أنه غير مستجيب وغير مكترث بما قاله كبير الحشاشين الذى أمر اثنين من رجاله بالذهاب الى صور واغتيال الماركيز ، فلما صارا فى صور التحق أحدهما بحاشية الماركيز وانخرط الآخر فى خدمة بليان زوج الملكة ماريا التى كانت تعيش فى صور ٠

★★★

وحدث فى أحد الأيام ان كان الماركيز وزوجته « ايزابلا » فى الحمام وجاء وقت الغذاء فلم يشأ المركيز أن يتناول غذاءه حتى تفرغ من اغتسالها ، لكن طال بقاؤها فى المسبح وطال انتظاره اياها ، واشتد به الجوع فامتطى جواده مع اثنين من فرسانه وانطلق الى دار أسقف « بوفيه » لعله يجده لم يتناول غذاءه بعد فيقاسمه اياه ، فلما وصل الى هناك وجد أن الأسقف قد سبقه وانه فرغ من طعامه ، فقال الماركيز للأسقف « سيدى الأسقف ، وددت لو شاركتك مائدتك لكن ما دمت قد فرغت من تناول طعامك فسوف أعود الى دارى » ، فقال له الأسقف انه يود أن ينتظر حتى يهىء له شيئا يأكله ، فرد عليه الماركيز أنه يؤثر العودة الى داره ، فلما صار خارج بيت الأسقف فى صور وعلى مقربة من دار الصرافة وفى منتصف الشارع ، والطريق ضيق — كان هذان الرجلان اللذان هما من أصحاب شيخ الجبل موجودين وقد جلس كل منهما على جانب من الزقاق تجاه بعضهما البعض ، فلما صار المركيز بينهما انتصبا واقفين لمقابلته ، وتقدم اليه أحدهما وبيده ورقة كأنما يعرضها عليه فمد المركيز يده لأخذها فاستل الرجل خنجره وأغمده فى صدره ٠

أما رفيقه الذى كان على الجانب الآخر من الطريق فقد وثب على مؤخرة جواد المركيز وطعن صاحبه فى جنبه طعنة سقط على أثرها ميتا (١٩٤) فدفن فى بيت الاسبتارية المعروفين باسبتارينة القديس يوحنا .

ولقد جرى هذا الحادث فى سنة ١١٩٢ من تجسد سيدنا عيسى المسيح .

(١٣٨)

أمضى الملك ريتشارد ردحا من الوقت فى « يافا » ثم جاءه الخبر من وراء البحر ان ملك فرنسا فيليب قد عاد الى مملكته معافى فى بدنه ونفسه ، وانه شن غزوة استولى فيها على قلعة « جيسور » (١٩٥) الضخمة Gisors الواقعة على الحدود النرمندية ، وان فيليب يريد الاستيلاء على جميع البلاد الموجودة هناك ، فلم يكن من ريتشارد الا أن غادر يافا وشد رحاله حتى بلغ عكا .

ثم جاءه الخبر بعدئذ بمصرع الماركيز على أيدى الحشاشين ، ولاكت الألسن ان ريتشارد هو المسئول عن مقتله وان له يداً فى اغتياله بل انه هو الذى دبر الاغتيال ، وزاد الناس فقالوا انه كان يلاحق الحشاشين حتى يرسلوا من لدنهم رجالا يثبون على ملك فرنسا ليقتلوه هو أيضا .

وسواء أكان ذلك حقا أم افتراء فقد أخبر الناس الملك فيليب بعد ذلك بالأمر فزاد فى الحراسة من حوله ، وظل فترة طويلة لا يأذن لمجهول أن يقترب منه .

كذلك لم يسلم الملك « جى » هو الآخر من بعض السنة توم تناله وتتهمه بأنه ضالع فى اغتيال الماركيز ، وارجعوا سبب ذلك الى الأسلوب المهين الذى اتبعه كونراد مع « جى » حين قدم هو والملكة « سيبيلا » من طرابلس وأرادا دخول مدينة صور فحال بينهما المركيز وبين دخولها .



حين تحقق عند ملك انجلترا خبر هلاك الماركيز مضى فى ساعته الى صور ونزل على نصيحة بارونات مملكة بيت المقدس ، فأخذ معه كونت هنرى ، وكان هدفه من وراء ذلك أن يهيىء الجو ليزوجه من ايزابيلا أرملة الماركيز ، وتكلم الملك الى الكونت وأنبأه برغبته فى أن يزوجه من تلك السيدة الأرملة ، وان أعلمه انها حامل من الماركيز ، واتفق معه على انها اذا أنجبت ذكرا كان الوليد هو الوريث للمملكة ، فرد عليه الكونت قائلا « وحينذاك سأصير ملازما لهذه السيدة لا أفارقها ، وستعرف أنت حينذاك انى لن أستطيع الذهاب الى شامبين » .

فقال له الملك « لئن وفيت بما تقول فسوف أعطيك أكثر مما سوف تحصل عليه من رجوعك الى شامبين ، وأقسم لك غير حانث فى يمينى أن لو ردنى الرب سالما الى انجلترا لأؤيدنك ولأ ساعدنك بجند كثيرين ، وأفتح بقية مملكتك من اجلك كما أفتح ممالك الوثنيين ، وأعدك بمزيد من العسكر حين وصولى الى هناك واغزوا امبراطورية القسطنطينية ، وستجد عوناً كبيراً منى ، وسأعطيك جزيرة قبرص التى فتحتها انا بنفسى طالما أن الملك « جى » لم يدفع لى المبلغ المتبقى من ثمنها وهو أربعون الف بيزنت وسأخرجه منها ولكن لن أسمح له بالرحيل حتى تتم اعادة الجزيرة لى » .



لما سمع الكونت ما قاله الملك ريتشارد وافق أن يتزوج من « ايزابيلا » على هذه الشروط والتأكيدات ، ويقال ان معظم أهل المملكة ـ بما فيهم كبار رجالاتها ـ أقسموا لكونت هنرى أن يجعلوا ذريته ملوكا على بيت المقدس .

لم يكن الذين أقسموا هذه اليمين للكونت هنرى مرتبطين بمثل هذه اليمين للمركيز ولا لنسله (١٩٦) .

(١٣٩)

أما البيازنة الموجودون فى صور والذين كانوا قد أقرضوا الماركيز مالا فقد فزعوا أن يضيع ما اقرضـــوه اياه ولا يستطيعون استرداده ، لذلك حاولوا الوصول الى اتفاق مع الملك (جى) فبعثوا اليه سرا من يفهمه انه اذا جاء الى المملكة أعادوا اليه مدينة صور . غير انه حدث ان تمكن الملك ريتشارد من القبض على بعض هؤلاء الرسل على غير توقع منهم . وكان مصرع الماركيز يوم الاثنين فلما كان الغد الثلاثاء تزوجت ايزابيلا من الكونت هنرى (١٩٧) ، فأرسل ريتشارد فى الحال رسولا من ناحيته بحثا عن الملك « جى » فوصل الرسل كلهم فى وقت واحد ، ولم تعد الخطة طى الكتمان .

★★★

أما صلاح الدين الذى لم يكن يدع فرصة تنفعه الا استغلها ، فقد عرف ان الملك ريتشارد قد غادر يافا وجاء الى عكا ، لذلك حشد كل عسكره ومضى لحصار يافا ، وجلب من أجل ذلك كثيرا من آلات الحصار ومن البطاريات والمجانيق لهدم القلعة ، وداب على رميها بما معه من آلات القتال حتى لم يعد من بداخلها يذوقون

طعماً للراحة ليلا ولا نهاراً ، ومن ثم لم يكن منهم الا أن أرسلوا الرسائل الى ملك انجلترا يخبرونه ان السلطان يكثف محاصرته للقلعة التى كان قائما بحراستها ، وانه اذا لم ينهض فى لحظته لنجدتها غلا محالة فى ضياعها . فلما تناهى هذا الخبر الى سمع الملك ريتشارد اضطرب أشد اضطراب ، وغضب أعظم الغضب فأرسل فى الحال فى طلب الأشراف الذين كانوا فى عكا وأطلعهم على الكتب التى وصلت اليه وفيها كيف حاصر صلاح الدين قلعة « يافا » ، ثم سألهم عما اذا كانوا سيساعدونه فى انقاذ يافا فأجابوه جميعا وفى صوت واحد انهم سيصحبونه من أجل خدمة المسيحية .

واتفقوا على أن يذهب الملك بحرا ، ويخرج الفرسان برا ، ثم خرجوا بعد أن جعلوا على الطليعة « هيج الطبريانى » وبلدوين صاحب « بيسان » ، أما المؤخرة فجعلوا عليها بليان الابلينى ووليم الذى هو من طبرية .

حين علم المسلمون ان الملك ريتشارد قادم لانقاذ يافا ضاعفوا جهودهم وهجماتهم التى راحوا يشنونها على حصنها ، فلما رأى من بداخل الحصن ان أمورهم تسير من سىء الى أسوأ طلبوا كتاب أمان حتى يبعثوا بالرسل الى صلاح الدين ليدبر أمر استسلام الحصن لقاء الحفاظ على أرواحهم . وكان مبعوثاهم فى هذا الصدد هما « راندولف » أسقف بيت لحم ، وآخر اسمه « أوبرى من رينز » Aubry de Reins

★★★

خرج الملك ريتشارد من عكا على رأس عسكره وقت صلاة الغروب ووصل الى يافا عند طلوع النهار (١٩٨) ، وجاءت عيون صلاح الدين الى مولاهم يخبرونه أن النجدة المسيحية لمن فى يافا

على وشك الوصول وان الملك قادم بحرا ، فأمر رجاله بهدم الحصن وسرعة الاستيلاء عليه فلبى المسلمون أمره وهاجموا القلعة واستولوا عليها ، وما كادوا يأخذونها ويحتفلون بذلك حتى شوهد الملك ريتشارد يصل الى ميناء يافا ويسمع الهتافات ، فتقدم من أحد الرجال الذين كانوا تحت سور المدينة وسأله ما خبر هذا الصياح ؟ فأخبره الرجل ان المسلمين قد استولوا على القلعة وأحدقوا بالنصارى وأسروهم، فأقسم ريتشارد ان لن يمكنهم من استرقاقهم، ثم لبس درعه وعلق مجنه الى رقبته ، وحمل بلطة دانيمركية وقفز الى البحر فى اثر رجاله ، ثم تسلق سور الحصن وخلص المسيحيين من الشدة التى هم فيها ، فلم يقع أحد منهم أسيرا .

وهكذا أوفى الملك بقسمه .

(١٤٠)

أمر الملك من كانوا على السفن ان يصنعوا أوتادوا خشبية ، وان يتخذوا من جذوع الأشجار ومن القلاع الملقاة أمام الحصن ستاراً لدفع هجمات المسلمين ، فما كان أسرع هؤلاءِ الرجال الى تنفيذ أوامره واقامة المتاريس حيث ينبغى أن تقام .

وكر المسلمون فى ذلك اليوم كرة عنيفة على الملك ورجاله ، واشتبك الجانبان فى صراع بالأيدى ، والتحموا برجالنا الذين كانوا يحاربونهم من خلف هذه المتاريس . ودافع الملك ومن معه عن أنفسهم دفاع الابطال ، فكانوا أشبه بالليوث الغاضبة ، اذ لا تكاد طائفة من المسلمين تدخل من ناحية حتى يرغموها على الخروج من ناحية أخرى . والحق ان الملك أظهر شجاعة عظيمة حتى لقد تحطم

مقبض بلطته واضطر للدفاع عن نفسه بيده وطرف درعه ، ولكنه كان اذا ضرب خصمه أوقعه أرضاً قتيلا قد فارقته روحه .

★★★

وعادت طائفة من المسلمين الى معسكرهم ، فتساءل صلاح الدين عما دعاهم للعودة قبل الاستيلاء على الحصن فأخبروه أن ملك انجلترا كان قد عاد فأنقذ البلد .

وراح سيف الدين ـ أخو صلاح الدين ـ يتساءل آين يكون الملك ؟ فدلوه عليه وكان واقفاً مع طائفة من رجاله على ربوة مرتفعة بعض الشيء .

ولما كان سيف الدين هذا رجلا فاضلا يعنيه الخير والشرف فقد أرسل هدية الى الملك صحبة واحد من مماليكه ، وكانت الهدية جواداً ولكنه حرون ويعانى ألما شديداً فى شدقه ، وكلف سيف الدين مملوكه ان يقول للملك انه ليس من اللائق به ان يقاتل مترجلا ، الا ان الملك كان يدرك سوء نية المسلمين ، فعرف ما يعانيه الجواد من الألم ، ومن ثم كلف ريتشارد المملوك رسول سيف الدين أن يمتطى الحصان ويعدو به سريعاً ، فما كاد المملوك يمتثل للآمر ويعدو بالحصان حتى أدرك انه حرون ، وحينذاك قال له الملك : « يا هذا ، ارفع الى مولاك شكرى واعد اليه حصانه وقل له انه ليس بيننا من الصداقة ما يدفعه لأن يبعث الى بمثل هذه الدابـــة التى ما بعث بها مولاك الى الا وهو يبغى حتفى » .

استرد المملوك الدابة ورجع بها الى مولاه وأخبره أن ريتشارد قد رد عليه هديته ، فما كان من سيف الدين الا أن أمر نفس المملوك ان يأخذ الى الملك ريتشارد جوادا غير هذا الجواد ، ويكون جوادا مذعانا أكثر من سابقه ، وحينذاك أمر الملك الحداد أن يخلع حوافر

الجواد ويبدلها بغيرها ووضع له لجاماً ودعا رجلا ليركبه فكان هذا الجواد أسهل مراسا ، فامتطاه الملك وأظهر كثيراً من أعمال الفروسية .

ولما كان اليوم التالى وصل الجيش والفرسان الى يافا وأمر صلاح الدين بتعذيب أسقف بيت لحم « واوبرى دى رينز » فضربا وقسايا الأمرين حتى لقد ماتا فى السجن .

(١٤١)

بعد وصول الجيش وبعد أن استرد الملك يافا شب شقاق عنيف بين صلاح الدين وأمرائه وان لم يعلم به رجالنا الا بعد رحيل المسلمين عن قاعدتهم القريبة من يافا ، والا بعد ذهابهم الى معسكر نصبوه بين اللد والرملة .

أما الملك فقد مضى ليضرب معسكره عند يازور (١٩٩) القريبة من يافا ، فلما علم صلاح الدين ان الملك جاد فى تعقبه تخوف من أخيه « سيف الدين » وبعض أمرائه فلم يجرؤ على الاستمرار فيما هو فيه من الاقامة حيث هو بل فك خيامه وخرج على رأس ثلة صغيرة متجها الى جنوب فلسطين لحراسة الكرك والشوبك التى كان قد استولى عليها منذ قليل (٢٠٠) .

أما الملك فقد عسكر بالقرب من حصن للداوية يقال له « تورون دى شيفاليه » (٢٠١) أو « اللاتيرون » وهو واقع بين الرملة والقدس .

واتصل بعض البدو بالملك فأعطاهم كتاب أمان بالمرور فعاهدوه أن يخلصوا فى خدمته وان يكونوا عيونا يخبرونه على الدوام بتحركات صلاح الدين وبكل ما يجرى فى بلاد المسلمين .

ولما سمع مماليك الامراء بثراء الملك ريتشارد وكثرة عطاياه وان بابه مفتوح على مصراعيه لكل من يغضب منهم مع مولاه فقد فر اليه الكثيرون من المماليك حتى جاوز عدد هؤلاء الفارين ثلاثمائة مملوك ، كما أن الملك اصطحب معه منهم حين مغادرته هذه البلاد الى ما وراء البحر ما لا يقل عن مائة وعشرين مملوكا .

وعلم الجواسيس البدو ان قافلة كبيرة قادمة من مصر فى طريقها الى دمشق فجاؤوا الى الملك ريتشارد وقصوا عليه خبرها ، وذكروا له انها أغنى قافلة خرجت منذ سبع سنوات ، وكانت ترى انها آمنة فى خروجها وان لا خوف عليها لأن ملك فرنسا عاد الى بلاده مع رجاله الفرنسيين الذين خلفوا الملك ريتشارد فى شرذمة ضئيلة مما يجعله فى موقف صعب اذ لا يستطيع أن يتعرض للقافلة اثناء مرورها بين الجبال ، زد على ذلك أن رجال القافلة كانوا على علم بالمنازعات التى جدت بين المسلمين ، كما يدركون ماذا كان عليه وضع الملك ريتشارد .

وكان صلاح الدين قد أرسل مع القافلة الف دارع لحراستها حتى تصل الى الغور (٢٠٢) .

حين علم الملك ريتشارد من البدو خبر هذه القافلة طلب منهم أن يستطلعوا طبيعة الناحية ليرى من أى الجهات يستطيع أن تكون له الغلبة عليها فى يسر ودون أن يكلفه ذلك من أمره عسرا ، فأجابه البدو أنهم فاعلون ما سألهم اياه ، وكان غرضه من هذا السؤال أن يقف على مدى حسن طويتهم نحوه وحتى يسهل عليه أخذ القافلة فى غير مشقة ، ولم يبخل عليهم ريتشارد بالمال بل بسط لهم كفيه فى سخاء فرحلوا وهم يتباهون بالمال الذى منحهم وبالعطايا التى أغدقها عليهم مما حمل غيرهم على التجسس له والمجىء اليه بمزيد من

خبر القافلة وسير الأمور فى البلاد الاسلامية ، التى لم يعد شىء بعد ذلك يحدث الا وعند ريتشارد خبر به .

★★★

أخذ البدو فى تعقب القافلة والتجسس عليها حتى اذا صارت على مسيرة مرحلة واحدة من معسكر الملك أنباؤه بذلك فعاد فأجزل لهم العطاء بصورة فاحشة ، ولما أيقن الملك أن القافلة قد أصبحت قريبة منه تسلح هو وفرسانه ومقدموه ، ولكن لم يكن لدى أحد منهم فى هذه اللحظة سوى القلنسوة الضيقة ، فان شوهد أحد عنده أكثر من ذلك كان ملكا أو كونتا او لوردا كبيرا .

خرج الملك بعسكره عند طلوع الفجر وذهبوا الى ناحية تعرف بالصهريج الأحمر ، وتقع الى جنوب الطرق الواصلة بين يافا والقدس حيث وجدوا أهل القافلة قد اناخوا ركابهم وحطوا رحالهم ونصبوا خيامهم ، فلما رآهم الركب المنيخ هبوا الى سلاحهم ووقفوا للدفاع عن أنفسهم ، لكن لم يجدهم ذلك نفعاً اذ هزمهم الملك واستولى على القافلة بأجمعها (٢٠٣) ، (وكان ذلك يوم ٢٣ يونيو ١١٩٢) . ويقال انه قتل فى هذا اليوم ألف ومائتا مسلم .

وساق الملك القافلة الى يافا ثم عاد هو ورجاله سالمين غانمين .

لم تتجاوز خسارة المسيحيين ستين رجلا ، وان لم يسبق لهم قط أن وقع فى أيديهم مثل هذه الغنيمة التى أخذ الملك فى توزيعها على الفرسان والسرجندية والعسكر ، وتبقى له منها بعد ذلك الشىء الكثير .

★★★

حين فرغ الملك من ذلك غادر يافا ومضى الى عسقلان للعمل على زيادة تحصينها ورفع روح رجالها المعنوية، ثم انثنى الى داروم التى أسلمها اليه الداوية ، فلما فعل بها ما فعله بعسقلان اطمأن باله ، وقد استغرق ذلك منه الشهور الأولى من سنة ١١٩٢ (٢٠٤) .

حين رأى صلاح الدين ان الأمور تجرى بما فيه صالح الملك ريتشارد أسرع فحشد عسكره وهب لمحاصرة «داروم» فرد عليه الملك ريتشارد بأن جمع هو الآخر أكثر من يستطيع جمعه من المحاربين وانطلق بهم لنجدتها ، وكان به شوق كبير ولهفة عظيمة لمقاتلة صلاح الدين ومحاربته وجها لوجه ، وكان يدرك انه ان فعل ذلك وتسنى له ان يلقاه بقوة اضافية فانه لابد وأن يلحق به الهزيمة ، مما يؤدى بلا مشاحة الى استحواذه على المملكة قاصيها ودانيها ، وسيكون نصره كبيرا على خصمه ٠

★★★

لقد تناقلت الألسن أخبار ريتشارد وذاع اسمه ذيوعا بث الخوف فى نفوس المسلمين حتى كانت نساؤهم اذا أزعجهن أطفالهن بالبكاء رحن يخفنهم بذكر اسمه ويقلن لهم « اسكتوا والا جئناكم بملك انجلترا » وكان الفارس المسلم اذا عثر جواده أو كبا به صاح به : «الالعنة الله عليك !! . أتظن انك مصادف ملك انجلترا فى هذه الغابة » ، كما انه اذا جاء بدابته الى غدير من الغدران لتشرب ثم أحجمت الدابة عن الشرب صرخ بها : « اتحسبين ان ملك انجلترا فى هذا الماء !! » ٠

(١٤٢)

لم تنقض الا فترة وجيزة حتى كتب صلاح الدين الى الملك رسالة يقول فيها « إنه لو أراد الرجوع الى بلاده فما عليه الا عقد هدنة يرد اليه بمقتضاها جزءا من المملكة يكون قد سلبه من المسيحيين » ، ولم يدفع صلاح الدين الى هذا المسلك الا خوفه من أخيه سيف الدين الذى كان الملك ريتشارد قد وعده — ان هو

اعتنق النصرانية ــ أن يزوجه من أخته التى كانت من قبل ملكة صقلية ، وخاف السلطان ــ لو تم هذا الزواج ــ أن يخسر هو كل ما كسبه من قبل • ومن هنا قبل التنازل لريتشارد على الأقل عن نصف مملكة بيت المقدس • فلما وقف الملك على رسالتـه أجابه بأنه لا يرضى الا بالمملكة كاملة غير منقوصة ، بما فى ذلك الأراضى التى انتزعها نور الدين زمن الملك عمورى ، فان لم يكن صلاح الدين مستعدا لتسليمه ما أراده فلينقل معسكره الى مصر لانها الموضع الذى يمكنه فيه الدفاع عن نفسه » (٢٠٥) •

★★★

كان الملك جى قد جاء الى عكا فى هذه الأثناء بناء على أوامر من ملك انجلترا ، فلما حضر ولم يجده أراد العودة الى قبرص ، غير ان كونت هنرى الذى كان عالما بالدافع الذى دفع « جى » للحضور أخبره أن ينتظر قدوم الملك ريتشارد • وكان عند « جى » مبرراته التى تدفعه للخوف من التصريح للكونت بعدم استطاعته انتظار الملك ، لأنه ان عرفها لم يأمن غضبته ، ولربما أدت غضبته الى القائه القبض عليه ، ومن ثم راح « جى » يخادع الكونت همفرى وزعم له انه ماض الى يافا لوجود الملك بها فيلتقى به ومن ثم يتلقى أوامره ويعمل بها •

قال « جى » هذا الكلام ليخدع الكونت لأنه يعرف ما وراء استدعائه ، ثم طلب اليه أن يرسل فارسين أو ثلاثة يصاحبونه على ظهر سفينته التى سيبحر عليها ، وكان ذلك منه حيلة أراد بها الاحتيال على الكونت حتى لا يلقى القبض عليه فيصيبه من ذلك الضرر الكبير •

واستجاب الكونت لجى فأرسل معه ثلاثة فرسان كان الكونت يثق بهم تمام الثقة ، وجاء « جى » الى البيازنة وأوحى اليهم انه

سوف يمنحهم كثيرا من الممتلكات وسوف يغدق عليهم الامتيازات الجمة فى قبرص ، وأعلمهم انه يعتبر أن أعظم خدمة يطوقون بها عنقه واجل جميل يسدونه اليه هو أن يخبروا «اوبرت ماری» Aubert Marie قائد السفينة التى ستبحـر به الا يطيع الا ما يلقيه جى بنفسه حين يكون فى البحر وان يكون تلقيه الأوامر من « جى » وحده . فانتحى البيازنة بعضهم ببعض جانباً واستمعوا الى «أوبرت مارى » وحدثوه على انفراد بمطالب الملك جى وعروضه حتى جعلوه يقسم اليمين على طاعة جى وتنفيذ أوامره حين يصبح خارج مياه عكا .

خرج « جى » ومن معه من الفرسان وأبحروا من عكا صادعين لأوامر الكونت ، فلما اصبحوا على مقربة من « حيفا » صـــادفهم قارب صغير فحيوا رجاله الذين كانوا به وساروا بمحاذاته حتى لاصقوه ، واصطنع « جى » الرقة فأنزل فرسان الكونت بهذا القارب وسألهم أن يشكروا الكونت هنرى نيابة عنه .

وانطلق الفرسان الى عكا ، وتابع«جى» ابحاره الى قبرص.

انني لا أراني فى حاجة الى أن أتساءل عما اذا كان الكونت قد غضب مما جرى ومن خديعة الملك « جى » له وحيلته عليه .

(١٤٣)

حدث فى أثناء هذا الابحار (٢٠٦) أن وصل الى الملك ريتشارد بعض الرسائل ، كما جاءه رسل كثيرون يخبرونه ان ملك فرنسا قد احتل كل أراضيه ، وزادوا على ذلك بأن حدثوه ان أخاه « جون » الذى كان فى انجلترا قد حمل المدن والقلاع بل ورجال المملكة كلها على أن يقسموا يمين الطاعة والولاء له هو ذاته وليس لريتشارد ،

فلما طرق هذا النبأ سمعه داخله الخوف الشديد وانزعج غاية الانزعاج ، وأراد من صلاح الدين أن يجدد العرض الذى سبق أن عرضه عليه من قبل فلم يقبله بل رده خائباً ، فلما بعث الى صلاح الدين يعلمه انه راض بعقد هدنة بينهما على الشروط التى كان صلاح الدين قد اقترحها من قبل ، أجابه السلطان بأنه لن يفعل شيئا من ذلك لان ريتشارد هو الذى كان قد رفضها ٠

كان الرسول الذى بعثه ريتشارد الى صلاح الدين هو « بليان » الابلينى ، وقد كلفه الملك أن يبذل قصارى جهده حتى يحقق ما يريده ريتشارد ويرجوه ، لكن بليان فشل فى الحصول من صلاح الدين على الاتفاق المرجو ما لم يرد عليه الملك مدن عسقلان وغزة والداروم ، وان يخرب يافا ٠ ولكن جواسيسه أخبروه بالنبأ الذى تلقاه ريتشارد من وراء البحار ، عن تمرد أخيه وخروجه عليه] ، وحينذاك رجع بليان الى الملك وأفضى اليه بجواب صلاح الدين ، وكيف انه يصر على مافيه ضياع كل ما أنجزه ، فكان وقع ذلك أليما على نفس الملك ، وأدرك ما سيكون عليه موقفه من ضعف أمام أهل مملكته ان هو عاد اليهم دون أن يتم عقد الهدنة المنشودة ٠ لذلك أصدر أمره الى بليان بالذهاب مرة أخرى الى السلطان ، فجاء بليان الى الصلاح واتفق معه أن يعيد اليه عسقلان وغزة والداروم ، على ألا يقيم المسلمون بمدينة عسقلان ، وان تبقى يافا سليمة فى أيدى النصارى ، وان تعقد اتفاقية تتعلق بأرسوف وقيصرية وحيفا ٠

ووافق صلاح الدين على هذه الشروط (٢٠٧) ٠

وعادت عسقلان الى الملك ٠ أما المدن الأخرى فقد أصابها الخراب ٠



وأرسل ريتشارد الى الكونت هنرى فجاء وأقسم على الالتزام بالاتفاق الذى تم التوصل اليه لمدة عشر سنين (٢٠٧) .

ثم انه أخبر الكونت ألا يغضب من تخريب عسقلان أن هو رحل عنها عائدا الى بلاده وقال له : « ان مد الرب فى عمرى فسوف أعود ومعى العسكر الكثيف الذين سوف أسترد بهم عسقلان ومملكتك كلها ، ويتم التتويج فى أورشليم » .

وقام هنرى بتزويد « يافا » بالطعام وأمدها بالرجال والسلاح، ثم غادرها الى عكا فى صحبة الملك .

(١٤٤)

والآن سادع الكلام جانبا عن مملكة القدس وأخبرك عن رحيل ملك انجلترا الذى وجد سفنه ـ حين عاد الى عكا ـ مهيأة فأركبها زوجته وأخته وابنة دوق قبرص ، ثم التمس من روبرت سابليه Sable كبير فرسان الداوية أن يمده بعشرة من الاخوان الفرسان، وباربعة اخوان من كبار العسكر المعروفين بالسرجندية ليكونوا فى معيته وتحت امرته ، والتمس منه أن يتم كل ذلك فى سرية تامة قائلا له « لن أفعل ذلك خوفاً من أن يتفق ملك فرنسا مع بعض الناس على التعرض لى والقاء القبض على وأخذى أسيراً ، فقد سمعت انه وضع رجالا يترصدون لى على طول الطريق » .

★★★

أعـد رئيس الفرسان الداوية والسرجنديـة الذين أختارهم الملك ممن كانت ثقته فيهم كبيرة لا يمكن غمزها . واعتلى الجميع متن المراكب صغيرها وكبيرها ، واندس بين صفوف الذين صاحبوا

الملك جماعة من الجواسيس . وما كادت المراكب تقلع من ميناء عكا وتصبح فى عرض البحر حتى رأى ريتشارد أن ينتقل سرا من سفينة الى أخرى ، لكن لم يصاحبه النجاح فى ابقاء هذا الأمر سرا مكتوما وأمرا خفيا ، وكان السبب فى ذلك أنه كان معه فى مركبه — وهو لا يدرى — جاسوس يرقب ما يجرى وينقل خبره الى من يعنيه الأمر .

ثم أمر الملك بقية السفن بالابحار الى مرسيليا (٢٠٨) .

★★★

أبحر الملك والداوية ووصلوا الى « اكويليا » وهى احدى المدن الكبرى الواقعة على البحر (٢٠٩) ، فلما بلغوها اشتروا بعض الخيول ثم تابعوا سفرهم حتى وصلوا الى دوقية النمسا التى كان دوقها موجودا حينذاك فى بعض القلاع المجاورة ، وحينذاك ذهب الجاسوس الى الدوق فى القلعة الموجود بها وأخبره ان الملك وصل الى هنا ، وقال له : « ها هو ذا الملك [ريتشارد] قد أصبح تحت رحمتك فان شئت القبض عليه استطعت ولم يردك عن ذلك أحد » . فاغتبط الدوق ايما اغتباط حين سماعه ما قاله له الجاسوس لأنه رآى فى هذا العرض الفرصة التى تتيح له ان ينتقم منه لنفسه ويمسح عنه عار الاهانة الجارحة التى ألحقها به الملك ريتشارد من قبل فى عكا والتى ثلمت شرفه ، حين أمر بغلق الأبواب فى وجهه وسلح رجاله . ثم مضى الدوق مع الجاسوس الى المكان الذى يقيم به الملك الذى ما أن ترامى الى سمعه وسمع رجاله جلبة من قدموا للقبض عليه حتى فزعوا أشد الفزع واستولى عليهم الذهول ، وضاقت بهم السبل فلم يعودوا يدرون ما يفعلون . وهنا خطر للملك ريتشارد خاطر فقد ذهب الى المطبخ وخلع ثيابه الدالة على مكانته وارتدى بدلا منها زى الطهاة الذى ما يراه به

أحد حتى يظنه طاهيا ، ثم زاد فأخذ سفودا ووضع به بعض الدجاج وشرع فى شيها ، ثم جاء الجاسوس الى هذا المكان مفتشا عن الملك فلما عثر عليه قال له : « قم أيها السيد الكريم والمولى العظيم ، فانك أجل من أن تكون طباخا ، قم فان الدوق يريد التحدث اليك ! » .

ثم التفت الجاسوس الى أتباع الدوق وقال لهم : « انظروا أيها السادة ها هوذا الملك بين أيديكم .. ألا فاقبضوا عليه » .

(١٤٥)

كان الفضل فى تعرف أتباع الدوق على الملك والقبض عليه وأخذه الى الدوق راجعا الى هذا الجاسوس الذى اندس بين رجاله وهم على ظهر المركب ـ فلما صار ريتشارد فى حضرة الدوق أمر الأخير بتشديد الحراسة عليه مع حسن معاملته واظهار الاحترام اللائق بمكانه العالى ، ثم أمر بوضعه فى أحد الأبراج حتى يبعث الى الامبراطور هنرى فيخبره حتى يرى رأيه فيه ، فلما وقف هنرى على الخبر غمره السرور ثم أصدر أمره الى الدوق أن يرسله اليه ، فأطاعه الدوق فى الحال ، فلما وصل الى الامبراطور حبسه وأمر ألا يخرج من محبسه حتى يفتدى نفسه (٢١٠) .

★★★

وسوف أخبرك عن الكراهية المتبادلة بين ملك انجلترا ودوق النمسا ، ذلك انه حين استردت عكا من يد صلاح الدين ومن المسلمين كان دوق النمسا هو و « فلرام » Valram دوق « ليمبورج » Limburg مقيمين فى المدينة فأرغمهما مارشال الملك ريتشارد على

ترك مسكنهما واخرجهما منه اخراجا مذلا أثار غضبهما ، فلما اتيحت لهما فرصة الثأر لم يتأخرا عن اغتنامها ، وأدى ذلك الى اشتعال الحرب الضارية والكراهية السوداء فكان فى ذلك دمار كثير من الممالك وضياعها (٢١١) .

★★★

حين علم ملك فرنسا ان ملك انجلترا أصبح على التراب الألمانى أمر بحراسة الطرق ، وحشد قواته ثم دخل بها أرض ملك انجلترا ، وشرع يستولى على المدن والقلاع واحدة بعد أخرى ويحرق منها ما يستطيع احراقه ، بل انه أمسك ايرل ليسيستر Leicester الذى كان الملك قد عهد اليه بالحفاظ على نرمنديا وعلى جميع الأراضى التابعة لريتشار فى هذا الجانب من القتال (٢١٢) .

لقد ظل ريتشارد فى الأسر زمنا طويلا .

وكان هذا فى سنة ١١٩٤ م .

(١٤٩)

حاول ريتشارد — فى أثناء وجوده سجينا لدى الامبراطور — أن يلتمس فرصة يتحدث فيها اليه ليخبره الا جدوى تعود عليه من وراء حبسه ، أضف الى ذلك انه لم يخطىء فى حقه ، زد على ذلك ان الامبراطور لم يأسره فى حرب ولم تكن بينهما معركة دارت فيها عليه الدائرة فوقع فى أسره ، لكن لم يكن لذلك كله من أثر فى نفس الامبراطور الذى كان يسعده بقاء ريتشارد فى أسره ، عساه

يفتدى نفسه بقدر كبير من المال الذى طال الجدل حول مقداره حتى بلغ مائتى ألف مارك من الفضة ، وتم الفداء على هذا القدر فأرسل الملك ريتشارد الى انجلترا فى طلب هـذا المال وحصل عليه ، كما بعثوا اليه بالرهائن ليسلمها الى الامبراطـور لتبقى لديه حتى يتم دفع بقية الفدية المتفق عليها ـــ والتى ارتضياها ـــ كاملة غير منقوصة .

لقد أقسم ريتشارد أن يسدد المال فى الوقت الذى يحدده الامبراطور بنفسه ، فلما رأى الامبراطور الرهائن عنده تأكد لديه أن ريتشارد لابد موف بعهده ، وحينذاك اذن له بالرحيل .

لقد راح ريتشارد يحث أصدقاءه وأنصاله على مساعدته فى جمع المال المطلوب ، ويقال انه أعـّد جياداً على طول الطريق تتناوب نقله حتى يصل الى بلاده فى أسرع وقت ، حتى ليقال أنه طوى رحلة أربعة أيام فى يوم واحد .

ولقد عجز ملك فرنسا عن حراسة الطرق حراسة جيدة حتى يحول بين ريتشارد وبين وصوله الى بلاده .

ما كاد ريتشارد يصل الى انجلترا وتطأ قدماه ثراها حتى أخذ فى جمع المال لدفع بقية فديته التى أرسلها الى الامبراطور ليطلق سراح الرهائن ويفك الأسرى الذين قدمهم وليحرر نفسـه على وجه الخصوص من اليمين التى أقسمها على نفسه (٢١٣) .

ولقد قيل أنه لم يبق فى أية كنيسة من كنائس انجلترا كأس ولا مبخرة من المباخر ، فقد أخذ ذلك كله لاتمام الفدية ، ويقول الناس أن الامبراطور استولى على معظم هذه الفدية ، وشاركه الدوق فى نصيب منها ، كما راح بعض منها الى ملك فرنسا نظير الاذن لهذا المال بالمرور بأرضه .

على أن الملك ريتشارد لم يركن الى السكون بل كان سريع التحرك الى جانب ما كان لديه من الدهاء الوافر ، حتى انه استطاع أن يجمع جنوده وعبر بهم البحر واسترد الأراضى التى كان فيليب قد انتزعها منه وقت أن كان يعانى مرارة الأسر . ثم جاء الى قريبه « اوتو » الذى كان ابن دوق سكسونيا وجعله كونتا على « بواتييه » ، ثم أضرمها حرباً ضروساً على ملك فرنسا .

(١٤٧)

علم الكونت هنرى ـ بعد رحيل ملك انجلترا ـ أن البيازنة بعثوا الى الملك « جى » يسألونه القدوم عليهم وأخذ « صور » . فأغضبه هذا النبأ غاية الغضب .

كان للبيازنة فى ذلك الوقت ببلاد الشام قوة كبيرة تزيد عما كان للجنوية ، وكان البيازنة قد جهزوا سفنا استعملوها للقرصنة فى المياه السورية ، وعرف الكونت هنرى أنهم قدموا وأنزلوا الاضرار بالسفن القادمة الى بلاده والخارجة منها ، فطلب من البيازنة المقيمين فى مدينة عكا أن يبذلوا جهدهم ليمنعوا رفاقهم وبنى جلدتهم من القيام بأى عمل يعود بالمضرة على أهل المملكة ، ولكنهم لم يعيروا هذا الرجاء التفاتا ولم يستجيبوا له مما نجم عنه نزول الأذى بمن كانوا يفدون على المملكة ، ولم يكف الأهالى عن بث شكواهم يوميا الى كونت هنرى الذى استدعى اليه البيازنة وأخبرهم انه من الأمور التى لا يمكن استساغتها والتغاضى عنها أن يأتى أناس من بيزا الى المياه القريبة من عكا ويتعرضوا للوافدين عليها ولمغادريها بالسرعة من جانب هؤلاء القراصنة .

وحاول « اميرى دى لوزنيان » قائد قوات مملكة بيت المقدس وشقيق الملك « جى » ان يبرىء ساحة بيازنة عكا وينفى عنهم هذه التهمة التى يرميهم بها الكونت ، وانه اذا كان هناك ثم لوم يوجه الى أحد فلا يصح أن يوجه بحال من الأحوال للبيازنة الذين انكروا بدورهم هم أيضاً أن تكون لهم اية مسئولية عما يجرى من هذه الأمور ، لكن الكونت لم يستمع الى دفاعهم ولا اكترث بدعواهم ، بل زادت حدة غضبه زيادة حملته على نفيهم من البلاد ، وهددهم بانه سوف ينفى من أراضيه من يجده منهم بها ، كما قال انه أن وجد أحداً منهم بعد ذلك كان مصيره الشنق .

★★★

وأراد الكونستابل « ايمرى دى لوزنيان » أن يمد يد المساعدة الى البيازنة فذكر للكونت أن ليس من الخير نفى مثل هؤلاء القوم الطيبين الذين يؤلفون جالية كبيرة فى عكا ، فزادت سورة غضب الكونت هنرى وقال للكونستابل « انك تريد معاونة هؤلاء البيازنة ضدى لانهم يسعون لتسليم صور الى أخيك « جى » . ولا تحسبن انى غافل عما يفعلون ، ولن أسمح لك بان تكون حراً فى الخروج حتى يسلمنى أخوك « جى » جزيرة قبرس » .

فرد عليه الكونستابل قائلا « ليس من الصواب أن تلقى القبض علىّ بسبب أخى ، فما أنا فصل لك ، وانما أنا كونستابل مملكة بيت المقدس » . فقال له الكونت هنرى « ما كنت أعلم انك الكونستابل ، وما من أحد يحق له أن يعهد اليك بمثل هذه الوظيفة » (٢١٤) .

ثم أمر بالقاء القبض عليه وايداعه الحصن فتم انجاز الأمر وأودع الحبس وان لم يطل حبسه غير يوم واحد .

ولقد ذهب كبار رجال الداوية والاسبتارية وبارونات المملكة الى الكونستابل يسألونه فك سراح الكونستابل ويلومونه على حبسه أياه فى الوقت الذى هو فيه واحد من أعظم رجال المملكة، كما انه فى الوقت ذاته فصل تابع له ، فشرع الكونت يدافع عما فعله ويقول « انه لم يقبله فصلا له ولم يأذن له أن يكون كونستبلا » فبسط له البارونات والعلمانيون رأيهم فيه ونصحوه أن يطلق سراحه لانه أن تركه فى سجنه أفضى ذلك الى أن يجلب على نفسه العار واللوم • فنزل الكونت حينذاك على رأيهم وأطلقه فى اليوم ذاته .

★★★

ولما كان اليوم الثالث منذ « ايمرى » أمام البلاط وتنازل عن وظيفة « الكونستابل » وردها الى كونت هنرى ، ثم شد رحاله الى قبرس فخلع عليه أخوه الملك « جى » كونتية يافا ، ولكن لم يقدر لجى أن يعيش أكثر مما عاشه حتى الآن فقد مات تاركا مملكة قبرس لأخيه « جوفرى » (٢١٥) .

ولما مات « جى » [وقد شارف عام ١١٩٤ على الانتهاء] استدعى القبارصة أخاه « جوفرى » ليكون ملكا فلم يستجب لهم واذ ذاك اختاروا مكانه « ايمرى » .

★★★

ولقد خلع الكونت هنرى وظيفة « الكونستابل » على جون الابلينى (٢١٦) شقيق الملكة ايزابيلا ، ثم انتهى الأمر بهنرى أخيرا الى التراضى مع البيازنة فعادوا الى عكا ، وأعطاهم حماما وفرنا واذن لهم باقامة برج على الشاطىء ، وكان ذلك كله سنة ١١٩٤ (٢١٧) .

حدث فى أثناء حكومة كـــونت هنرى أنكا أن مـــات بطـــرك القدس (٢١٨) هرقل Eracluis وكانت قوانين القبر المقدس تقضى بأن يحل محله «موناخوس» (٢١٩) Monachus رئيس أساقفة قيصرية ويتولى الأمر مكانه ، فلم يستشيروا الكونت ولم يطلعـــوه بهذا العمل الذى أقدموا عليه ، فاشتد غضبه عنــدما اكتشف أن القوانين الدينيـــة تقضى بانه اذا مات البطرك ــ أيــا كان هذا البطرك ــ تم اختيار آخر مكانه ثم يرفعون قرارهم فى هذا الاختيار الى الملك ، فان كان اختيار البطرك قد تم فى ساعات النهار الأولى أخبروا الملك ليبعث اليهم برده ساعة الغروب ، فغضب الكونت مما هو واقع وامر أن تؤخذ القوانين وهدد بالقائها فى البحر لانها تغتصب سلطة ملوك القدس المفروضـــة فى الانتخابـــات (٢٢٠) البطركية . ثم ألقى بهم فى السجن فكان ذلك فضيحة الفضائح .

حينذاك انحى « جوشيوس » Jocius رئيس الأســـاقفة وغيره من كبار القوم باللائمة على الكونت اذ فعل ما فعل مما يعتبر خطأ جسيما باخذه قوانين القبر المقدس ومعاملتها معاملة مزرية . وقالوا له « اذا عرف فى رومة خبر ما جرى كان الأمر اكبر خطورة وقد يؤدى الى الاضرار بك » ، لأنه لو حدث أن أصبح الرجل الذى وقع عليه الاختيار ليكون البطرك لوقف ضد أعمالنا ونصحوه أن يدع الأمور تمر بهدوء وأن يمضى هو فيصلح ما بينه وبين البطرك المنتخب وينسى كل ما مضى » .

وتقبل الكونت نصيحتهم وعمل بها وذهب هو بنفســـه الى رئيس أساقفة قيصر واسترضاه وصالحـــه واقطع ابن أخيـــه رئيس الأســـاقفة المدعـو « جراتيان » Gratian قرية اسمها

« كــوافربول » Quaforbole وتقع فى اقليم عكا . كما أعطاه خمسمائة بيزنت يعول بها نفسه ونصّبه فارساً .

وذهبت القرارات الى رومة ، وعرض الترشيح الذى قضى به لرئيس أساقفة قيصرية ، وتناول الطيلسان والتصديق على رياسته ، واستنكر البابا عمل الكونت هنرى واُصدر مرسوما بابويا (٢٢١) .

وحدث لما قام « جودفرى » Godefrey وغيره من البارونات بالخروج لفتح القدس كان هناك نزاع بين البابا ايربان والملك هنرى ، ثم جاء جلاسيوس Glasius ثم تلاه بعد حين انوسنت الثانى فالبابا اسكندر فالامبراطور فردريك جد الامبراطور الحالى الذى استمر ثمانية وعشرين عاماً .

ولقد اختار فردريك ثلاثة بابوات عينهم للكرسى البابوى ولكنهم ماتوا جميعاً ميتة تبعث على الشفقة (٢٢٢) .

(١٤٩)

كان هناك رجل شرير وقت تتويج ايمرى اللوزنيانى ، وكان هذا الرجل ملكا على قبرص ويدعى « كاناكوى » Canaqui لم يكف منذ عهد اليونان عن الاضرار بالمسيحيين الموجودين بالجزيرة .

حين سمع « ايمرى » بخبره أمر بالقاء القبض عليه وقرر مكافأة قدرها الف بيزنت لمن يأتيه به ليقيم ضده ما تقضى به العدالة ، فلما عرف« كاناكوى » ان الملك جاد فى طلبه فر من

قبرص وذهب الى كيليكية سعياً لايذاء رجل أسمه « اسحق » كان صاحب انطاكية الساحلية والتى اعتاد الناس أن يسموهـا بانطاكية البيسيديانية .

ووجد هذا الآثم الشرير فى هذا الأمير « اسحق » أكبر راع يرعاه ويبسط عليه ظل حمايته فاستقبله استقبالا طيباً لأنه كان يعرف أن المسيحيين يكرهونه أشد الكراهية .

وطلب « كاناكوى » من اسحق أن يجهزه بمركب صغير حتى يحارب القبارصة ، فرحب اسحق بماطلبه هذا الرجل ، وكأنما يحارب القبارصة ، فرحب اسحق بماط لبه هـذا الرجـل ، واتبع وأمره فرأى أن يشاركه فى أعمال القرصنة التى كان يقوم بها حول جزيرة قبرص ، ثم قدر له أن يصادف قاربا به جماعة كان يعرفهم من قبل فسألهم عن أخبار الملك وعن أحوال قبرص ، فأخبروه أن الملكة قد جاءت هى وصغارها ليقيموا فى قرية يدعونها « بارا ديزى » (٢٢٣) Paradhisi القريبـة من سـاحل قبرص الشرقى والى الشمال من « سلاميس » القديمـة ، كمـا أخبروه أن الملكة مريضة ولابد لها من أن تغير الجو ، وانها جاءت تلتمس العافية وكى تسترد صحتها ، فما كاد « كانوكوى » يعـرف محل اقامة الملكة حتى أبحر وأرسى مع بعض رفاقه قرب موضعها ، واذ كان خبيراً بتلك الناحية فتد ظل مرابطاً وكمن حيث هو حتى اذا أطل الفجر تسلل الى القرية فباغت الملكة ومن معها وأمسكها هى وأولادها الصغار وأنزلهم فى قاربه ثم أقلع بهم .

(١٥٠)

بعد أن فر « كاناكوى » سراً بالملكة علا الصريخ وجاء خبر ما جرى الى الملك الذى أغضبه ما حدث ، فهب فى لحظته وانطلق

فى أثره طمعا منه فى أن يلقى القبض عليه ويمسكه هو ورهطه قبل أن يبحروا بعيدا .

وحزن الملك وأقارب الملكة والجميع من هذا الحادث المخزى الذى وقع فى مملكة قبرص . أما « كسانوى » فقد ذهب مزهوا الى مولاه « اسحق » بهذا الصيد الثمين . فلما سمع « ليو » صاحب الجبل وأرمينية بالانتهاك الوحشى الذى لحق بالملك « ايمرى » وسيدته الملكة غص بالأسى لما كانت تنطوى عليه جوانحه من حب لكل من صديقه الملك « ايمرى » ولبلدوين الابلينى ولابنه ، ومن ثم بادر بارسال كتب الى اسحق وصحبه رجل من عنده يقول له فيها انه اذا كان حريصا على حياته فعليه اعادة الملكة وصغارها الى « جور هيجوس » Gorhigos لحظة مطالعته هذه الكلمات .

حين وقف اسحق على هذا الأمر الصادر اليه من صاحب أرمينية انصاع للأمر وأرسل الملكة وأطفالها الى « جورهيجوس » فى أحسن صورة . فلما سمع ليون بوصولهم خف لاستقبالهم استقبالا حافلا ، وبذل كل ما استطاع لارضائهم .

(١٥١)

ما ان بلغت الملكة « جورهيجوس » حتى بعث هو برسول الى الملك « ايمرى » يسأله ألا يكون غاضبا أو يساوره الازعاج ، فقد أصبحت زوجته والصغار أحرارا طلقاء ، وانه أنقذهم من الوقوع فى قبضة عدوهم ، فلما سمع الملك هذا الخبر انشرح صدره وسره الجميل الذى أسداه « ليون » اليه ، وأمر باعداد

السفن ، وذهب الى أرمينية وفى صحبته أكبر رجاله ، فاستقبلوا استقبالا رائعا كله التعظيم والاجلال ، واغتبط هو كل الاغتباط اذ وجد زوجته وصغارهما سالمين فى الروح والبدن ، وبهذا العمل اكتسب ليون صاحب الجبل حب الملك « ايمرى » ، كما شكرته الملكة وأفراد أسرتها على ما أسداه اليهم من يد بيضاء مشكورة غير منكورة وبما طوق به أعناقهم من فضل ومنة .

ولما أخذوا فى الاستعداد للعودة الى قبرس رافقهم صاحب أرمينية من «جورهيجوس» ودعا الملك وجميع رجاله الى أن يشاركوه تناول الطعام فقبلوا دعوته بنفوس راضية ، ولما صار الطعام جاهزاً وهم على وشك تناوله اذ بريموند دى بون بون Bone Bone قبطان السفن يقول للملك ايمرى : « مولاى : انك ان لم تغادر أرمينية حالا فلن تغادرها بعد ذلك بل ستبقى هنا زمنا أطول مما تظن» فسأله الملك عما يقصد من كلامه هذا فقال له ان الجو قلب ، فلم ينكر الملك ما قاله ريموند دى بون بون .

وتألم ملك ارمينية أشد الألم اذ لم يفعل الكثير لارضائهم ، ولما رآى عدم استطاعته أن يحمل الملك على مشاركته هو ورجاله طعامه أمر أن يحمل الطعام كما هو فى قدوره الى السفن التى أبحرت مباشرة نحو « جورهيجوس » وأرست فى « كيرينيا » Kyrenia وما كادت السفن تلقى مراسيها حتى هبت عاصفة شديدة الاعصار وهاج البحر وتعالت أمواجه مزبدة صاخبة ، ولو كانت هذه العواصف البحرية اصابتهم بعيداً عن الساحل لهلكوا جميعاً على بكرة أبيهم ولما بقى أحد منهم على قيد الحياة .

حين رحل بوهيموند (٢٢٤) أمير انطاكية لزيارة ولدى عمومته ملكى انجلترا وفرنسا وقت حصار عكا تسنى لزوجته الشريرة « سيبيلا » (٢٢٥) Sbylla ان تتعرف على ليون الجبليى صاحب أرمينية فتحدثت اليه فى الطريقة التى تحتال بها حتى يأسر زوجها ، وكان الدافع لها على هذا السلوك انه كان للامير زوجة أخرى وكان فقيراً معدماً وغارقاً فى الديون الى أذنيه ، وكان قد تزوج من « سيبيلا » بطريقة ملتوية فوعدها ليون انه سوف يتزوج بها وأنه سوف يلقى بالأمير فى الحبس حتى يعطى انطاكية لولدها ويجعله الوريث ويحرم بقية أبنائه من كل ما يستحقونه .

★★★

ولما جاء الأمير الى انطاكية دعاه ليون لتناول الطعام عند عيون بغراس (٢٢٦) .

فأما الامير الذى كان خالى الذهن تماما ولا يدرى شيئاً عن أية مؤامرة تحاك ضده فقد نزل عند اشارة الأميرة « سيبيلا » وقبل الدعوة وذهب الاثنان هو وهى معا الى عيون بغراس فى موكب حافل ، واستصحبا معهما رعيلا من كبار البارونات الانطاكيين ، كان من بينهم الكونستابل ورالف مونس Mons المارشال ، وأوليفر الحاجب ، وريشييه دى ليرمينيه Richier de Lerminet وطائفة من كبار الاقطاعيين يطول الكلام لو ذكرناهم جميعا ، فلما خرج هؤلاء كلهم لم يبق فى انطاكية ممن له ذكر وجلالة قدر سوى « ايمرى » البطرك وريموند وأكبر أبناء الأمير .



حين أصبح الأمير عند عيون بغراس رآى ليون اســتحالة تنفيذ ما سبق له أن وعد به « سيبيلا » ومن ثم دعاه للذهاب معه الى قلعة بغراس لمشاهدة المكان وحتى يأخذ قسطا من الراحــة والاستجمام ، قائلا له انه أعد له طعام الغذاء هناك فوافقه ورافقه الى القلعة فلما فرغ الامير من تناول الطعام دخل ليستريح بعد أن أمر باعداد جياده للعودة الى انطاكية ، لكن جاءه واحد مــن اتباعه وأفضى اليهم انهم سجناء ، وانه لا قدرة لهم على الرواح .

(١٥٣)

عند ذلك قدم « ليون » الى الامير الذى كان قد أعد بالقلعة رجالا سلحهم بأسلحة كثيرة ، فلما تبين ما دبره من مكيدة للفتك بالملك قال له « ما هذا الذى أرى يا ليون ؟ هل أنا سجين ؟ » فأجابه ليون « أجل ، ان الأمر كما تقول لاننى أريد أن آخذ انطاكية التى طالما وعدتنى بها ثم اخلفت وعدك ، كما أنك أخذت أموالا طائلة منى ، وأحب ان أذكرك انك أمسكت أخى روبين ... حــين دعــوته لتناول الطعام معك وحين صحبك الى انطاكيــة فألقيت بـــه فى الحبس وسلبته أموالا جمة ولم تطلق سراحه ليرجع من حيث أتى أرغمتــه علي أن يسلمــك البلاد الممتدة من نهــر جيحان وحدود بغراس (٢٢٧) . ومن أجل هذا فانى أريد أن تسلمه انطاكية ، وأن ترد المال الذى أخذته منه غصباً ، فان لم تفعل ما أقوله لك فهيهات لك أن تنجو » .

(١٥٤)

لما سمع الأمير ما قاله « ليون » رد عليه قائلا « ترى من ذا الذى سوف يسلمك انطاكية أن بقيت أنا أسيرك هنا ؟ ... دعنى

أرحل وساسلمك انطاكية » ، فقال له ليون : « لن أسمح لك بذلك ، ولكن عليك أن ترسل رجالا من رجالك ممن هم فى صحبتك الآن ليسلموا البلد الى رجالى وانهم لقادرون على ذلك ، فان هم فعلوا ذلك أطلقت سراحك وأذنت لك بالرجوع » • فطاعه الأمير بوهيموند (الثالث) ، وأمر ريشيه دى ليرمينيه R. Lerminet والمارشال بارتيلميو أن يذهبا الى انطاكية ويسلما رسل « ليون » المدينة وفق ما رآه ليون الذى أرسل رسولا من ناحيته اختاره هو بنفسه كان من وجوه قومه من أهل أرمينيا العليا اسمه « هيثوم ساسون » Sasoun (٢٢٨) وكان زوج ابنة أخيه روبين ، وهى التى تزوجت فيما بعد من ريموند أكبر أولاد الأمير بوهيموند ، ثم أنجبت له ولدا عرف بروبين وأصبح أميرا على مدينة انطاكية •

(١٥٥)

حين جاء هؤلاء الفرسان الى مدينة انطاكية ليتسلموها ويسلموها الى أيدى مبعوثى ليون أخبر هيثوم كلا من الماشال وريشموند أن يدخلاها ، أما هو فسوف يقيم فى « سانت جوليان » حتى يفرغوا من فتح أبواب القلعة والنقاط الحصينة الأخرى ، فاذا تم ترتيب الأمور على هذا النسق دخل هو انطاكية •

فلما دخل المارشال وريشييه Richier البلد احتلا بوابة الجسر ثم جاءا الى القصر ، فلما صارا فى ساحته تلفت أحد الخصيان الذين أرسلهم « هيثوم » لاستلام البلد وادار ناظريه فيما حوله ، فرأى كنيسة صغيرة كان الأمير بوهيموند قد بناها (٢٢٩) على شرف « سنت هيلير دى بواتييه St Hilaire de Poitiers ، قال لمن كانوا فى الساحة متسائلا : ما هذا البناء ؟ فلما أخبروه باسم صاحبها ، قال : « نحن لا نعرف كيف نقول سنت هالير ، ولكنا سوف نعمدها وتصبح معروفة بسنت سركيس •

(١٥٦)

ما كاد الخصى يفرغ من كلامه حتى كان رجال الامبراطور الموجودون هنـاك قد اشتد غضبهم بسبب هذا التعـليق المزرى وبسبب ما أحسوه من الألم لمولاهم الأمير ، واذ ذاك ثارت ثائرة أحد الخدم الذى شاء القدر أن يكون موجودا هنـا فى هـذه اللحظة فصاح : « أيها الرفاق والسادة ، كيف تسمحون لأنفسـكم بارتكاب تلك الجريمة ؟ وكيف تقبلون هذا العـار ؟ وكيف ترضون أن يخرج أمر انطاكية من سلطان الأمير ومن أيـدى ذريتـه ، وتسلموها الى هؤلاء الأرمن الشريرين ؟ » .

ثم التقط بعض الحصى والحجارة وقذف بها الخصى فأصابه فى ظهره ، فطرحه الرمى أرضا فصاح الآخرون « الى السلاح » .. الى السلاح !! .. » ، واندفع أهل المدينة عن بكرة أبيهم ناحيـة باب الجسر واحتلوه والقوا القبض على جميع من أرسلهم « ليون » لأخذ انطاكيـة .

(١٥٧)

وتدافع النـاس فى سرعة ، وتجمعت حشودهم فى كنيسـة انطاكيـة الكاتدرائية ، وكان معهم حينذاك البـطرك « ايمرى » فاتفقوا فيما بينهم على أمر أجمعوا عليه ، وكانوا جمعـا لم يسبق له مثيل من قبل حتى يومنـا هذا (٢٣٠) ، ثم ذهبوا الى ريموند ـ أكبر أبنـاء الأمير ـ وأخبروه أنهم يريدون تنصيبه أميرا عليهم وأن يحل محل أبيه حتى يعود الوالد ويخلصه مما هو فيه .

أما « هيثوم » الذى كان مقيما عند سنت جوليان فلم يكد يسمع بتمرد الأهالى ويعلم بثورتهم على أوامر الأمير والقائهم القبض على رجال « ليون » حتى خاف أن يكون مصيره مصير هؤلاء الرجال فيقضى عليه الثوار فتكون فى ذلك نهايته ويلقى مصرعه ، لذلك بادر الى الهروب مسرعا غاية الاسراع وفر الى « بغراس » حيث كان « ليون » فى انتظاره ·

(١٥٨)

ما كاد « هيثوم » يبلغ مدينة بغراس ويفضى بالخبر الى « ليون » حتى القى القبض على الأمير ومن كانوا حينذاك معه وزج بهم جميعا فى سجن الحصن بسيواس ، وأحيط بهم ولكن فى احترام يليق بقدرهم ، وظلوا على هذه الصورة حتى قدم كونت « هنرى » فأطلق سراحهم وعادوا أحرارا ·

(١٥٩)

ولما كان عام ١١٩٤ من التجسد أرسل كل من « ايمرى » بطرك انطاكية وولدى الأمير وهما ريموند وبوهيموند الى الكونت رسالة يلتمسون منه فيها الحضور وتحرير الأب من سجن « ليون » · ووقعت هذه الرسالة وهذا الالتماس من نفس الكونت موقع الرضا والغبطة ، فقد كانت تربطه به رابطة القربى ووشيجة الدم (٢٣١) ، فخرج من عكا حتى اذا بلغ طرطوس تلقى رسالة من كبير الحشاشين يسأله فيها القدوم عليه فى بلاده لصادق رغبته فى التعرف عليه وتدعيم أواصر الصداقة بينهما ، فأثلجت هذه الرسالة قلب الكونت هنرى وذهب اليه راضيا مسرورا ·

بعد أن غادر طرطوس مضى لمقابلة شيخ الجبل الذى رحب به ترحيبا كريما ، وأخذ بيده وجاس به ارجاء بلده وأراه قلاعه ، حتى اذا صارا أمام قلعة « الكهف » التى تعد أقوى قلاعه على وجه الاطلاق مال على الكونت وسأله « هل ترى أشياعك يطيعونك أيها الكونت طاعة أتباعى لى ؟ » ، فقال له الكونت « ما أراهم الا فى مثل طاعة أتباعك لك » واذ ذاك قال شيخ الجبل لا أرى الأمر كما تقول » ثم أمسك بيده خرقة قماش ولوح لهم بها فتسارع من بأعلى الحصن الى القاء انفسهم الى أسفل الوادى الذى تحتهم فهلكوا ودقت أعناقهم ، فلما رأى الكونت هذا المشهد رجاه ألا يكرره أو يعيده على مرأى منه ، فأشار شيخ الجبل اشارة أخرى فكفوا جميعا عما يفعلون ٠

ثم دخل الاثنان : شيخ الجبل والكونت الحصن الذى كان بمدخله أسياخ الحديد المدببة واذ ذاك قال شيخ الجبل للكونت « سأريك كيف يلبى أتباعى أوامرى » ٠ ثم القى بقطعة من القماش كانت بيده فاذا بثلاثة رجال أو اربعة ممن كانوا خارج الباب يلقون بأنفسهم على هذه الأسياخ فهلكوا جميعاً فلما رأى الكونت ما جرى توسل الى شيخ الجبل ألا يفعل ذلك مرة أخرى ٠

(١٦٠)

أقام الكونت هنرى عند شيخ الجبل الذى أغدق عليه الأموال الجمة وأجزل له الهدايا ثم جعل نفسه رهينة عنده هو ومن معه من أصدقائه ، سواء منهم من كانوا فى هذه الناحية أو كانوا فى الجانب الآخر من البحر ٠



ثم رحل هنرى الى انطاكية فلما وصلها استقبل استقبالا كريما ، وراح هو والبطرك يتشاوران مع ابنى الأمير حول اطلاق سراح الأب ، فلما انتهوا من التشاور فيما بينهم حول هذا الأمر غادر الكونت انطاكيا ومضى قاصدا أرمينية ، فلما بلغها خف ليون لاستقباله ورحب به ترحيبا دل على رفيع مكانته ، ثم سار به الى مدينة « سيس » حيث أخذا يتشاوران ، ونجح الكونت فى حمل ليون على اطلاق سراح الأمير من سجنه ، وأن تتزوج ابنة أخيه « روبين » من « ريموند » اكبر أبناء الأمير (٢٣٢) .

(١٦١)

مات الملك « جى » فى سنة ١١٩٥ من تجسد عيسى المسيح ، وبعث أهل قبرص الى أخيه « جوفرى » يخبرونه بوفاة شقيقه ، وقالوا له انه ان جاء لأخذ قبرس أقاموه ملكا عليهم ووضعوا التاج على رأسه ، ولكنه لم يحفل بما قالوا ولم يبال بما عرضوه عليه ، وتمثل ذلك فى عدم حضوره اليهم فاضطر القبارصة - تحت الحاجة - الى تتويج « ايمرى » ملكا على الجزيرة بدلا من أخيه (٢٣٣) .

★★★

ومات فى هذه السنة (٢٣٤) ذاتها صلاح الدين وأخذ أخوه « سيف الدين » مقاليد الأمور فى يده ، وكان من أول ما عمله « سيف الدين » أن قام بحرمان أولاد أخيه صلاح الدين من حقهم فى ارث أبيهم ، بل انه دس السم لواحد منهم اسمه « نور الدين » الذى كان والى دمشق (٢٣٥) .

جاء سيف الدين الى دمشق بعد وفاة صلاح الدين ليولى ابن أخيه امرتها .

(١٦٢)

ولما كان المتبع فى مملكة بيت المقدس أن يقوم البطرك بتتويج ملكها بتاج من الذهب ومسحه بالزيت ، فان المسلمين اعتادوا أن يحملوا أمام من يختارونه للسلطان المظلة التى يسمونها « بالغاشية » ويمرون أمام الناس تحية له ، وهذا ما فعله سيف الدين مع ابن أخيه فقد أمر بحمل « الغاشية » له والسير بها أمام أنظار الجميع كما لو كان يقول لهم « انظروا هذا سلطان دمشق » (٢٣٦)

★★★

كان سيف الدين هذا رجلا موغلا فى الشر ، حقودا ، طماعا ، وكان يتطلع الى أن تكون جميع مقاليد الأمور فى يده ويسعى لاحكام قبضته عليها وحرمان أولاد أخيه من كل شىء . لذلك فانه بعد أن فرغ من تنصيب ابن أخيه وأداء مراسيم الاحتفال به عاد الى حصنه وطلب من ابن أخيه أن يأتيه بتفاح فجاءوا به فتناول مدية صغيرة كان يحملها فى حزامه ووضع السم على طرفها ثم أخذ يقشرها بوسط المدية ثم قطع قطعة ناولها لابن أخيه الذى ما كان يلتهمها حتى سرى السم فى بدنه فأرسل ابن الأخ فى طلب المعالجين ليبرئوه مما هو فيه وأخبرهم أن عمه دس له السم فساعدوه فى التغلب على السم .

(١٦٣)

ما آن رأى سيف الدين ابن أخيه يأكل التفاحة المسممة حتى رحل عن دمشق وأسرع الى نواحى الموصل وتكريت حيث يعيش الأكراد (٢٢٧) ، وحشد هنا حشدا كبيرا منهم ومن المماليك وغيرهم وعاد الى دمشق ، فلما صار خارجها فتحت له المدينة أبوابها واستسلمت له فدخلها ، وجاء الى القصر الموجود به ابن أخيه وحينذاك قام بعض الأمراء الكبار الذين اختارهم السلطان لمسك ابن أخيه ـ وهو مولاهم ـ وجردوه من السيف الذى يتمنطق به ، وكان ذلك رمزا لتجريده من السلطة والنفوذ ، ثم قلدوه لسيف الدين حتى يعرف الجميع أنهم ولى الأمر عليهم (٢٣٨) .

(١٦٤)

باستقرار سيف الدين فى السلطنة بدمشق غادرها ابن أخيه الذى كان واليا عليها ومضى الى أخيه الملك العزيز سلطان مصر وكان أكبر منه .

كان الشخص الذى نتكلم عنه يدعى « نور الدين بن أمير على » ويلقب بالملك الأفضل .

ولما استولى سيف الدين على دمشق وسمع سلطان حلب المعروف بالملك الظاهر وهو ولد أحد أبناء صلاح الدين ، وأقول لما سمع بما فعله عمه مع أخيه استشاط غضبا وثارت حميته مما ارتكبه ، فأمر قائد عسكره بجمع الجند للزحف على دمشق والثأر من عمه الموجود بها ، وجاء « نور الدين » بن صلاح الدين على

رأس الرجال الذين كان أخوه سلطان مصر قد أسعفه بهم ، فحاصروا المدينة وضيقوا عليها الخناق حتى أوشكت على الاستسلام ، وحينذاك هب نور الدين - وكان يحسن اغتنام الفرص - فأرسل سرا رجالا الى الأمراء الذين فى جيوش أولاد أخيه يحملون اليهم الهدايا والوعود البراقة مما ساعده على أن يستميل اليه أعظم الرجال فى الجيوش ، وتضعضعت نفوس الدماشقة وخافوا أن يؤخذوا قسرا فأشاروا على سيف الدين أن يسلم البلد من أجل الابقاء على أرواحهم ، لكنه رد عليهم قائلا « استعدوا يا رجال ، فانى مزمع على الذهاب الى القاهرة والاستيلاء عليها » .

(١٦٥)

ما لبث سلطان حلب الذى حاصر دمشق أن اكتشف أن أمراءه قد تخلوا عنه وانضموا الى عمه ، ولما عرف مدى الخديعة التى دبرها هذا العم ضاعف من هجومه على البلد واشتد فى قتاله ، وحدث فى أثناء الهجوم أن تخلى عنه الذين استمالتهم هدايا عمه ودخلوا دمشق ، فلما رأى سلطان حلب انصراف رجاله عنه رحل ومضى الى حلب . أما أخوه فقد خرج قاصدا القاهرة اذ لم تعد عنده قدرة على متابعة الحصار ، وما لبث سيف الدين أن غادر دمشق وراءه ملحا فى مطاردته من ناحية الى أخرى حتى وصل الى مصر .

حين بلغ مدينة بلبيس كان ابن أخيه الملك العزيز سلطان مصر فى الصيد فعثرت قدم جواده ذكبا فسقط من فوق ظهره فدقت عنقه ، وحينذاك استولى سيف الدين على أزمة الأمور فى القاهرة .

هكذا فتح سيف الدين (٢٣٩) ـ الذى عرف بالعادل ـ مصر وظلت فى أيدى أولاده حتى يومنا هذا .

(١٦٦)

لقد سبق لى ان اخبرتك كيف مضى الكونت هنرى لتحرير الأمير بوهيموند بن ريموند دى بواتييه واطلاق سراحه من سجن « ليون الأرمنى صاحب الجبل (٢٤٠) ، وكيف راح يعد العدة لزواج ابنه روبين » ، ثم انكفأ عائدا الى عكا · وقد أشار عليه البعض أن يجعل رجوعه عبر قبرس ، كما أن بارونات مملكة القدس ـ الذين كانوا معه ـ راحوا يلحون عليه أن يصالح الملك « ايمرى » الذى حدث ـ وقت أن كان كندستابل مملكة القدس ـ أن دب النزاع بينه وبين هنرى حول هذا المنصب وحول غيره من الأمور ، من ذلك ما يقال من أن كونت هنرى كان قد مد يد المساعدة الى « ايمار » Aymar الذى كان قد انتخب بطركا مما ترتب عليه قيام الملك « ايمرى » Aimery بمغادرة المملكة دون رضا أو اذن من **الكونت » (٢٤١)** ·

ولقد رأى بارونات المملكة أن هذه النية السيئة سوف تعود بالمضرة على مملكة بيت المقدس ، على حين أن قيام العلاقات الطيبة بين الاثنين سوف يكون خيرا وسوف ينطوى على ما فيه صالح الجميع ·

ولقد قام افراد أسرة بيثان Bethan ببذل جهود مضنية فى ترسيخ أواصر السلام بين الملك والكونت (٢٤٢) ·

(١٦٧)

رأى كونت هنرى قــوة هــذه الحجج فابحــر من أرمينيــة الى قبرس ، ولم يكد الملك « ايمرى » يعلم بخبر وصوله حتى خف للقائه ورحب به ترحيبــا جميلا واحتفى به احتفاء رائعــا ، وتم عقد السلم بينهما ، كما تأكدت أواصر الصداقة بين الاثنين منذ هــذه اللحظــة ثم كان اتفــاق بين بارونات مملــكتى القــدس وقبرس (٢٤٣) .

(١٦٨)

ولما كانت سنة ١١٩٦ (٢٤٤) من تجسد سيدنا مات البابــا كليمنت الثالث فخلفه البابا سلسيتين الثالث .

ولقد سبق لنــا أن ذكرنا كيف غرق الامبراطور فردريك فى نهر سالف Saleph أثنــاء سفره ، وكان قد توج أكبر أبنائه هنرى ملكا على ألمانيــا وعقد قرانه على « كونستانس » قريبــة وليم ملك صقلية الذى مات دون وريث فانتقلت مملكة صقلية الى « كونستانس » .

حينذاك استولى أخوه « تانكريد » على المملكة وتوج نفسه ملكا ، وان قيل انه لم يكن له أى حق يزكيه فى ذلك التتويج لأنه ولد غير شرعى (٢٤٥) . فلما مات تنكريد « آلت المملكة الى أبنائه .

ولقد استطاع الملك هنرى تهدئة الأمــور فى ألمانيــا وكافــة ارجاء لمبارديا وجميع المناطق الخاضعة له فأسلمته الامبراطورية قيادتها ، ثم زحف بجــيش كبير على صقليــة واســتولى على

« بالرمو » والقصر ، كما ألقى القبض على صغار « تانكريد » الذين كانوا موجودين به اذ ذاك وأمر بقتلهم فقتلوا فى الحال .

غير أن ابنتين لتنكريد استطاعتا الفرار وقد تزوجت أحداهما من ولتر كونت بريين ، والأخرى من كونت « جرافينا Gravina » وقد أهلك الملك هنرى كثيراً من أهل أبوليا وصقلية (٢٤٦) .



وحدث فى هذه الأثناء أن القى دوق النمسا القبض على ريتشارد ملك انجلترا وأهداه الى هنرى ملك ألمانيا فبقى فى أسره حتى افتدى نفسه بمائتى ألف مارك (٢٤٧) ، وجاء هنرى الى روما بهذا المال الوفير الذى حصل عليه من الفدية وبما أخذه من أبوليا وصقلية ، وتوج نفسه امبراطورا ، كما توصل بهذا المال الوفير الى تصفية الامور بينه وبين الرومان واقرار السلم بين الطرفين المتنازعين مما مكنه من أن يتوج نفسه امبراطورا فى هدوء وسلام .

وقد لاكت الألسن أنه يوم تسلمه التاج الامبراطورى فى روما دفع قدرا كبيرا من المال للرومان ، وأنه لولا دفعه هذه الأموال الطائلة لكان قتال تسفك فيه الدماء الغزيرة ، فلقد جرت عادة الرومان أن يحاربوا فتكون مذبحة تهرق فيها الدماء وتغطى الشوارع ان لم يغدق عليهم الامبراطور المال الوفير حين تتويجه ، وكثيرا ما سفكت الدماء فى كل النواحى حتى لم تسلم منها كنيسة القديس بطرس .

ويقال انه تم تتويج الملك هنرى غداة تتويج البابا سلستين (٢٤٨) .

(١٦٩)

لقد حاز الامبراطور فردريك الذى تكلمنـا عنه ـ قدرا كبيرا من القوة والبأس فى امبراطـوريته حتى أيقن النـاس كلهـم بأنه لابد المملكة من الانتقال من بعـده الى وريثـه الثـالث ، ومن ثم ظلوا موالين له حتى الوقت الحاضر ، فلعل الرب يكلؤنا برحمته فيهىء لنـا واحدا يكون خيرا من سلفه (٢٤٩) .

(١٧٠)

بعد أن تم الصلح بين الملك « ايمرى » وبين كونت هنـرى واسـتقرت الأمور على النحو الذى وصـفناه أخذ الكونت يعد عدته للذهاب الى عكا ، وكانت الأخبار قد وصلته بأن العـادل ـ الذى سبق وان حرم أبناء أخيه من مملكة مصـر ـ قد نقض الاتفاق الذى كان الملك ريتشارد قد أبرمه من قبل ، وانه أسرع الى « ليماسول » التى أبحر منها الى عكا ، وكان المسلمون قد نزلوها وخربوها أو لعلهم خربوا كثيرا من نواحيها .

(١٧١)

بعد استيلاء الامبراطور هنرى على سالرنو وبالرمو ومعظـم مملكة صقلية ـ كما ذكرت من قبل ـ تداركه عطف شـديد على بيت المقدس ورحمة بها فقـام بعمل تجهيزات واستعدادات ضخمة تعيد الى الأذهان الأعمال الجليلة التى بدأها الامبراطور فردريك ولكن وافاه أجله فتوقف انجازها .

ولما جاء هنرى طلب من امراء ألمانيا المشاركة فى حملة صليبية لتخليص بيت المقدس (٢٥٠) ، فكان جوابهم انهم لا يستطيعوا مغادرة أراضيهم وهى على ما هى عليه من عدم استقرار الأمور واضطراب الأحوال ، وقالوا ان الأمر يتطلب فسحة من الوقت يعودون فيها الى ألمانيا ليرتبوا أمورهم وليستعدوا لمثل هذه الحملة الصليبية ، فلم يجد بدا من النزول على ما طلبوه ، ومن ثم عادوا الى ألمانيا وأخذوا فى تهيئة أنفسهم واعداد الأمور اعدادا يناسب الظروف التى هم فيها ٠

أما الامبراطور فقد قام من جانبه بتجهيز عدد ضخم من السفن ، وأعد كل ما تحتاجه الحرب من الامدادات والذخائر ، وحشد كل ذلك فى ابوليا ٠

(١٧٢)

كان من بين الاستعدادات التى اتخذها هنرى ارساله سفراء الى الكسيوس امبراطور القسطنطينية (٢٥١) يسأله - على ألسنتهم - أن يمهد الطرق التى سيمر بها هو ومن معه ٠ كما طلب منه تهيئة الموانى التى سوف تمر سفنه بها أو ترسو فيها وأن يجهزها بكل ما تكون الحاجة ماسة اليه ٠

وحتم هنرى على الكسيوس أن يرسل من أهل مملكته جندا الى مملكة بيت المقدس لتخليصها من أيدى أعداء الصليب ، وهدده - اذا لم يستجب لما طلبه منه - انه طارق لا محالة أرضه ومحاربه .

على هذه الصورة تحداه هنرى قبل الشروع فى الخروج ٠

حين جاء رسل الامبراطور الى القسطنطينية تلقاهم الجالس على عرشها بترحاب وتعظيم كبيرين تعبيرا عما يكنه من التقدير لمولاهم ، ثم أراد الكسيوس أن يوقفهم على مدى عظمته وما هو عليه من الغنى والثروة فاستدعاهم اليه بدعوى الاحتفال بتسلمه الرسالة التى بعث بها مولاهم اليه ، وكان قد أمر بالمبالغة فى زينة قصره اتحليته بالثريات والسجاجيد الغالية المطعمة بالذهب والمزينة بالجواهر والأحجار الثمينة ، وفرشها بالطنافس الغالية الثمينة المذهبة ، ثم استدعى مبعوثى الامبراطورية اليه فلما دخلوا عليه ووقفوا بين يديه بالغ فى استقبالهم والترحيب بهم ، واظهر منتهى الغبطة ، ثم سألهم عن مولاهم الامبراطور الألمانى وأحواله ، وعما اذا كان يحاكيه فى غناه وثرائه .

ولما كان هؤلاء الرسل من أحكم الناس وأعقلهم ومن دهاة القوم فانهم لم يقصروا فى الرد عليه رداً لأزمتهم فيه الحكمة والسداد والعقل ، فأخبروه أن ما عليه سيدهم من الثراء يساوى عشرات المرات كل ما وقعت عليه أعينهم من ثراء القسطنطينية ، ثم قالوا له أن لدى مولاهم ما هو أثمن وأعظم من كل ما شاهدوه وما يرونه الآن » ، فسألهم : وهل هناك أثمن وأغلى من تلك الثريات التى يرونها ؟ فقالوا : « أجل . أن أول ثرائه هو محبة شعبه له ، كما أن كل امبراطوريته ــ من رومة وتسكانيا ولمبارديا والمانيا وبرجنديا وابوليا وصقلية ــ رهن اشارته ولا تعصى له أمرا ، ولذلك فانه يخبرك على لساننا بانه يطلب منك أن تكون مستعدا لاستقبال سفنه عند وصولها ، وتجهيز كل ما يحتاجه رجالها ، وأن تستعد أنت نفسك للسفر الى مملكة بيت المقدس ، فان انت خالفت أوامره التى

حملناها اليك فسوف يحضر هو بنفســك ليزورك فى عقر دارك وامبراطوريتك وسوف ترى بنفسك حينذاك ما يزعج خاطرك » ·

(١٧٤)

حين سمع الامبراطور البيزنطى ما قاله له رسل هـنرى الألمانى اشتد غضبه شدة بالغـة على الرغم من أنه بذل جهده لاخفاء شعوره وكظم غيظه وقال لهم :

« أيها السادة لقد سمعت فى جـلاء ما ذكرتموه عن وضــع امبراطوركم ، والآن فلتنصرفوا الى أماكن اقامتكم ، وسافكر فى الأمر وأتشاور مع رجالى ، ثم ياتيكم الرد بمــا يســتقر عليــه الرأى » ·

ما كاد مبعوثو الامبراطور الألمانى يغادرونه حتى أمر بأن يجتمع عنده كبــار رجــال القسطنطينية وابرزهم ، فلمــا مثلوا بين يديه والتأم عنده شملهم أفضى اليهم بالدافع الذى دفع هؤلاء الرسل للحضور من بلدهم ، ثم اعاد على مسامعهم ما قالوه له ·

كان الكسيوس يريد أن يكون رد فعل القسطنطينية منصــبا على دفع قواتها لمحاربة الامبراطورية الألمانيــة واذلال الرســل الذين حملوا اليــه رسالة مولاهم ، وقال لرجاله : « لقــد جمعتكم من أجل هذا الغرض ، وأريد أن أسمع الآن ما تشيرون به على · وانى لاطلب من كل واحد منــكم أن يخبرنى بما يرى » ·

فوافقــه بعض صغار السن من رجاله على وجوب اذلال رسل الامبراطور وامتهانهم ·



على أنه كان من بين الذين سألهم امبراطور القسطنطينية أن يمحضوه النصح عجوز اغريقى من عهد الامبراطور مانويل تقدم اليه قائلا له : « مولاى : هل تحب أن تسمع منى ما ترغب أن يرضيك ، أم تريد أن أقول لك الحق ؟ » .

فأجابه الامبراطور : بل أريد أن تشير على بالحق وبخير ما ينبغى العمل به » .

فقال له الشيخ العجوز : « مولاى ... اذن فاستمع الى ما أقوله . وهو أن أحد الملوك المجاورين لبلدك واسمه وليم كان قد أرسل الى الامبراطور مانويل يطلب منه أن يزوجه إحدى بناته ، فوافقه ثم عدل عن موافقته ، فأغضب هذا الرفض وليم غضباً حمله على أن يشن حرباً ضارية أحتل بها جزءاً كبيراً من الامبراطورية (البيزنطية) كاد أن يبلغ ثلث مساحتها أو يزيد على ثلثها قليلا ، ولو مد الرب فى عمره بعدئذ لاستولى على بقية أرضها ، ولترتب على ذلك ألا يعود الامبراطور البيزنطى قادرا على استردادها ، فلما تولى الحكم أخوك الامبراطور كان عنده من الحكمة والحنكة وسداد الرأى ما عاونه على استعادة البلاد والأراضى التى سلبها وليم من الامبراطورية (٢٥٢) ... وها أنت ذا ترى أن الامبراطور فردريك والد الامبراطور الحالى — وهو فى سفره الى مملكة أورشليم — قد استطاع أن يستولى على ثلث آخر من امبراطورية القسطنطينية حين رفض أخوك — الذى كان اذ ذاك امبراطورا — أن يستقبله أو يستجيب له (٢٥٣) . ولم يكن لفردريك من القوة ما لهذا الامبراطور الحالى اذ ذاك لأنه لم يكن يملك الى جانب كل ما يملك — سوى مملكة

صقلية ، لذلك ترانى أشير عليك ان أردت النصيحة خالصة أن تحسن ردك على الرسل وأن تترفق فى هذا الرد ، وسوف يهديك العقل الى ما فيه الرشد والفلاح حين يشرع الامبراطور فى حملته » .

« ان النـاس يقولون ان الألمان قوم فيهم حـدة وأندفاع وتهور ، وان الاغريق قوم حصيفون ، لذلك آشـير عليك الا تتخذ قرارا أو تقوم بعمل فيه اساءة الى الرسـل أو ايذاء لهم فانهم مأمورون لا يفعلون الا ما يكلفهم به مولاهم ..

حينذاك رأى الامبراطور (البيزنطى) أن هذا الشيخ أشار عليه بما فيه الصواب ، ومن ثم قبل نصيحته وعمل بها ، فاستدعى اليه المبعوثين الألمان وطلب اليهم أن يقولوا لمولاهم الذى أرسلهم أن امبراطور بيزنطة يحب هو الآخر مملكة بيت المقدس ويرغب فى كل ما يعود بالنفع على المسيحية ، وأنه من الأمور التى تدخل الفرحة على قلبه أن يتم استرداد المدينة الطاهرة ، كمـا أنه قرير العين أن يلقى الرب — فى قلب رجل عظيم كامبراطور ألمانيا وملك صقلية — الرغبة فى استرجاع القدس ومحـو العـار الذى نزل بعيسى المسيح ، وانه هو ذاته (اى امبراطور بيزنطة) سوف يحذو حذو أسلافه لاسيما الامبراطور مانويل فيساهم من جانبـه فى استرداد الأرض الطاهرة .

ثم قال لهم : « وحين يصـل الامبراطور الى أرضى وتطؤ قدماه أديمها أكون قد جهزت كل ما هو فى حاجة اليـه هو ومن معه من رجاله » .

★★★

لما فرغ الامبراطور البيزنطى من هذا الحديث مع الرسل وصلهم بالعطايا الغاليـة وخلع عليهم الخلع الثمينـة الرائعـة ،

وحينذاك استاذنوه فى الانصراف فاذن لهم فانصرفوا شاكرين له ما لا قوة منه من استقبال حسن ، وما احاطهم به من ترحيب كريم ، فرحلوا الى صقلية فوجدوا بها مولاهم الامبراطور الألمانى فأخبروه بجواب امبراطور القسطنطينية ورده على رسالته .

(١٧٦)

حين عاد مبعوثو الامبراطور الألمانى من القسطنطينية وأفضوا الى مولاهم بما كان من رد صاحبها أصدر تعليماته فى الحال الى بارونات ألمانيا بالحضور اليه ، وأمرهم أن يتهيئوا لركوب السفن ميممين وجوههم شطر أرض أورشايم وزودهم بكميات ضخمة من المئونة وبالعديد من السفن حتى لا يرهقهم من أمرهم عسرا ولا يكلفهم شيئا .

كانت هذههى المرة الثانية التى يخرج فيها أهل ألمانيا لاسترداد القدس .

(١٧٧)

كتب الامبراطور الألمانى الى البابا يسأله ارسال نائب عنه الى ألمانيا ليبشر بين أهلها ويدعوهم الى حمل الصليب والمشاركة فى الخروج فى الحملة الصليبية . كما أنه أخبر البابا أنه سوف يجهز من ناحيته كل راغب فى المساهمة فى هذه الحروب ، وكل باذل روحه من اجل مملكة القدس (٢٥٤) وانه سوف يزودهم بجميع ما يحتاجونه من زاد ومئونة ، وانه سوف يهيىء لهم

السفن اللازمة لنقلهم دون أن يدفعوا فى ذلك دانقا ، بل انه سوف يتكفل بجميع نفقاتهم . كما وعده أنه لن يغادر مملكة صقلية حتى يسترد الصليبيون القدس .

واستجاب كثير من الفرسان والبارونات لهذه الدعوة الصليبية ، فخرجوا يحملون الصليب ، ووصلوا فى سفرهم الى ابوليا حيث وجدوا الامبراطور فى انتظارهم وقد أعد لهم كل ما هم فى حاجة اليه من مراكب وسفن وميرة وذخيرة مما يحتاجونه فى هذه الرحلة ، كما عين قائدا له هو مستشار المانيا (٢٥٥) (كونراد أسقف هلدشايم Heldscheim فتقبل الجميع رياسته عليهم بنفوس منشرحة وقلوب راضية مطمئنة ، وكان السبب الذى حملهم على هذا الترحيب هو أن معظم الفرسان الذين شاركوا فى هذه الحملة كانوا يتناولون معاشهم ورواتبهم من المانيا ، ثم حملهم الامبراطور على أن يقسموا جميعهم يمين الطاعة لهذا المستشار ، وألا يخالفوه في أى أمر من الأمور التى يراها ، بل نه هو ذاته تعهد لهم أنه لن يغادر أبوليا طوال وجودهم فى الأراضى التى هى وراء البحار ، وأنه سوف يساعدهم بالرجال ويزودهم بالطعام والمئونة ، طالما هم فى خدمة المسيح عيسى .

★★★

ولما أصبحت السفن على أتم أهبة للاقلاع — وقد تجمع المحاربون — ركبوا السفن وظلوا مبحرين حتى بلغوا عكا (٢٥٦) (وكان وصول الجانب الرئيسى منهم اليها فى سبتمتر) وكان المشاركون فى الخروج فى هذه الحملة الصليبية أربعة آلاف فارس ، واما المشاة والسرجندية فكانوا قوما لا يحصيهم العد .

كان من بين المشاركين فى هـذا الجيش نائب الكنيسة الرومانيـة « كونراد » كبير أساقفـة ميتز (٢٥٧) ، وكونراد مستشار القصر الامبراطـورى وهنـرى (كونت بلاتين) (٢٥٨) دى برنسويك [١١٩٥ ـــ ١١٢٦] (٢٥٩) وهنرى دى برابانت (١١٩٠ ـ ١٢٣٥) (٢٥٩) وكثيرون غيرهم ممن يستغرق ذكر أسمائهم وقتـا طويلا ٠

(١٧٨)

فمنهم من كانت رحـلتهم الى ، قبرس ومنهم من ذهب الى عـكا مباشرة ٠ وكان ممن مضى الى قبرس المستشار الألمانى ، فلمـا عرف « ايمرى » Aimery بخبر قدومه خف الى استقباله واحتفى به احتفاء جليلا ، ثم قال له انه طالما يمثل الامبراطور فانه يلتمس منه أن يقبل أن يتم تتويجه على يده لأنه يرغب أن يكون تسـلمه أرضه من الامبراطور ، فاغتبط المستشار مما سمع وأجابه أنه سيجيب التماسـه ويلبى رغبتـه وارادته ٠ ثم استصحب فرسـانه وذهب الى نيقوسـيا حيث توجه بتـاج الامبراطورية فلمـا فرغ من ذلك انطلق الى سفنه وغادر قبرس الى عـكا فوصلهـا لكن بعد وصول الآخرين (٢٦٠) ٠

وبعـد وصولهم الى عـكا أقاموا هنرى كونت بلاتين مارشـالا (وقائدا) للجيش ، كما أقاموا دوق برابانت رئيسا للقضاة ، واعتمدوا فى ذلك على ما يقـال عنه من سـداد الرأى والعقـل والأمانة ، وما عرف عنه من العدل فى حكمه بين النـاس ٠

على أنهم فى أثناء اقامتهم بعكا أساؤوا السيرة مع أهلها اذ أخرجوهم على وجوههم من ديارهم التى يسكنونها ، ومما زاد الطين بلة والأمر سوءا أن فرســان البلاد وكبار رجالاتها الذين كانوا خارجين للقتــال وجدوا حين عودتهم الى دورهم ــ ان نساءهم قد أخرجن من بيوتهن وحل رجــال الامبراطور محلهن ، فأغضب هذا المسلك مواطنى البــلد أعــظم الغضب ، وأخبروا الكونت هنرى بما جرى ، فلما علم الكونت بهذه القضية أخذ فى مشاورة أهل المملكة عما ينبغى عليه عمله ، فقــال له « سير هيج » أمير « طبرية » انه لا مبرر لهذه الفعلة الشنعــاء ، وانه لا يجوز أن تمر دون زاجر ولا رادع ، وانه يعرف عن الألمان مثل هذه الأمور الشائنة ، كما يعــرف أنهم اذا لم يجدوا من يرد الصاع صاعين تمادوا واسرفوا فى تماديهم السىء ، ولا تكون لتماديهم خــاتمة أو نهــاية . ثم قــال : « هيــا بنــا نضــع نســاءنا وصغارنا فى الهيكل ودور النقــاهة والاستشفاء ، ثم نكلف بقيــة الناس ونحن معهم بالهجوم على الألمان هجوما قاســيا ، وحينذاك يلقون جزاء ما اقترفته أيديهم من اثم وما ارتكبوه من جــرم » . لكن ربنــا لم يشأ أن يقع مثل هذا الأمر بين المسيحيين بعضهم وبعض ، بل صار الأمر موكولا اليــه هو وحده فقد خرج من بين صفوف الألمان واحد منهم سمع بما جرى فنصح قومه بالرحيل وان يعسكروا فى العراء وبذلك يتجنبون أى شر ينجم بين الطرفين ، فنزلوا على نصيحته ونصبوا معسكرهم خارج المدينــة .

(١٧٩)

بينما كانوا معســكرين خارج البلد قام العــادل (سيف الدين) الذى اغتصب بلاد مصر ودمشق من أيدى أولاد أخيه

صلاح الدين وجمع الجيش بأكمله من كافة أرجاء مملكته واقتحم به عكا التى ما كادت تلوح بها طلائع قواته حتى بعث الكونت هنرى الى دوق برابانت يقول له ان المسلمين على مقربة من المدينة وأنهم جاؤوا لمحاربتهم وهم على ظهور الخيل ، فقال هيج صاحب طبرية : « أيها السادة : دونكم مملكتا القدس ودمشق .... ان العالم الوثنى بأجمعه أمامكم ، وها قد حانت اللحظة التى نعرف فيها من هم الأبطال الصادقون » .

★★★

حين شاهد الألمان كثافة أعداد القوات الاسلامية استولى عليهم الفزع واضطربت نفوسهم ، فقد قيل انه كان مع العادل سبعون ألف مقاتل فى كامل سلاحهم وعدتهم .

وجرت فى هذا اليوم اشتباكات جمة بين الطرفين ، ثم انتهى الأمر أخيرا بأن رأى معظم رجال المملكة والألمان ممن كانوا على رأس الحملة ، وكان موكولا اليهم تدبير الهجوم ... أقول انتهى بهم الأمر أخيرا الى أن رأوا الخير فى عودتهم الى عكا وترك من هم دونهم الى رحمة الرب . ولكن لما سمع « هيج » الطبرانى أن رجالا من رجالات الامبراطورية الألمانية ومملكة بيت المقدس يتأهبون للتسلل على هذه الصورة المزرية توجه الى الكونت هنرى وقال له : « ماذا أرى أيها الكونت .. ؟ هل تراك تعتزم تشويه سمعة ذريتك ومملكة بيت المقدس بهذا العمل الفاضح المشين ؟ انى أستحلفك بالله ألا ترتكب اليوم حماقة كهذه الحماقة ، ولا تقومن بعمل ينطوى على الخسة » .

فرد عليه هنرى قائلا ى « وماذا تريد أو ترانى فاعلا ... ؟ اننى أرجوك أن تشير على بما تراه واجباً ياسير هيج ، وستجدنى

نازلا على رأيك ··· ها أنت ذا ترى هؤلاء اللوردات الكبار وقد دارت عليهم الدائرة !! » ، فأجابه هيج : « أنصحك أن تدعو جميع أتباعك وأفصالك الاقطاعيين الكبار الى مساعدتك وعليهم أن يستجيبوا لدعوتك وأن يهبوا الى معاونتك » ·



ثم جاء هنرى الى عكا مستنفراً رجال الدين والعامة وسواهم من الناس ، فاستجاب لندائه من كانوا موجودين حينذاك وفيهم جمع كبير من البيازنة والفلورنسيين وأقبلوا فى هذه المحنة عن طيب خاطر ، وكان اقبالهم كبير الفائدة ، وعظيم الجدوى فى حسم الأمور بما فيه الصالح المسيحى. وبينما كان هؤلاء خارجين استجابة لأوامر الكونت هنرى فى هذه اللحظة العصيبة قال بعضهم لاساكارليت Escarlate « ·· وأنت يا اسكارليت ··· ألا تراك ماضيا لنجدة مولاك ؟ ·· فقال له : وماذا أنا فاعل ان مضيت ··· ؟ ان ما أعمله لن يقدم أو يؤخر شيئا (٢٦١) ·



ولما أخذت الامدادات تتوالى على الجيش قال هيج الطبرانى للكونت : « أما وقد رأى المسلمون النجدات تتوالى علينا بعضها فى أثر بعض فانهم لابد من أن يشنوا الآن هجوما عنيفا علينا ليروا هل من نفع يعود عليهم ··· وانى لأشير عليك أن تنشر كتائب فرسانك وقواتك المسلحة على أحسن وجه وأن تأمرهم أن يثبتوا مهما جد من الأحداث لأن المسلمين سوف يركزون جهودهم فى هذا الهجوم القادم » ·

(١٨٠)

اتفق الكونت وهيج الطبرانى فأصدرا أوامرهما فى الحال الى الكتائب والفيالق أن تكون على تمام الاستعداد للقتال ٠ ووضع الكونت البيازنة والفلورنسيين المسلحين فى مواجهة الفرسان وذلك تبعاً لما جرت عليه عادة بلادهم من ترتيب الجند فى ساحة القتال من الاكثار من السرجندية . كما أمرهم الا يخلوا بترتيب صفوفهم مهما حدث ، ولما رأى المسلمون صفوف المحاربين تبرز للقتال شنوا عليهم هجوما عنيفا وحينذاك قال الطبرانى للكونت « هيا نكر ونغير عليهم ، فاستصوب الكونت ما قاله هيج واستحسنه وقال له ان الرأى الذى أشار به هو نعم الراى وان المشورة التى أشار بها هى نعم المشورة » ٠

★★★

حين أبصرهم المسلمون يستقبلونهم بوجوههم ولوهم ظهورهم وادبروا فرارا ، وهكذا كتب الرب لرجالنا النجاة فى ذلك اليوم بفضل مشورة « هيج » الطبرانى (٢٦٢) ٠

(١٨١)

رحل المسلمون الى يافا وعاد الكونت الى عكا مصحوبا برجاله ، وقام الملك « ايمرى » فى هذه الأثناء فأرسل الى كونت هنرى واحدا من فرسانه كان من قبرس واسمه « رينالد بارايه » (٢٦٣) وهو والد امرى بارايه ٠ Barlais

وجاء هذا الرجل الى الكونت هنرى وسأله نيابة عن الملك أن يقطعه يافا وفقا للشروط المتفق عليها فيما بينهما ، فرحب الكونت بهذا الالتماس وقال له :

« امض فى لحظتك هذه الى يافا فانت مالكها ٠٠ ونصيحتى لك بل وأمرى اليك هى ان تجهز جميع الفرق التى ستكون فى حاجة اليها فى عامك القادم لأنى عرفت أن الملك العادل ماض لمحاصرة يافا ، فان لم يتيسر له انزال الهزيمة يومذاك بالمسيحية ارتد الى قومه خاسئا يجلله العار ، ولذلك فانى أشير عليك أن تدافع عن يافا وتحصنها حتى اذا جاءها العادل لغزوها وجد نفسه عاجزا عن الاستيلاء عليها ، ووجد فى رجالك الرجال الأكفاء القادرين على الدفاع عنها وحمايتها » ٠٠

(١٨٢)

حينذاك غادر « رينالد بارليه » الكونت ومضى ليأخذ يافا اقطاعا له ، ، ولكنه سلك مسلكا ضارا فلم يفعل عشر معشار ما أشار به الكونت عليه وما أمره به ، فقد اتبع هواه وغره بنفسه الغرور اذ مضى الى يافا فى رهط قليل من العسكر ، وما كاد يأخذ زمام أمورها بيده حتى داهمه العادل فحاصره ، وما كاد أهلها وأهل القلعة يرون أنفسهم محاصرين وقد ضيق المهاجم عليهم الخناق وأنهم عدموا الرجال الا شرذمة قليلة لا تجدى نفعا فى الدفاع عنها ٠٠٠ أقول ما كاد من بقلعتها من أهلها يرون ذلك حتى الزموا رينالد بارليه » بأن يكتب الى كونت هنرى يطلب منه أن يبعث اليه برماة السهام والنشاب وبالجند ، كما هدده انه ان لم تصله هذه الامدادات على جناح السرعة فقد ضاعت القلعة .

اشتد غضب الكونت اذ طرق سمعه هذا النبأ ، وكان وقعه عليه أليمـا ، وانزعج خاطره فقد كان ما بلغه مبعث دهشة ومثار اشمئزاز ، وكان ما جرى مفاجأة له لأنه كان قد أوصى « رينالد بارليه » ونصحه أن يأخذ الأمر مأخذ الجد فى تزويد القلعة بالرجال المسلحين المشهورين فى ساحة الحرب والمضرسين بالقتال ، وأن يمدها بكل ما هو ضرورى ولازم للدفاع عنها .

وكان مما زاد فى همه وضاعف انزعاجه انه اصطحب زوجته معه .

★★★

ومات فى هذه الأثنـاء ملك المجر دون أن يترك وريثا من صلبه ، لكن لما كانت زوجته الملكة « مرجريت » ابنـة لويس السابع ملك فرنسا وعمه كونت هنرى (٢٦٤) فقد انتقلت المملكة الى أخى زوجها ، وكانت « مارجريت » شديدة التطلع واللهفة لزيارة القبر المقدس ، ولما كان الامبراطور قد أرسل جيشا بالغ الضخامة فقد كانت تتوقع أن يسترد مملكة القدس كاملة ، ولذلك باعت دوطتها الى زوج أختها الذى دفع لها قدرا كبيرا من المـال فحملت الصليب وأخذت معها عددا لا بأس به من الفرسان وجاءت بهم الى فلسطين حيث كان الألمان موجودين ، ووصلت الى صور .

وصور خيال مرجريت لها أن القدس لابد ساقطة فى أيدى المسيحيين وأن لابد لهم أن يستردوها من أيدى المسلمين بفضل مجىء الألمان الى فلسطين .

وذهب الكونت هنرى الى صور « لزيارة خالتـه وقدم لها فروض الاحترام اللائقة بها لكن لم تكـد تمضى أربعون يوما على حضوره حتى اسلمت هى الروح ودفنت بكنيسـة صور فى القسـم المخصص فيها للمرتلين ه وكانت قد أوصت بجميع ما تملك الى الكونت هنرى فهو ابن أختها ٠

بعـد أن فرغ الكونت من مراسيم الدفن كر راجعـا الى عكا ، وأمر رماة النشـاب والسرجندية ألا يغـادروا مواضعهم وألا يبرحوها فقد تمس الحاجة اليهم فيرسلهم الى يافـا نجـده لها ، فأطاعوه ٠ ثم خرجوا الى ساحة القصر فتجمعوا بها وهو معهم ٠ وكان متكئا على اطار نافذة من الحديد وراح يطل منه الى أسفل فانهار الاطار وسقط هو معه ، فاستولى الذعر على خادمه القزم الذى حزن لمولاه فلم يتمالك نفسـه أن سقط هو الآخر فوقع على مولاه فمات الاثنان معـا ٠

ويقال انه ما كان للكونت أن يموت لو لم يقع القزم فوقه ٠

وكانت وفاة الكونت هنرى خسارة كبيرة ألمت بالمسيحيين فى مملكة بيت المقـدس ، فقد كان رجلا عظيما حكيما ، وكان فى حياته خير ونفع وقوة لأهل المملكة ، ولو أنه عاش وظل حيا لأجـدت حياته عليهم بالنفع العميم ٠

وكان الكونت على جانب كبير من الخلق النبيل العـالى ، وان كان أكبر ما يعيبه هو أنه كان يلقى سمعـا الى الوشـاة ٠ ويستطيب عبارات التملق والاطراء والثناء عليه ٠ ودفن فى كنيسة الصليب الطاهر بعـكا (٢٦٥) ، وكانت وفـاته يوم العـاشر من سبتمبر ١١٩٧) ٠

استولى العادل على يافا بعد موت الكونت ، وكان استيلاؤه عليها من ضاحية قريبة من البحر ، وكان البطرك حينذاك هو « جيرالد » Gerald وقد بنى فيها برجا . على أن الذى سهل العادل امتلاكها أن هذه الناحية كانت أضعف نواحيها وغير محصنة التحصين الذى يجدى فى الدفاع عنها (٢٦٦) .

★★★

ولما سقطت يافا فى أيدى المسلمين القوا القبض على كل من « رينالد بارليه وزوجته » ، أما من سواهم ممن كانوا فى القلعة فقد اتخذوا مواقعهم الدفاعية فى كنيسة القديس بطرس ، ظنا منهم أنهم سوف يظلون قادرين على المقاومة حتى تأتيهم النجدة ، لكن أنى لهم بهذه النجدة وقد رحل عنهم الى الأبد من كان وحده القادر على اغاثتهم !! » .

ولما رآهم المسلمون فى القلعة تسلقوا الكنيسة واعتلوا قبتها ثم هدموها فوقع الهدم على من كانوا تحتها فهلكت الغالبية العظمى وماتوا تحت أنقاضها .

أما الذين تمكنوا من النجاة فقد وقعوا فى ربقة الأسر .

هكذا ألمت بأهل يافا داهية دهياء ، وأصابتهم نكبة ارفضت لها قلوبهم وكانت قاصمة للظهور فقد ظهر عليهم المسلمون بالقوة مرة ثانية وكانت المرة الأولى زمن صلاح الدين ثم كانت الثانية هذه زمن العادل سيف الدين .

بعد أن سقطت يافا فى أيدى المسلمين أخذ الألمان يتشاورون مع رجال المملكة عن الطريق التى يستطيعون بها اسداء بعض الخير للمسيحية ، ومن ثم غادروا « عكا » ومضوا لحصار تورون (٢٦٧) .

وبينما كانوا ماضين فيما هم فيه اذا برئيس أساقفة « مينز » يذهب الى أرمينية فيتوج « ايون » الجبلى ملكا على ما بيده (٢٦٨) .

وحدث أن قام مستشار القصر الامبراطورى — الذى كان موجوداً فى حصار تورون — بالمضى رسولا الى الامبراطور هنرى الذى ما كاد المستشار يصبح فى حضرته ويخبره أن رجاله يحاصرون تورون » حتى تبلبل خاطره واشتد به الغضب ، ولا عجب فى ذلك فقد كان الامبراطور يرى أن أعيب ما يعيبه — وهو الامبراطور القوى والحاكم الشديد البأس والسطوة — أن يكتفى رجاله بحصار موضع لا يعدو أن يكون « حصنا » حتى لقد قال : « ماذا أسمع ؟ .. أما كانت هناك مدينة كان من الأجدى أن يوجه رجالى اليها بأسهم وقوتهم بدلا من توجيه هذه القوة وذلك البأس الى مجرد حصن من الحصون ؟ » ... فأجابه المستشار : « لا يوجد ثمت مدينة سوى بيت المقدس أو دمشق ، ولكن ليس معنا من الرجال العدد الكافى لحصار مثل هذا البلد أو ذاك مع القيام فى الوقت ذاته بحراسة قوافلنا ، ويرجع السبب فى هذا الى وجود جموع غفيرة من المسلمين فى هذه النواحى » .

(١٨٦)

بعد أن توجه الرسول الى الامبراطور قام الذين يحاصرون « تورون » بوضع الألغام لهدم الأسوار ، فلما أدرك من وراء هذه الأسوار حرج موقفهم لعدم وصول أية نجدة اليهم من أية ناحية من النواحى اتفقوا فيما بينهم على الاستسلام وعدم المقاومة والصمود ، وارسلوا من لدنهم رسلا الى الألمان يقولون لهم أنهم سوف يسلمونهم القلعة لقاء الابقاء على ارواحهم وما يملكون وكذلك على نسائهم واولادهم ، وأنهم سوف يطلقون سراح خمسمائة أسير مسيحى ممن هم فى سجونهم.فلما سمع الألمان بهذه الصفقة أخذتهم الكبرياء وغرهم الغرور ، واصطنعوا سمع بهذه الصفقة أخذتهم الكبرياء وغرهم الغرور ، واصطنعوا الشدة فى موقفهم وقالوا للرسل أنهم يرفضون ما تقدموا به من عروض بل عليهم أن يخضعوا الخضوع التام لارادتهم .

ولما فرغوا من ذلك أخذوا الرسل المسلمين الى النفق وأطلعوهم على ما صنعوه وقالوا لهم « كيف نقبل شروطكم وقد أنجزنا ما أنجزنا وما أنتم الا فى قبضتنا !! » .

ثم أذنوا لهم بالرواح ودخول الحصن .

(١٨٧)

أما الألمان — الذين كانوا يعتمدون على بأسهم ويتباهون بقوتهم وبطشهم وعلى شدتهم — فلم يدخلهم شىء من الشفقة على الأسرى المسيحيين الذين لابد وأن يصبحوا تحت رحمة المسلمين .

لو أن الألمان قبلوا رد الحصن على الشروط التى اقترحها المسلمون لأمكنهم بعدئذ استرداد حصن « بوفورت » Beaufort الواقع فى أرض « صيدا » ولاستولوا على غيره من الحصون ، ولصار كل شىء فى أيديهم ، لكنهم لما هاجموا الحصن هجوما عنيفا بآلاتهم وبمن معهم من الرجال وجدوا من المسلمين دفاعاً مجيداً عن أنفسهم .



وحدث فى غضون ذلك الوقت أن سقط السور اذ استمروا فى نقب أسفله ، فلما سقط حاولوا أن يشقوا لهم طريقا ينسلون منه الى القلعة ، غير أن المسلمين دافعوا عن هذا المدخل لكنهم لما رأوا شدة الهجوم عليهم خافوا أن يأخذهم أعداؤهم قهرا فبعثوا يطلبون منهم أمانا يخرجون به ، وقدموا الرهائن وأفضوا الى الألمان برغبتهم فى تسليم الحصن بكل ما فيه من الثروة والمال والذخيرة ، وأنهم لا يطلبون ازاء ذلك كله الا الابقاء على أرواحهم .

وتسلم المستشار منهم الرهائن ، لكنه أرجأ تسلم الحصن حتى يطلع الصباح ، لأن الليلة كانت ليلة عيد الميلاد ولابد من الاحتفال به .

ولقد أحس المسلمون بعد ان أسلموهم الرهائن بالغصة والألم لما فعلوه من تسليمهم الرهائن اذ أنهم لم يسلموهم تلك الرهائن الا خوفا من بطش الألمان وفتكهم بهم ، فلما سمعوا أن نجدة خرجت من القاهرة لغوثهم حزنوا على تسرعهم فى الاستسلام

للألمان ، ومن ثم كان لابد لهم من اتباع سياسة أخرى · ولكنهم على أية حال فقدوا الرهائن ·

(١٨٨)

بينما كان الألمان فى انتظار تسليم الحصن (تورون) جاءهم الناعى ينعى اليهم مولاهم الامبراطور « هنرى » ويحمل اليهم أن النجدة قادمة الى المسلمين من القاهرة لاسعاف من فى الحصن ، وما كادوا يسمعون خبر هذه النجدة حتى أخذوا فى التشاور فيما بينهم فلم يجدوا بدا من الرحيل فرحلوا وقد أرفضت قلوبهم خوفا واضطربت عزائمهم بسبب وفاة ولى أمرهم ·



وكانت وفاة الامبراطور يوم الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٩٧ ·



(هذا أخر ما وجد من الذيل على تاريخ وليم الصورى) ·

الهوامش والتعليقات

(١) فيما يتعلق بالداروم الواقعة فى الطريق الى مصر ، راجع ياقوت : معجم البلدان ٢/٥٢٥ ، ومراصد الاطلاع ، ١/٣٨٥ .

(٢) البطرك المشار اليه فى المتن هو هرقل (١١٨٠ ـ ١١٩٠) وسترد اليه الاشارة فى مواضع متعددة من صفحات هذه الترجمة وكلها تكشف القناع عن نواح متفرقة من حياته ، أما كبير فرسان الداوية فهو أرنولد المعروف بالتورجى de Torroja (١١٨٤ ـ ١١٨٩) ، وأما كبير الاسبتاريه فهو روجى دى مولان Roger de Moulins (١١٧٧ ـ ١١٨٧) . ونزيد على ذلك أن هؤلاء الثلاثة هم الذين أرسلهم الصليبيون المحليون الى الغرب سنة ١١٨٤ كما سيشير الى ذلك الذيل فى ثنايا هذه الترجمة العربية .

(٣) سيرد الكثير عنه فى ما يعد فى اكثر من موضع .

(٤) كان ريموند الثالث كونت طرابلس (١١٥٢ ـ ١١٨٧) قد صار صاحب طبرية ، ويلاحظ أن كتاب الحرب الصليبية لوليم الصورى خلا من الاشارة الى موت بلدوين الرابع .

(٥) هو وليم لونجسورد Longsword ابن وليم الثالث مركيز دى مونتفرات ، وكان قد تزوج فى سنة ١١٧٦ من « سيبيلا » Sibylla ولكنه مات فى العام التالى .

(٦) هذا هو الصحيح وان كان صاحب هذا الذيل قد دأب على تسميته ببلدوين الرابع كلما وردت الاشارة اليه وهو خطأ منه وقد صححناه كلما ورد ذلك .

(٧) اذا أراد القارىء أن يطلع على مزيد من المعلومات عن الظروف التى تولى فيها أمورى العرش فيمكنه مراجعة ترجمتنا العربية لوليم الصورى (وليم الصورى : الحروب الصليبية ، ج ١ ـ ٤ ، ترجمة حسن حبشى ، مجموعة تاريخ المصريين) .

H. E. Mayer, The Beginnings of King Amalric of Jerusalem

حيث يمكن الاطلاع على مناقشة الظروف التى تولى فيها عمورى العرش سنة ١١٦٣ .

(٨) الرأى الوارد أعلاه يخالف تمام المخالفة ما أورده وليم الصورى .

أما فيما يتعلق بالمشكلات التشريعية التى دارت حول أعتلاء العرش فى منتصف الثمانينيات فانظر :

Riley Smith, The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277, pp. 104-108.

(٩) أخطأ صاحب الذيل اذ قال فى الاصل « الثلاثة » ولذلك صححناه الى ما هو وارد فى هذه الترجمة .

(١٠) هو جوسلين دى كورتناى Courtney الملقب بكونت الرها وهو أخو « أجنس » Agnes زوجة الملك عمورى الاول .

(١١) كان تتويج بلدوين الخامس سنة ١١٨٢ .

(١٢) راجع فى تفسير هذه الاشارة ما ورد فى انجيل لوقا ٢ / ٢٢-٢٤ .

(١٣) كانت أحياء الداوية مجاورة للأقصى ، اما فى الداخل فكانوا قد اتخذوا ما يعرف بهيكل سليمان مقرا لهم .

(١٤) كانت وفاة بلدوين الرابع فى مارس ١١٨٥ .

(١٥) [illegible] فى الانجيل اشارة الى معجزة المسيح .

(١٦) راجع انجيل يوحنا الاصحاح التاسع .

(١٧) يخطىء الذيل هنا وفى مواضع أخرى من الكتاب فى ذكر اسمه فيسميه ببونيفاس ، لكن يلاحظ أن « بونيفاس » كان ابن المركيز وليم الذى اشتهر أمره بأنه كان أحد قواد الحرب الصليبية الرابعة .

(١٨) راجع سفر الملوك (أول) / ١٩ .

(١٩) قضاة : السفر السادس .

(٢٠) يسميها الذيل فى الأصل Mahomeries وهو تحريف للمحمدية وذكر (مترجم الذيل الى الانجليزية انه يعنى بها « المساجد » ولا نعرف كيف توصل الى هذا التعبير الا أن يقرن المسلمين (المحمديين) بالمساجد .

(٢١) فيما يتعلق بالرب وسليمان وداود راجع سفر الملك أول ، الاصحاح الحادى عشر . أما عن صعود المسيح من جبل الزيتون فانظر الاعمال ١/٩-١٢ .

(٢٢) المقصود به الكسيوس برانانس .

(٢٣) امتدت فترة حكم « أندرونيكوس كومنينوس » للقسطنطينية من ١١٨٣ حتى ١١٨٥ ، ثم خلفه اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥) الذى انتهى حكمه بسمل عينيه على يد اخيه الكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣) . Nicol : A Biogr. Dict. of Byzantine Empire.

ويخطىء صاحب الذيل اذ يرى أن « براناس » ثار ضد الكسيوس الثالث ، كما سيورد ذلك فى الفقرة ١٦ لكن الواقع يؤكد أنه كان مخلصا لاندرونيكوس ووفيا له ، وانما كان تمرده وخروجه على اسحق سنة ١١٨٧ . وسيرى القارىء كثيرا من الأخطاء فى ذكر هذه الأحداث فى كلام صاحب الذيل لاسيما فى أحداث هذه الفترة البيزنطية ، مما يدل على قلة معرفته بأحداث بيزنطة ، وقد صححناها ، وللوقوف على صحة هذه الأحداث يجب مراجعة :

C. M. Brand : Byzantium Confronts the West 1180-1204. (Camb. 1968).

(٢٤) يلاحظ أن الذى خلف مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠) فى تولى الامبراطورية هو ابنه الصغير الكسيوس الثانى الذى حكم من سنة ١١٨٠ والذى تزوج من « أجنس » Agnes بنت لويس السابع ملك فرنسا ، وقد اغتيل فى سبتمبر سنة ١١٨٣ ، راجع فى ذلك .

Donald. M. Nicol, op. cit., p. 3.

(٢٥) هو « ستيفن هاجيو كريستو فورتيس »

Stephen Hagiochristophauts

(٢٦) كان اسحق أنجيلوس قريبا من ناحية النساء لمانويل .

(٢٧) لقب اسحق دوكاس كومنين بهذا اللقب الامبراطورى كما اغتصب السلطة فى قبرص حول هذا الوقت .

(٢٨) كان الابحار الى الشمال عبر البسفور من القسطنطينية الى البحر الأسود شديد الصعوبة بسبب التيارات البحرية القوية .

(٢٩) كان ال Boukeleon هو القصر الامبراطورى الرئيسى فى وسط القسطنطينية وهو قريب من كنيسة أيا صوفيا ، أما قصر بلاشيرناى Blachernai فكان يقع فى أقصى الطرف الشمالى للمدينة .

(٣٠) كان الكسيوس الخامس مورزوفيلوس Mourtzouphlos امبراطورا فى سنة ١٢٠٤ وقد أعدم سنة ١٢٠٥ .

(٣١) انظر تراجم بيزنطية ، ترجمة حسن حبشى .

(٣٢) شذا خطأ من صاحب الذيل فالمكان المشار اليه هو « فيليبى » فى تراقيا وهو المكان الذى وجه منه القديس بولس رسالته ، يضاف الى ذلك ان المعروف المتالف عليه هو ان الاسكندر الاكبر لم يولد هنا ولكن ولد فى « بيللا » ، أما تيبيس » Thebes أو طيبة فقد اشتهرت بانتاجها من الحرير .

(٣٣) لقد وقع هذا الامر الذى يشير اليه مؤلف الذيل فى سنة ١١٦٥ ، أما الاحداث التاريخية التالية التى يوردها فى هذه العبارة غخاطئة ذلك أن ثورة براناس Branas ورحلة كونراد الى القسطنطينية كانتا سنة ١١٨٧ م زمن اسحق الثانى .

(٣٤) كان فيليب دى سوابيا المتوفى سنة ١٢٠٨ ابنا للامبراطور فردريك بربروسة (١١٥٢ ـ ١١٩٠) وقد تزوج ابنة اسحق .

أما فيما يتعلق بالكسيوس بن اسحق فقد ظل محبوسا فى القسطنطينية حتى فر وذلك سنة ١٢٠١ . أما ما يورده المؤلف من الاشارة الى مقدم رجال من فرنسا فهذه اشارة الى الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ .

(٣٥) المقصود بذلك رينو دى شاتيون الذى ولى امارة انطاكية بفضل زواجه من الأميرة كونستانس ولكنه كان فى هذه الفترة التى يتكلم عنها المؤلف فى المتن صاحب ما وراء الأردن بسبب زواجه من وريثتها .

(٣٦) المقصود بذلك « جيرار دى ريد فورت » Gerard de Ridefort ١١٨٥ ـ ١١٨٩ .

(٣٧) تشير بعض المراجع الى ان رينو دى شاتيون كان اذ ذاك فى الكرك وليس بعكا التى بقيت أهم قلعة فى ممتلكاته فى ناحية ما وراء الأردن .

(٣٨) كانت كنيسة القديسة مارى المجدلية والمعروفة بكنيسة اليعاقبة تقع قريبا من الطرف الشرقى لحائط القدس الشمالى .

(٣٩) ربما كان الأصح أن تكون هذه العبارة بالصورة التالية « أحبوا ابنة الملك عمورى أكثر من غيرها » .

(٤٠) هذا ما تشهد به بعض الوثائق .

(٤١) انظر فيما بعد فقرة ٣٣ .

(٤٢) المقصود بذلك ما جرى فى وقعة حطين يوم ٤ يوليو ١١٨٧ . أما الاشارة الى « سنت مارتن كاليدوس فمقصود بها عيد الاحتفال بترسيم سنت مارتن دى تور » الذى سمى بذلك للتفرقة بينه وبين عيد قديس أخر بنفس الاسم يقع يوم ١١ نوفمبر .

(٤٣) كان بلدوين الابلينى صاحب الرملة وميرابــل هو الاخ الاكبر لباليــان الابلينى ٠

(٤٤) كانت ايزابيلا Isabella التى هى ابنة الملك عمورى من ماريا كومنينا قد تزوجت من همفرى الرابع صاحب تورون سنة ١١٨٢ ٠

(٤٥) هو بوهيموند الثالث (١١٦٣ ـ ١٢٠١) ٠

(٤٦) المعروف أن بلدوين كان فى انطاكيــة فى فبراير ١١٨٧ ، ولا يعرف شيء عن تحركاته بعد هذا التاريخ ٠

(٤٧) تبعد طبرية عن بانياس حوالى أربعين ميلا ٠

(٤٨) كان توليــه أمر أسقفية صــور لمدة قــاربت ســبع عشرة ســنة أى من ١١٨٦ حتى ١٢٠٢ ٠

(٤٩) هو رينالد صاحب صيدا وقد امتدت فترة حكمه لها من ١١٧١ حتى ١٢٠٠ ٠

(٥٠) فى الأصــل « المســاء التــالى » والصــواب ما اثبتنــاه وهــو « الصباح التالى » ٠

(٥١) ذكر مترجم هذا الذيل الى الانجليزية أن الملك الأفضل نور الدين أبا الحسن على (المعروف عند معظم الكتاب بالافضل) وهو أكبر أولاد صلاح الدين وقد حكم دمشق من ١١٩٣ حتى ١١٩٦ ، وعقب على ذلك بأن صاحب الذيل ذكر عبارات أخرى وهى خاطئة منها أنه أصبح فارسا منذ عهد قريب ، ومن هذه العبارات أيضا أن قواته كانت مرابطة على الجانب الشرقى للأردن عند مخاضة يعقوب على بعد بضعة أميال قليلة شمالى الجليل ٠

(٥٢) تقــع الفولــة La Féve شمــالى الخــليل أما القــاقون Coco فتقع بين نابلس و « قيصرية » وهما من قلاع الداوية ٠

(٥٣) يظهر ان جزءا من خبر هذه المشاحنة ضائع من النص ، كما قال مترجم الذيل الى الانجليزية ٠

(٥٤) انظر الوثائق

(٥٥) تشير الترجمة الانجليزية لهذا الذيل الى أن احدى مخطوطات Chronique d'Ernoul تضــيف أن هــذا « الســـيد » كان يدعى « أرنــو » Ernous وانه هو أول من دون هذه الرواية ٠

(٥٦) كان باليــان قد تزوج ماريا كومنينا أرملة الملــك أمورى ســنة ١١٧٧ ٠

(٥٧) كانت هذه الناحيــة من أملاك الاسبتارية وتقع بين نابلس والفولة ٠
(٥٨) نبع صفورية في الجليل وعلى مسافة قريبــة من شــمالى الناصرة ٠
(٥٩) انظر فيما بعد فقرة ٣٧ ٠
(٦٠) يتمثل هذا فى الابحــار الى الشرق الذى كان يحدث مرتين كل سنة ٠
(٦١) استشهد « توماس بيكيت » Thomas Beckel فى كنيسة كانتربرى ١١٧٠ ٠ أما عن ثروة الملك هنرى فانظر :

H. E. Mayer : Henry II of England and The Holy Land in Eng. Historical Revi., 97, 1982 ; C. Tyerman : England & The Crusades, (1095-1588), Lond. 1988, pp. 45-48, 54-56.

(٦٢) تشير الترجمة الانجليزية الى أنه ربما كان مثلا شعبيا من أمثلة ذلك الزمن ويقصد به « النفاق » ٠

(٦٣) كانت « بوترون » Botron مقاطعــة فى اقليم طرابلس وتقع بين جبيــل وطرابلس ٠ واخـــر ما يعـــرف عن وليـم Dorel أنه كان على قيد الحياة سنة ١١٧٤ ٠

أما « بليفان » Plivain فكان فصلا تابعــا لريموند صاحب طرابلس سنة ١١٧٩ ثم أصبح صاحب « بوترون » سنة ١١٨١ ٠

أما هنرى لى بافل Henry Le Buffle الذى هو من كبار لوردات القدس فقد مات قبل سنة ١١٧١ ٠

وأما هيج الثالث ، لورد جبيل ، فقد حكم من ١١٧٧ حتى ١١٨٦ ، ثم خلفه ابنــه « جى الأول » من ١١٨٦ حتى ١٢٣٣ ٠

(٦٤) كانت وفاة أرنولد فى سنة ١١٨٤ ٠
(٦٥) فيمــا يتعــلق باستشهــاد « جــيرار » Gerard وما ذاع من شهرته راجع :

M. Barber : The New knighthood : A Hist. of the Order of the Temple (Cambridge, 1944), pp. 109-110.

(٦٦) راجع ما سبق فقرة ١٨ ٠
(٦٧) انظر (سفر العدد ٢٢/٢٤ ، ٢٤/١٧) ٠

(٦٨) الأخبار الواردة أعلاه تتعلق بسنة ١١٨٠ كما يستدل من سـياق الكلام ، ويشــير مترجم الذيل P. W. Edbury الى انه يغلب على الظن أن الفقرات من ٣٧ حتى ٣٩ قد نقلت من موضع آخر ووضعت هنــا فأصبحت بذلك فى غير موقعها كما يلاحظ أن « أمورى دى نيسلى » Nesle كان البطرك =

من ١١٧٥ حتى ١١٨٤ · أما هوفيل فكان رئيس شمامسه القدس سنة ١١٦٩ ، ثم أصبح رئيس أساقفة قيصرية سنة ١١٧٥ · انظر فى تحقيق ذلك :

P. W. Edbury & J. G. Rowe : William of Tyre and the Patriarchal Election of 1180 (in) Eng. Historical Review, 93 (1975).

(٦٩) الاشارة هنا الى الامبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤٠ م) ، الذى استرد الصليب من الفرس ، ويلاحظ أن وليم الصورى يفتتح تاريخه بهذا الخبر ·

(٧٠) راجع الأعمال (أول) ١/٢٢ ـ ٢٦ ·

(٧١) فيما يتعلق بأخبار هذه المحاولة من الاساءة الى سمعته يمكن الرجوع الى ما كتبه :

B. Z. Keder, The Patriarch Eracle (in) Outremer, pp. 177-204.

أما فيما يتعلق بقصة نفيه فمحض خيال · ويمكن للقرىء للمزيد من مناقشة هذا الموضوع الرجوع الى :

Cf. M. R. Morgain, The Meanings of Old French Polain Latin East (Camb.) 1988, pp. 20-22.

(٧٢) راجع ما كتب عن حطين للاستزادة ·

(٧٣) المعنى هنا تكرار لما هو وارد فى فقرة ٢٤ ·

(٧٤) انظر :

Cf. M. R. morgain, The meanings of Old French Polain Latin.

(٧٥) هو ايمرى دى لوزنيان الذى سيصبح فيما بعد ملكا على بيت المقدس (١١٩٧ ـ ١٢٢٥) كما كان أول ملك لقبرس (١١٩٦ ـ ١٢٠٥) ويلاحظ أنه كان كونستابل القدس منذ حوالى سنة ١١٨١ م أو قائد حاميتها ·

(٧٦) كان كل من هيج ووليم ورالف وأوستى Oste ربيبا اريـوذ ، وهم أبنـاء زوجتـه الصغار من زوجها وولتر فالكونبيرج Falcoberg

(٧٧) كان ذلك من حوالى التاسعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر ·

(٧٨) هو هنرى دى شامبين حاكم الجـزء الذى تبقى من مملـكة القـدس ١١٩٢ ـ ١١٩٧م ·

(٧٩) الشخصيات المقصودة فى هذه الفترة هم :

البابا اربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧) ، والامبراطور فردريك بربروسة (١١٥٢ ـ ١١٩٠) والملك فيليب الثـانى اغسطس (١١٨٠ ـ ١١٢٣) ، والملك هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩) ، واسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥) ·

(٨٠) الاشارة هنا الى جريجورى الثامن (أكتوبر ـ ديسمبر ١١٨٧) وكليمنت الثالث (١١٨٧ ـ ١١٩١) أما عن سد ارة رئيس الأساقفة « جوشيوس » Jocius فانظر فيما بعد الفقرتين ٧٢ ، ٧٤ ٠

(٨١) هذا خطأ من كاتب الذيل ٠

(٨٢) كانت أسرته (وتنطق بصور مختلفة : برتشى ، وبريزى ، وبريسى) من العائلات البندقية الثرية ، كما كانت لها علاقات قديمة بعكا ، انظر فى ذلك Prawer, Crusader Institutions, p. 288., D. Jacoby, L'expansion occidentale dans le ievant : Les Venetiens à Acre dans la 2em moitié de 13eme siecle. (Journal of medieval Hist., 3, 1977, pp. 240-242.

(٨٣) كان استسلام صيدا يوم التاسع والعشرين من يوليو ، أما استسلام بيروت فكان السادس من أغسطس ٠

(٨٤) كان هيج صاحب جبيل من بين الذين وقعوا فى الاسر فى حطين ٠

(٨٥) الواقع التاريخى يخالف ما يذكره الذيل ٠ فالمعروف أن صلاح الدين لم يذهب الى طرابلس بل اتجه جنوبا بعد الاستيلاء على جبيل ٠

(٨٦) تقع كل هذه الحصون والمدن فى امارة انطاكية وليست فى قليقية ٠ ويلاحظ تاريخيا أن هذه المعركة جرت فى الشام فى صيف ١١٨٨ ، وبذلك يكون وضع هذه الحادثة فى هذا الموضع خطا ٠ انظر فقرة ٧٥ ٠

وربما كان المقصود بذلك منطقة Bourgey التى استولى عليها صلاح الدين فى أغسطس ١١٨٨ ٠

(٨٧) ان قصة « جون جالى » John gale بأكملها من وحى الخيال ، ذلك أنه لا يمكن أن يكون صلاح الدين موجودا فى ناحية ـ صخرة وليم » Roche Guillaume سنة ١١٨٧ م ٠

(٨٨) يكرر صاحب الذيل الخطأ الذى أورده فى الفقرة ١٦ ، ولكنه يقرر الصواب فى فقرة ٤٢ اذ يذكر ان اسحق الثانى كان هو الامبراطور أثناء فترة حطين ٠

(٨٩) يبدو أن فى هذا التاريخ مغالطة للتاريخ ٠

(٩٠) فى الواقع ان عسقلان استسلمت يوم ٤ سبتمبر ١١٨٧ ٠

(٩١) نسى صاحب الذيل أن يذكر أن المسيحيين كانوا لا يزالون مسئولين على قلاع Beaufort و Belvoir وصفد · انظر فيما بعد الفقرات ٦٢ ، ٦٧ ـ ٧٠ ·

(٩٢) فيما يتعلق برسالة كان قد كتبها قبل ذلك بقليل البطرك وذلك قبل بدء الحصار ·

(٩٣) Cf. R. Rogers, Latin Siege Warfare in the 12th Century, Oxford. 1992, pp. 254-273.

(٩٤) كان ذلك يوم ٢٥ سبتمبر ١١٨٧ انظر :
P. W. Edbury (ed.) Crusade and Settlement (Cardiff., 1986).

(٩٥) انظر فقرة ١٨ وقارنها بما جاء في :
Prawer, The Jerusalem the Crusaders Captured.

(٩٦) هو سيف الدين المتوفى سنة ١٢١٩ والمعروف عند المؤرخين بالعادل وقد اغتصب منذ أخريات التسعينيات النفوذ والقوة والأرض من ابناء صلاح الدين ·

(٩٧) هذه اشارة الى استيلاء الصليبيين على القدس سنة ١٠٩٩ فى الحملة الصليبية الأولى يوم كانوا بقيادة جود فروى دى بويون ·

(٩٨) فيما يتعلق بمدخرات أموال الملك هنرى الثانى ، راجع ما سبق فقرة ٢٩ ·

(٩٩) ربما كان هذا الشعب هو المعروف باسم
Le Puy de Connectable
وهو واقع على الساحل بين « بوترون » ونيفين Nephin · انظر فيما بعد فقرة ٦٠ ·

(١٠٠) كانت « نيفين » مقاطعة فى كونتية طرابلس وهى تقع على بعد عدة أميال قليلة من طرابلس ·

(١٠١) المقصود برومانيا هنا وفى بعض المصادر التى تتكلم عن العصور الوسطى الغربية : الأراضى البيزنطية ·

(١٠٢) يلاحظ القارىء أنه قد وقع خطأ فى ذكر الأحداث هنا ، وذلك فى معرض الكلام عن هاتين القلعتين أو هذين الحصنين فالواقع يؤكد أنهما استسلمتا بعد حصار طويل اذ كان استسلام صفد فى ديسمبر ١١٨٨ ، على حين أن استسلام بلفوار Belvoir كان فى ينساير ١١٨٩ ·

(١٠٣) ذكر أحدهم فى تعليق له على أحد ذيول وليم الصورى انه فى سنة ١١٩٧ - فى معرض الكلام عن استرداد المسيحيين لبيروت فى تلك السنة - وجد مكتوبا على حائط الحصن أن الشوانى التى فرت من صور وجاءت الى بيروت قد أنزلت ضررا كبيرا « لأكثر من أربعة عشر الف رجل وقعوا فى أسرها ، وانها أرسلت محروسة الى بلاد الكفر ... » .

(١٠٤) المقصود بذلك الكلام الفترة من أول نوفمبر الى أول ينـاير . أما المصادر الغربية فانه على الرغم من اتفاقها على أن هذه الهزائم حدثت فى نهاية ديسمبر الا أنها تقول أيضا أن الحصار بدأ حوالى الثانى عشر من نوفمبر .

(١٠٥) واضح أن هذا خطأ لأن كلا من هذين الموضعين كان شديد البعد عن الآخر .

(١٠٦) تختلف هذه الرواية اختلافا كبيرا عن الرواية الواردة فى المصادر الإسلاميـة ، ذلك أن صلاح الدين وجه اهتمامه أولا فى ابريل ١١٨٩ الى « بوفورت » ، الا أن « رينالد » قام بسلسلة من الحيل ليؤجل الهجوم بضـعة أشهر . ثم ألقى صلاح الدين القبض على رينالد وزج به فى السجن واستسلمت الحامية فى أبريل ١١٩٠ . كذلك يلاحظ الخطأ فى اعتبار هذه الحادثة وقعت مباشرة عقب سقوط صيدا .

(١٠٧) هذه اشـارة الى حرب « ثيبوت » Thibaut ملك نفـارة وكونت شامبين الصليبية ، وكان وصول الكونت الى عكا سنة ١٢٣٩ .

ويلاحظ أنه فى سنة ١٢٤٠ حصل على تنازلات كثيرة شملت كثيرا من الأراضى التى فى أيدى المسلمين .

(١٠٨) كان بلبان الصيداوى أحد المتفاوضين فى عقد الاتفاقية الموقعة بين فردريك الثـانى والكامل سلطان مصر سـنة ١٢٢٩ . ويلاحظ أن احتـلال الألمان الصليبيين كان فى نهاية عام ١٢٢٧ .

(١٠٩) كان جوشيوس قد غـادر الأراضى المقدسـة فى خريف ١١٨٧ . وكان قد اتخذ طريقـه الى « جيسورس » Gisors الواقعـة على حدود نرمنديا وذلك فى ينـاير التالى .

(١١٠) يخطىء صاحب الذيل فى اعتقاده أن هذه الحوادث قد جرت بعـد سمل عينى اسحق الثانى على يد أخيه الكسيوس وهو الحدث الذى لا يشك أحد فى وقوعه ولكنـه وقع سنة ١١٩٥ . ومن المعروف أن غزو وليـم الثـانى

للامبراطورية البيزنطية كان فى سنة ١١٨٥ ، كما أن اقتراب جيشه كان عاملا كبيرا عجل بسقوط أندرونيكوس كومنينوس فى هذه السنة · راجع :
Donald Nicole : Biographical Dictionary of the Byzantine Empire.

(معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة حسن حبشى ، القاهره ٢٠٠٢) ·

وقد استولى النرمنديون على « دورازو وتسالونيكا » ، ولكن الأحداث التى صحبت سقوطها النهائى كانت قليلة المشابهة للرواية المذكورة أعلاه · انظر :
Brand : Byzantinum Confronts the West, pp. 160-175.

(١١١) هناك روايات أخرى تجعل سفن وليم أربعة سفن كبرى ، على أن هناك روايات أخرى توصلها الى مائة سفينة أو بطسة ·

(١١٢) كانت وفاة وليم الثانى فى سنة ١١٨٩ ·

(١١٣) كان هنرى أسن أولاد فردريك بربروسة وهو الذى حكم الامبراطورية وعرف بهنرى السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧) وكان زواجه من كونستانس سببا مؤديا الى استحواذه على عرش صقلية · أما الابن الثانى لفردريك فكان دوق سوابيا الذى مات فى عكا سنة ١١٩١ · أما أصغر الأبناء وهو فيليب دوق سوابيا (المتوفى سنة ١١٩٧) فقد تزوج « ايرين » ابنة الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس · انظر : Donald M. Nicole, op. cit., p. 50.

وكانت ايرين قد سبق لها أن تزوجت من روجر بن تانكريد ملك صقلية · أما فيليب فكان عمدة آخن وقد نودى به رئيسا لاسقفية « هيربيرج » Wuzburg وكان هناك أخ خامس اسمه « كونراد » ولكنه اغتيل سنة ١١٩٦ ·

(١١٤) كان هناك فى يناير ١١٨٧ صدام حربى وان يكن غير فاصل بينه وبين « شاتورو » Chateauroux وذلك بعد أن احتل فيليب ايسيدون Issoudon وغيرها من الأماكن ·

أما القول بأن الرسل البابويين وحدوا صفوف المتقاتلين بعد أن كان هناك التحام حربى فمحض خيال ·

(١١٥) كان ذلك فى مطلع صيف ١١٨٨ ·

(١١٦) كان حصار « طرطوس » Tortosa فى النصف الأول من يوليه ١١٨٨ ·

(١١٧) راجع فقرة ٤٩ فيما سبق ·

(١١٨) كان اطلاق سراح « جى » فى يونيو ١١٨٨ ·

(١١٩) كان الشرط الثانى لاطلاق سراح الملك « جى دى لوزنيان » هو الا يظل مقيما فى الشرق بل عليه أن يمضى الى بلاد ما وراء البحــار · انظار هنـا فيما بعد فقرة ٨٧ ·

(١٢٠) كان استسلام الكرك فى نوفمبر ١١٨٨ · أما استسـلام مونتريال Montreal فكان فى أبريل أو مايو ١١٨٩ · أما القول بان صلاح الدين رفع الحصار عن « طرطوسة» Tortosa ثم عاوده فقول خاطىء كل الخطأ ·

(١٢١) سقطت « فالانيا » Valania فى منتصف يوليو ١١٨٨ · وكانت تطل على المرقب الذى هو حصن الاسبتارية ·

(١٢٢) استسلمت جبلة واللاذقيــة لصلاح الدين يومى ١٥ و ٢١ يوليو على التوالى ·

(١٢٣) راجع ما سبق فقرة ٤٥ ·

(١٢٤) انظر أنجيل يوحنا ٢/١٦ ·

(١٢٥) انظر فيما بعد فقرة ٨٤ ·

(١٢٦) كان كونت طرابلس حينذاك هو «بوهيموند الرابع بن بوهيموند الثالث» صاحب انطاكية · ثم أصبح مالكا بعد ذلك لكل من طرابلس وانطاكية معـا ، وعرف حينذاك باسم بوهيموند الرابع (١٢٠١ ـ ١٢٢٣) ·

(١٢٧) كان رد جى عند صور فى صيف ١١٨٩ ·

(١٢٨) وكان ذلك الرد فى أغسطس ١١٨٩ ·

(١٢٩) انظر انجيل يوحنا ١٦/١٤ ·

(١٣٠) كان ذلك فى سبتمبر ١١٨٩ ·

(١٣١) على الرغم من أن ذلك كان فى اكتوبر ١١٨٩ الا أن هنـاك رواية اخرى تخالف هذه الرواية ·

(١٣٢) راجع فقرة ٧٥ ·

(١٣٣) كان خروج فردريك فى مايو ١١٨٩ ، ولكنه لم يستطع دخول آسـيا الصغرى حتى مارس من العـام التالى ١١٩٠ ·

(١٣٤) هو قلج أرسلان المعروف بالثانى (١١٥٥ ـ ١١٩٢) ·

(١٣٥) هذا هو التاريخ الذى تجمع الأحداث على صحته ·

(١٣٦) هو جودفرى اسقف « فيرزبيرج » Wurzburg من سنة ١١٨٤ حتى ١١٩٠ ثم صار كونت « هلفنشتاين Helfstein »

(١٣٧) كان ليون الثانى قد اصبح حاكم ارمينيا الكليكية سنة ١١٨٧ وقد توج باعتباره اول ملك فى يناير ١١٩٨ ، ومات سنة ١٢١٩ . انظر الفقرة ١٨٥ .

(١٣٨) بدأت الحرب بين كل من الأرمن وأمراء انطاكية سنة ١٢٠١ وذلك عند وفاة بوهيموند الثالث أمير انطاكية الذى خلفه ولده بوهيموند الرابع (١٢٠١ ـ ١٢٢٣) ولكن الأرمن وقفوا الى جانب « روبين المعروف باسم « ريموند روبين » وقد استمرت الحرب حتى مطلع ١٢٢٠ م .

(١٣٩) اشترك الداوية فى سنة ١٢١١ فى حملة ضد أرمينية وأيدهم البابا انوسنت الثالث واستحوذوا فى النهاية على بغراس سنة ١٢١٦ . أما الاشارة الواردة فى المتن فهى اشارة الى الأحداث التى جرت سنة ١٢١١ . انظر فى ذلك : Eracles, pp. 317-318.

ونضيف الى ما سبق أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١١١٦) واجه عدة مشكلات فى ألمانيا حين انتخب فيليب دى سوابيا واوتو دى برنسويك وحدث بينهما تصادم اذ أراد كل منهما أن يكون له الحكم بعد هنرى فالتمس المتنازعان من البابا الرأى فأعلن أن من حق الكنيسة التدخل وأن رأيها هو الذى يسرى . انظر فى ذلك :

Dikelly : Oxford Dictionary of Popes, pp. 186-188.

وانظر ترجمتنا العربية لهذا القاموس بعنوان : الألفية الثالثه لبابوية روما ، ترجمة حسن حبشى (تحت الطبع) .

(١٤٠) الوارد فى بعض المراجع الافرنجية ان فردريك مات يوم الأحد ١٠ يونيو ١١٩٠ وهو التاريخ الذى أخذ به الذيل .

(١٤١) أخطأ المؤلف اذ قال « جوبيرت » بدلا من « أديمار أسقف بوى » الذى صحب الحملة الصليبية الأولى والذى مات فى انطاكية سنة ١٠٩٨ ... اما اكتشاف الحربة المقدسة فكان بعد قليل من الاستيلاء على انطاكية فى نفس السنة .

(١٤٢) كانت وفاة فردريك دوق سوابيا يوم ٢٠ يناير ١١٩١ قبل سقوط عكا وليس بعد سقوطها .

(١٤٣) هذا اشارة الى الحرب الصليبية الخامسة ١٢١٧ ـ ١٢٢١ .

(١٤٤) فيما يتعلق بالمحاولات الكثيرة التى بذلها الاسبتارية لتأكيد شرعية حقهم وسيطرتهم على نظام الفرسان التيوتون راجع :
J. Riley-Smith, The Knignts of St. John in Jerusalem & Cyprus, 1050-1310 (Lond, 1967, pp. 397-398.

(١٤٥) انتخب « سلستين الثالث » بابا روما يوم ١٥ ابريل ١١٩١ وقام بتتويج هنرى غداة يوم انتخابه ، انظر :
Kelly : Oxford Dictionary of Popes, pp. 184-186.
وقد قمنا بترجمته الى العربيـه احسه بالدعيه السسـه ٠

(١٤٦) سترد تفصيلات اضافية عن حقوق هنرى فى صقلية فيما بعد فى الفقرة ١٦٨ ٠

أما فردريك الثانى بن هنرى فقد توج امبراطورا سنة ١٢٢٠ ومات سنة ١٢٥٠ ٠

(١٤٧) لقد تزوج هنرى الأصغر من مرجريت التى هى بنت لويس من زوجته الثانية كونستنس القشتاليـة ٠

(١٤٨) لقد تزوجت اليانور Eleanor ابنـة هنرى الثامن من الفونسو الثامن صاحب قشتالة ، وكانت ابنتهما « بلانش » زوجة لويس ملك فرنسا (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦) وهى أم القديس لويس

(١٤٩) كانت ماتيلدا قد تزوجت من هنرى الأسد دوق سكسونيـا وماتت سنة ١١٩٥ ٠

(١٥٠) المقصود بها « جوانة » التى ارتبطت فى مستقبلها بحرب ريتشارد الصليبية ، انظر فيما بعد الفقرات ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٤٢ ٠

(١٥١) مات هنرى سنة ١١٨٣ ٠ أما فيما يتعلق باستشهاد القديس توماس قديس كانتربرى سنة ١١٧٠ فأنظر فيما سبق فقرة رقم ٢٩ ٠

(١٥٢) راجع فقرة ٧٤ ٠ أما عن المنازعات التى كانت بين هنرى الثانى وفيليب فى نهاية عهد هنرى فراجع عنها :
W. L. Warren, Henry II, Lond., 1972, pp. 608-628.

(١٥٣) مات هنرى فى « شينون » Chinon فى يوليو ١١٨٩ ٠

(١٥٤) أعلن ريتشـارد تبعيتـه وولاءه لفيليب فى نوفمبر ١١٨٨ ، وقـد ظهرت فكرة وجوب زواجه من أليس Alice أخت فيليب ملك فرنسـا لأول مرة سنة ١١٩٨ ٠

(١٥٥) كان تتويجه يوم الثـالث من سبتمبر ١١٨٩ .

(١٥٦) كان مولد لويس ابن فيليب فى سنة ١١٨٧ .

اما الذين قدموا بالبوصانيا ـ اثنـاء غيـاب فيليب ـ فالملكـة الأم « اديلا » Adela التى هى من « شامبين » وأخوها رئيس أساقفة ريمز .

أما كونت « بونثيو Ponthiew الذى كان اسمه جون (وليس رينالد) فكان قد التحق بالحرب الصليبية ومات فى عكا .

(١٥٧) كان هذا الحـادث قد تم فى مسينا بصقلية وليس فى بالرمو كما هو وارد فى المتن اعلاه .

وقد كان وصول ريتشارد الى مسينا يوم ١٤ سبتمبر ، كما كان وصـول فيليب بعـده يوم السادس عشر من سبتمبر .

(١٥٨) انظر فيما بعـد فقرة ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

(١٥٩) كان وصول هنرى دى شامبين وغيره الى عكا فى صيف ١١٩٠ .

(١٦٠) تكلم عن ضريبة الموتى رئيس اساقفـه كانتربرى وقد رضت بسبب كثرة عدد القتلى .

(١٦١) كان ذلك فى أواخر صيف ١١٩٠ أو فى مطلع خريف تلك السـنة .

(١٦٢) راجع فقرة ١٩ .

(١٦٣) كانت « ستيفانى صاحبة ميلى » (وريثـة اقطاعيات ما وراء الأردن) قد تزوجت بدورها من همفرى الثـالث صاحب تورون ، ثم من « ميلز دى بلانس » ورينو دى شاتيون .

(١٦٤) هو فيليب دى « درو » Dreux أسقف بوفيـه (١١٧٥ ـ ١٢١٧) ابن عم الملك فيليب .

(١٦٥) يخبرنا وليم الصورى أن زواجهما بعضهما ببعض تم حين كانت « ايزابلا » لا تزال طفلة فى الثامنة من عمرها ، وان هذا الزواج عقد فى سنة ١١٨٣

(١٦٦) هذه اشارة لاهميـة صور فى هذه الأحداث .

(١٦٧) راجع فقرة ٤٧ .

(١٦٨) تزوجت « جوانه » من ريموند الرابع صاحب تولوز سنة ١١٩٦ .

(١٦٩) كانت العملية عملية ابتزاز أكثر من اى شىء أخر ، ويتجلى ذلك فى أن تنكريد احتفظ لنفسـه بدوطة « جوانه » بعـد موت زوجها .

(١٧٠) أبحر فيليب من مسينا يوم ٣٠ مارس ١١٩١ ووصل الى عكا يوم العشرين من أبريل من السنة ذاتها ٠

(١٧١) هو الملك شانجه Sacho السادس (١١٥٠ ـ ١١٩٤) وكانت « بيرينجاريا » Berengaria ابنته وليست اخته ٠

(١٧٢) لمناقشة الظروف التى أحاطت بزواج برينجاريا بريتشارد انظر :
J. Gillingham, Richard I and Berengaria of Navarre, (in) Richard Coeur de Lion, Kingship, Chivalry & War, pp. 119-131.

ونرى أن « جلنجام » فى هذا البحث يرفض قصة الأحداث كما رواها صاحب الذيل هنا ٠

(١٧٣) كانت قبرص ولاية تابعة لبيزنطة ولكن اسحق دوكاس كومنينوس المذكور من قبل فى الفقرة رقم ١٣ كان قد ثار ضد حكومة القسطنطينية فى منتصف الثمانينيات وأصبح مستقلا بحكمها منذ ذلك الحين ٠

(١٧٤) حكم « توروس » ولاية أرمينية الكيليكية ١١٤٨ ـ ١١٦٨ وهو عم ليو الأرمنى صاحب الجبل ٠

(١٧٥) انظر فيما بعد الفقرات ١١٧ و ١١٩ و ١٤٤ ٠

(١٧٦) كان ذلك يوم السادس من مايو ١١٩١ ٠

(١٧٧) للاطلاع على تفسير آخر لغزو ريتشارد لقبرص بدءا من النقطة انظر Documents

(١٧٨) لم تكن السيطرة اللاتينية الدينية قد فرضت على قبرص سنة ١١٩٦ ، ولقد كان أول أسقف لنيقوسيا هو « آلان Alan الذى كان من قبل رئيس شمامسة ليديا ٠

(١٧٩) كان زواج ريتشارد وبيرينجاريا يوم ١٢ مايو ٠

(١٨٠) كان وصول ريتشارد الى عكا يوم الثامن من يونيو ٠

(١٨١) كان هذا الموضع قريبا من الشاطىء الى الشمال من عكا ٠

(١٨٢) راجع فقرة ٧٥ ٠

(١٨٣) استسلمت عكا للمسيحيين يوم ١٢ يوليو ١١٩١ ويظهر أن ناسخ الأصل للذيل قد اختلط عليه يونيو بيوليو فجعله فى النص « يونيو » ٠

(١٨٤) يقرر ريتشارد نفسه أن هذا هو عدد الأسرى المسلمين الذين قتلهم ٠

ولقد كانت هذه الذبحة يوم العشرين من أغسطس سنة ١١٩١ م ٠
أما تحصينات عسقلان فقد هدمت فى سبتمبر ٠

(١٨٥) مات فيليب دى فلاندرز يوم الأول من يونيو قبيل استسلام عكا ٠

(١٨٦) غادر فيليب مدينة صور يوم الثالث من أغسطس ٠

(١٨٧) لعله يقصد « ايمرى اللوزنيانى » كونت يافا ٠

(١٨٨) بدأ الزحف الى الجنوب يوم الثانى والعشرين من أغسطس واستمرت حتى السابع من الشهر التالى ٠

(١٨٩) بعد أن احتل ريتشارد يافا ، وبعد أن دعم موقفه فى المنطقة المحيطة به هناك لم يستطع الوصول الى بيت « نوبة » حتى ديسمبر ٠

(١٩٠) لقد ادمج الكاتب معا المرتين اللتين تقدم فيهما ريتشارد ناحية القدس (وهما فى ديسمبر / يناير ١١٩٢ ويونيو / يوليو ١١٩٢) ٠
أما وفاة دوق برجنديا فكانت فى أغسطس ١١٩٢ ٠

(١٩١) كان ذلك فى شهر أبريل ١١٩٢ ٠

(١٩٢) كان سايس Sais ، وجون دى مونى Monniei مقيمين بطرابلس فيما بين ١١٧٩ و ١١٩٩ ٠

(١٩٣) الاشارة هنا الى بلدوين كونت فلاندرز الذى أصبح أول امبراطور لاتينى للقسطنطينية عام ١٢٠٤ ٠ ويشير الذيل فيما بعد الى مسألة هامة هى كيف أنه لم يستطع احترام عهوده عن المنح والاقطاعات فى الأقاليم المفتوحة ٠

(١٩٤) كان موت كونراد يوم ٢٨ أبريل ١١٩٢ ٠

(١٩٥) كانت قلعة « جيسور Gissors » من القلاع الهامة الكبيرة الواقعة على الحدود النرمندية ، وقد استسلمت لفيليب يوم ١٢ أبريل ١١٩٣ أثناء وجود ريتشارد فى الأسر فى ألمانيا ٠

(١٩٦) الواقع أنه عند موت « ايزابيلا » عام ١٢٠٥ خلفتها مارية التى هى ابنتها من كونراد ٠

(١٩٧) فى هذا الكلام شيء من البعـد عن الواقع والحقيقة ، ذلك أن كونراد كان قد مات يوم الثامن والعشرين من ابريل الذى كان يوم ثلاثاء ، أما الزواج فتم بعـد أسبوع أى بعـد ثمانية أيام وذلك يوم الخـامس من مايو ٠

(١٩٨) أى أول أغسطس ١١٩٢ ٠

(١٩٩) تقع يازور قرب يافا ٠

(٢٠٠) انظر فقرة ٧٥ ٠

(٢٠١) وهى اللاترن أو تورون دى شتيفالييـه بين الرملة والقدس ٠

(٢٠٢) وذلك فى الشمال من بحر الجليل ٠

(٢٠٣) أما Cesterne Rouge او الصهريج الاحمر فيقع الى الجنـوب من الطرق التى تربط يافا بالقدس ٠

(٢٠٤) لقد شغلت هذه الأنشطة ريتشارد فى الشهور الأولى من سـنة ١١٩٢ ولم يعد ذلك خافيا على أحد ٠

(٢٠٥) كانت « بانياس » من الفتوح الكبرى التى تمت لنور الدين والتى سلبها من « عمورى » ٠

(٢٠٦) هذه اشارة من المؤلف صاحب الذيل على تاريخ وليم الصورى الى الأسطول الذى كان قد وصل فى أواخر ربيع ١١٩٢ أو أوائل صيفها ٠

(٢٠٧) تم الاتفاق على الهدنة يوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ على أن تكون مدتها ثلاثة أعوام وثلاثة أشـهر ٠

(٢٠٨) وكان رحيل ريتشـارد عن عكا يوم التاسع من اكتوبر ١١٩٢ ٠

(٢٠٩) يعنى بذلك بحر الادرياتيك ٠

(٢١٠) لقد تداخل الخيال والحقيقة فى موضوع القبض على ريتشـارد ، والواقع أنه تم القبض عليه بفيينا فى ديسمبر ، واذ ذاك أمر ليوبولد حـاكم النمسا بحبسـه فى القلعـة الموجودة فى درمشتين Durmestein ثم أسلمـه الى الامبراطور فى فبراير التـالى ٠

انظر فى ذلك : J. Gallingham, Richard the Lion heart (Lond., 1989), ch. II.

(٢١١) ربما كانت القصة الأكثر صدقا وشيوعا هى أن رجال ريتشـارد كانوا قد أنزلوا علم ليوبولد من فوق أسوار عـكا سـنة ١١٩١ ، أما دوق « ليمبورج » Limburg فاسـمه « هـنرى » ٠ وقـد ذاع اسـم ابنه « فالرام » Walram فى الحرب الصليبية الالمانية سنة ١١٩٧ ٠

(٢١٢) كان روبرت الثالث الثالث ايرل ليسير رفيقا لريتشــارد خــلال حربه الصليبية • وقد عاد الى نرمانديا ليتولى الدفاع عن « روان » ضد الملك فيليب سنة ١١٩٣ •

(٢١٣) تم تحديد مبلغ الفدية بمائة الف مارك يضاف الى ذلك ما تقرر على ريتشــارد من أن يدفع لليوبولد خمسين الف مارك دوطة حتى يبعث اخته لتتزوج ابن ليوبولد • وكان من الرهائن قريب لريتشارد وابن ملك نفارة وابنا خصمى هنرى الأسد دوق سكسونيــا • أما الافراج عن ريتشــارد فكان فى فبراير ١١٩٤ ووصل الى انجلترا يوم ١٣ مارس •

(٢١٤) هذا رأى عجيب فقد كان ذلك أمرا معروفا منذ أن عينــه بلدوين الرابع •

(٢١٥) كان مرت جى حوالى سنة ١١٩٤ ، وكان أخوه جوفرى (انظر فقرة ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٦) قد أخذ كونتية يافا وعسقلان ولكنــه عاد الى الغرب وربما كان ذلك الرجوع سنة ١١٩٢ •

(٢١٦) كان « جون أخا غير شقيق لايزابيلا وهو الابن الأكبر لماريا كومنينا • وقد اشتهر بعــد بجون صاحب بيروت وكانت وفاته سنة ١٢٣٦ •

(٢١٧) يرجع تاريخ منح هنرى الحمام والفرن الى البيــازنة الى ينــاير ويبــدو أن ســياسته كانت تهــدف الى الغــــاء المنــح والامتيــــازات التى منحت خلال السنوات ١١٨١ ـ ١١٩٢ ، انظر :
Riley-Smith, Feudal Nobility, 153-154.

(٢١٨) مات هرقل البطرك أثناء حصار عكا وعلى وجه التحديد ســنة ١١٩٠ • ولقد فشلت المحــاولات المبــكرة من قبــل ليحــل غــيره مــكانه ، راجع :
Edbury and Rowe, William of Tyre and the Patriarchal Election, pp. 14-15.

(٢١٩) لقــد أصبح موناخوس رئيس أساقفة قيصرية خلفــا لهرقل فى سنة ١١٨٠ •

(٢٢٠) راجع فقــرة ٣٧ •

(٢٢١) فيما يتعــلق بالمرسوم الذى يرجع فى الواقع الى ســنة ١١٩١ • راجع
Edbury & Rowe : op. cit., pp. 15-17.

(٢٢٢) الاشارة هنا الى نزاع ١١١٨ ـ ١١٢١ الذى وقع زمن جيلاســيوس

الثانى Gelasius « جريجورى الثامن » ، أما نزاع ١١٢٠ فكان شاملا أنوسنت الثانى والبابا المنشق « أناكليتيوس » الثانى ثم نزاع ١١٥٩ .

(٢٢٣) كانت الملكة حينذاك « ايشيفا » Eschiva ابنة بلدوين الابليني . أما قرية « باراديسى » Paradhisi فتقع على مقربة من الساحل الشرقى لقبرص أى الى الشمال من « سلاميس » القديمة .

(٢٢٤) كان بوهيموند الثالث يمت بصلة القربى البعيدة الى ملكى فرنسا وانجلترا .

(٢٢٥) كانت « سيبيلا » Sibylla هى الزوجة الثالثة لبوهيموند الثالث ، وتبعا لما قاله من قبل وليم الصورى فقد كانت مشهورة بممارسة « فنون الشر » .

وقد تم زواج « سيبيللا » وبوهيموند سنة ١١٨٠ حين طرح بوهيموند جانبا زوجته الثانية « تيودورا كومنينا » التى هى أخت الملكة ماريا . أما علاقة بوهيموند بسبيللا فقد أدت الى غضب الكنيسة عليه كما أدت الى حدوث شقاق بين كبار أشراف انطاكية .

وكان « ليو » قد تزوج بنت أخت « سيبيلا » فى سنة ١١٨٨ أو ١١٨٩ وكانت « سيبيلا » قد حاولت ابعاد « ريموند وبوهيموند (ولدى بوهيموند من زوجته الأولى) ليكون الامر خالصا لولدها الطفل . واذا أراد القارىء الوقوف على وجهة النظر الأرمنية عن هذه الأحداث فليراجع
La Chronique attribute au Connetable Sambat (1980), pp. 56-68.

(٢٢٦) تبعا لما يقوله « سمباط » فى المرجع السابق فقد جرت هذه الأحداث سنة ١١٩٣.

(٢٢٧) كان بوهيموند قد القى القبض على روبين (الذى هو أخو ليو الكبير) وسلفه فى الحكم (١١٧٥ ـ ١١٨٧) فى منتصف الثمانينيات . أما « جيهان » Jeyhan فهو النهر الذى كان يسمى قديما نهر « بيرا موس » Pyramos

(٢٢٨) ساسون أيضا هو الاسم الذى يطلق على الجبال الواقعة الى الجنوب الغربى من بحيرة « فان » والى الشرق من كيليكيا الارمنية ..

وقد مات « هيثوم » فيما بعد سنة ١١٩٣ أما أرملته « اليس » Alice

فقد تزوجت ريموند أمير انطاكيــة ٠ أما ابنهمــا المعــروف عــادة باسـم ريموند / روبين فقد أدار دفة حكومة انطاكيــة من سنة ١٢١٦ حتى ١٢١٩ ٠

(٢٢٩) كان الأمير ريموند نفسه من بواتييه ٠

(٢٣٠) Cf. Prawer, Crusaders Institutions, pp. 68-76.

(٢٣١) الواقع أن صلة القرابة كانت أشد مما هى مبينة هنا ٠

(٢٣٢) ذكر مترجم الذيل الى الانجليزية أن الجملة الآخيرة واردة فى نسخة واحدة من نسخ Eracle ٠

(٢٣٣) معظم الوارد هنا هو تكرار لما جاء فى الفقرة ١٤٧ ٠

(٢٣٤) كان موت صلاح الدين فى ابريل ١١٩٣ ٠

(٢٣٥) عن الأفضل نور الدين راجع فقرة ٢٥ ٠ وأما عن نبوءة صلاح الدين بأن أخاه سيذل أولاده فراجع فقرة ٥٢ ٠

(٢٣٦) أى السير بالمغاشــية ٠

(٢٣٧) اشارة الى أن أسرة صلاح الدين كردية الأصل ٠

(٢٣٨) بدأ العــادل سيف الدين باعانة الأفضل نور الدين فى دمشق ضد اخوته الذين كان لهم الحــكم فى مصر وحلب ٠ وقد تم طرد الأفضل من دمشق فى منتصف ١١٩٦ ، وأصبح سيف الدين هو الحــاكم الحقيقى هنــاك ٠

(٢٣٩) مات العزيز حاكم مصر فى نوفمبر ١١٩٨ ٠ ثم حدث بعدئذ أن حاصر الظاهر والأفضل دمشق ٠ أما دخول العادل القاهرة فكان فى فبراير ١٢٠٠ ونودى به سلطانا بعد ذلك فى أغسطس التالى ٠

وقد حــكم هو وخلفاؤه دمشق ومصر ومعظم البــلاد التابعــة لصــلاح الدين حتى سنة ١٢٥٠ تاركين الحــكم لذرية صلاح الدين فى حلب فقط ٠

(٢٤٠) المقصود بذلك ريموند دى بواتييه ٠

(٢٤١) هذا خلط من صاحب الذيل ذلك أن « ايمرى » Aimery كان قد أيد اختيــار البطرك « موناخوس » ضد معارضــيه الذين كانوا من جانب الكونت هنرى ٠ انظر فى ذلك فقرة ١٤٨ ٠

(٢٤٢) كان أفراد من أسرة « بيثان » Bethsan مشهورين بين نبــلاء كل من قبرص والقــدس فى هذا الوقت ٠

(٢٤٣) كان أولاد ايمرى من « ايشيفا » الابلينيــة وبنــات هنرى من « ايزابيلا » كلهم صغارا فى هذا الوقت ولقــد تزوج هيج الأول (١٢٠٥ ـ

١٢١٨) فى سـنة ١٢١٠ من « اليس دى شامبين » المتوفاة سـنة ١١٤٦ ، ثم هدأت الأمور بين هنرى وايمرى ٠

(٢٤٤) فى الاصل « سنة ١١٩١ » والصحيح هو ما أثبتناه فى المتن أعلاه ٠

(٢٤٥) راجع الفقرات ٧٣ ٩٤ ، ٩٨ ٠

(٢٤٦) اصبح هنرى هو الملك الذى لا منافس له فى صقلية سنة ١١٩٥ ٠

(٢٤٧) راجع الفقرات ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ ٠

(٢٤٨) راجع فقرة ٩٨ ٠

(٢٤٩) الاشارة هنا الى فردريك الثانى حفيد بربروسـة ٠

(٢٥٠) شارك هنرى نفسـه فى حمل الصليب فى فصح ١١٩٥ ٠

(٢٥١) كان رئيس هذه السفارة الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس هو المارشـال الامبراطورى هنرى « كالدن Kalden » ٠

(٢٥٢) كان مانويل كومنين قد وعد وليم الثانى أن يزوجه ابنتـه سنة ١١٧٢ ثم عاد فرجع عن وعده ٠ وقد مات وليم سنة ١١٨٩ بعـد أربع سنوات من فشـل حملتـه ٠ أما الكسيوس أخو اسحق انجيلوس فقـد اسـترد سنة ١١٨٦ « دورازو » التى كانت أخر معقل للنرمنديين فى الأراضى البلقانيـة ٠

(٢٥٣) راجع فقرة ٨٨ ٠

(٢٥٤) المقصود بذلك مملكة صقلية ٠

(٢٥٥) المقصـود بذلـك كـونراد أسـقف « هلد شايم » Heldescheim الذى أصبح بعد ذلك أسقف « فبرزبيرج » Wurzburg ١١٩٨ ـ ١٢٠٢ ٠

(٢٥٦) وصل القسـم الرئيسى من الصليبيين الى عـكا فى سبتمبر ١١٩٧ ٠

(٢٥٧) كان كونراد قد أصبح رئيسـا لأساقفـة « مينز » سـنة ١١٨٣ ٠

(٢٥٨) هو المعروف بهنرى دى برنزويك كونت بلاتين الراين (١١٩٥ ـ ١٢٢٧) ٠

(٢٥٩) ظل كونت برابانت Brabant من ١١٩٠ حتى ١٢٣٥ ٠

(٢٦٠) فيمـا يتعـلق بتتـويج ايمـرى وعـن مسـتهل الملكيـة فى قبرس راجع :

P. W. Edbury. The Kingdom of Cyrus & the Crusaders. (Cambr. 1911), pp. 31-32.

(٢٦١) انظر فيما بعـد فقرة ١٨٢ ٠

(٢٦٢) كان هيج الطبرانى أحد من قام ريموند الثالث كونت طرابلس بتربيتهم والعناية بهم فى صغره ، وبهذا لم يكن ولده . ولا يمكن فهم السبب الذى من أجله يشار اليه فى هذا الموضع مما قد يومىء الى مكانة خاصة كان يتمتع بها .

(٢٦٣) يخطىء الذيل هنا اذ يضع كلمة « وليم » بدلا من رينالد . على أنه من الثابت أنه كان من أهل بواتييه ومن أتباع جى دى لوزنيان .

(٢٦٤) كانت « مرجريت » التى هى ابنة لويس أرملة الملك « بيلا Bela الثالث (١١٧٣ ـ ١١٩٦) .

وكان الذى جاء بعد ايمرى وخلفه فى الحكم هو « ايمريك » Emeric (١١٩٦ ـ ١٢٠٤) الذى هو ابنه من زوجة كان قد تزوجها فى عهد مبكر .

(٢٦٥) مات هنرى يوم العاشر من سبتمبر ١١٩٧ .

(٢٦٦) كان الاستيلاء على عكا فى سبتمبر ١١٩٧ ثم عادت الى الحكم المسيحى سنة ١٢٠٤ . ويلاحظ أن البطرك « جيرالد » Gerald (١٢٢٥ ـ ١٢٢٩) بنى برجه عند الطرف الجنوبى من المدينة سنة ١٢٢٩ .

(٢٦٧) بدأ الحصار يوم ٢٨ نوفمبر ١١٩٧ .

(٢٦٨) كان تتويج ليو الذى دشن الملوكية فى أرمينية الكيليكية يوم السادس من يناير ١١٩٨ .

(٢٦٩) كان رفع الحصار يوم الثانى من فبراير ١١٩٨ . أما الامبراطور فكان قد مات يوم الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٩٧ .





فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
أحداث أرمنية وغرق فردريكا وآثاره	١٧١
الداعي لفردريكا لحضوره برا	١٧٣
العودة للحديث عن أخبار عاهلي فرنسا وانجلترا .	١٧٨
ريتشارد يعرض على فيليب تأخير زواجه من اخته الى ما بعد الرجوع من الشرق	١٨١
ريتشارد يعتزم الذهاب الى صقلية لزيارة أخته ملكتها	١٨٢
مؤلف الذيل يتساءل عن علة فساد الأواصر بين عاهل فرنسا وانجلترا ثم يجيب عنه هو نفسه . .	١٨٣
النزاع بين الانجليز والفرنسيين فى صقلية . . .	١٨٤
المجاعة بين الصليبيين وأكلهم ماهو مستنكر . .	١٨٦
الفوضى فى صفوف المحاربين	١٨٦
موت « سيبيلا » وعدم وجود وريث سوى ايزابيلا .	١٨٧
طمع المركيز فى الزواج من ايزابيلا ليرث العرش .	١٨٧
تدخل أطراف خارجية وبابوية فى النزاع حول العرش .	١٨٨
المندوب البابوى يتدخل فى النزاع الى جانب المركيز .	١٨٩
العمل على طلاق ايزابيلا لصالح المركيز	١٩٠
الزواج بينهما	١٩١
ملك فرنسا يسافر الى فلسطين والترحيب به من جانب أهل عكا . ومحاصرته اياها	١٩٢
اليانور أم ريتشارد تدبر زواج ولدها من برنجاريا والأميرة الاسبانية حتى لا يتزوج أخت ملك فرنسا ، وترتيبات هذا الأمر	١٩٤
اليانور ترسل برنجاريا لولدها للزواج	١٩٦

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

هذا الكتاب عن ذيل وليم الصورى وهو ترجمة لتاريخ وليم الصورى للحروب الصليبية الذى قام بترجمته المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور حسن حبشى أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس. والذى قام بترجمته كتاب وليم الصورى الشهير عن الحروب الصليبية، والذى صدر فى هذه السلسلة فى أربعة أجزاء: ٤٥، ٥٥، ٦٨، ٧٧ .

وهذا الكتاب يعتبر تذييل من المؤلف لكتابه عن الحروب الصليبية.

وبالتالى تكون هذه السلسلة بإصدار هذا التذييل. لوليم الصورى، قد استكملت عملاً علميا هائلا بفضل جهد عالم جليل هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى الذى قام بترجمة هذه الأعمال العلمية.



٤٢٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب